سلسلة الوعي الحضاري (11)

قــرن الرعب الأفريقي

- الغزو والمقاومة -

عايدة العزب موسى

دار البشير للثقافة والعلوم

قــرن
الرعب الأفريقى
- الغزو والمقاومة -

اسـم الكتـاب: قرن الرعب الأفريقي
التـأليـف: عايدة العزب موسى
موضع الكتـاب: سياسة
عـدد الصفحـات: 208
عـدد المـلازم: 13
مقاس الكتـاب: 17 × 24
عـدد الطبعـات: الطبعة الأولي
الإيداع القانوني: 2014 / 17650
الترقيم الدولـي: I.S.B.N.978/977/278/454/7
الصـف التصويري: الندي للتجهيزات الفنية

1435 هـ
2014 م

التوزيـع والنشـر
دار البشير للثقافة والعلوم
مصر
darelbasheer@hotmail.com
darelbasheeralla@gmail.com
ت: 01152806533 - 01012355714

- (02) 37498745 - (02) 37498718
01115700570
www.ccps-egypt.com
cenciv@ yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

تقديم

عندما بدأت أصبو نحو المعرفة بالقارة الإفريقية تجسدت لدى رغبة وتمنيت أن أساهم فى كتابة تاريخ القارة بعيون إفريقية،وقد تحقق لى هذا الأمل المنشود بهذا الكتاب الثالث عن تاريخ إفريقيا «غزو القارة ومقاومة شعوبها». سبقه كتابان الأول«العبودية فى إفريقيا» والثانى «تجارة العبيد فى إفريقيا»، وبهذه الثلاثية أرجو أن أكون قد سددت شيئًا لقارتنا المظلومة.

لا أدعى أنى جئت بجديد أو بحدث مغاير لما هو مسجل ، فقدحصلت على المعلومات من الكتابات الغربية بأقلام الرحالة والسياسيين والمفكرين الأوروبيين فهذا هو المتاح، إذ أن التاريخ الإفريقى لم يكتب بعد بأقلام إفريقية اللهم إلا القليل جدًا.ولكن كان لى فيا قرأته وحصلت عليه من معرفة نظرة مغايرة ومفاهيم مختلفة للحدث..ان الحدث هو الحدث ولكن فهمه وتفسيره يختلف من نظرة إلى أخرى ومن تحليل لآخر. على سبيل المثال أكذوبة أكل الأفارقة لحوم البشر الذى وصم به الافارقة يذكره المؤرخ مادهو بانيكار فى كتابه القيم«الوثنية والإسلام» ص٢٢٩:كان لدى الإفريقيين استعداد للنظر إلى الأوروبيين على انهم مخلوقات جبارة؛ ذلك أن الزنوج عندما رأوا الحملة المراكشية ظنوا أن سلطان مراكش يستخدم فى الحملة مخلوقات جبارة يمكن أن تدمر الزنوج (يقصد بهم الاسبان الذين كانوا فى جيش السلطان) فالبشرة البيضاء كانت تعتبر فى بعض المناطق خاصة بأناس نهضوا من القبور،وكذلك كان الزنوج يرجعون سبب تجارة الرقيق لأن الأوروبيين مغرمون بأكل «اللحم الأسود». وقد استطاعت الكتابات الغربية المزيفة أن تقلب الأمور وتدعى أن الافارقة هم المغرمون بأكل لحوم البشر ، وللأسف روجت بعض الكتابات العربية لهذه الأكذوبة حتى أنه عندما سقط بوكاسا أول رئيس أفريقى لجمهورية إفريقية الوسطى بعد الاستقلال ظهر فى الصحف العربية من يذكر أن ثلاجة مقر الرئيس كانت مليئة بلحوم آدمية، هذا رغم أن القائد الفرنسى الذى قبض على بوكاسا نفى ذلك بشدة.

يفسر الكاتب النيجيرى ريمى كابو ذلك بقوله «عندما حدثت العبودية وجد نمط يعتبر الأسود جنسًا إفريقيا أدنى ينظر إليه أنه أقل ذكاء بينما الرجل الأبيض ينظر إليه باعتباره أسمى، ثم جاء علماء الاجتماع فى القرن ١٩ من امثال داروين يتحدثون عن عدم المساواة الذهنية للأسود وفرض هذا المفهوم مرة بعد أخرى، وعندما انتهى كل ذلك فى ستينيات القرن العشرين باستقلال القارة فإن الجماهير البيضاء لم تفطن ولا عرفت أن الشعب الأسود ليس أقل بشرية وليس قريبًا من القرود والحمقى وغير ذلك، ومن ثم فقد انتهت المعركة ويفترض أننا جميعًا متساوون ولكن لم يحدث شىء متعلقًا بهذه الفكرة الشيطانية».

إن الغزوات الأوروبية الأولى لإفريقيا بدأت فى القرن ١٥ عندما جاء البرتغاليون الذين أنشأوا شبكة من الحصون والمستودعات على الساحل الغربى،ودخلت إفريقيا عهد تجارة الرق التى امتدت أربعة قرون. وبعد إلغاء الرق عام ١٨٠٧ ابتدعت الثورة الصناعية التى ظهرت حاجتها إلى المواد الأولية والأسواق لتصريف منتجاتها، ابتدعت شكلًا آخر من العبودية وهو استعباد الأرض بمن عليها؛ أى أن يحتلوا أرض القارة وما فيها من بشر، ذكر المبشر الاسكتلندى التابع للكنيسة البروتستانتية فى أوغندا «الكسندر ماردوج ماكى» فى عام ١٨٨٩ :«فى السنوات الماضية كان الهدف العام هو سرقة الإفريقيين من إفريقيا، واليوم صارت أوروبا مصممة على أن تسرق إفريقيا من الإفريقيين».

إن فى تاريخ الشعوب والأماكن أحداث ووقائع تُغير مجراها بل قد تحدد مسيرتها لمئات السنين، ولكن هذه الأحداث كثيرًا ما تتجاهل أو تذكر كشىء عابر عادى، هذا التجاهل غالبًا ما يأتى من صانعيها أو المستفيدين منها الذين جنوا ثمارها. ويعتبر مؤتمر برلين الذى انعقد فى القرن ١٩ (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥) من الأمثلة الصارخة. هذا المؤتمر اللعين هو الذى فتح الباب على مصراعيه للمستعمرين الأوروبيين ليلتهموا قارة بأكملها يقسموها بينهم ويرسموا حدودها على الورق دون الالتفات لحقوق شعوبها وقبائلها، وكان هذا التقسيم من الجور مما حدى بأكبر المستعمرين لورد سالزبورى أن يقول عبارته الشهيرة «لقد أعطينا لبعضنا جبالًا وأنهارًا وبحيرات فى حين أننا لم نكن نعرف أين تقع هذه الأشياء بالضبط، ولم يثر أيه غرابة أو دهشة حين تبين فى بعض الأحيان أن جبالًا وأنهارًا وبحيرات لم تكن موجودة أصلًا».

لا أقول عن مؤتمر برلين أنه تجوهل تماما أو لم يسجل فى كتب التاريخ ولكنه عومل كحدث عابر شأنه شأن الأحداث والمؤتمرات العديدة التى عقدت من أجل الشأن الإفريقى. حتى فى عام ١٩٨٤ الذى كان يوافق ذكرى مرور مائة سنة على انعقاد المؤتمر مر الحدث بلا أدنى اهتمام

لا من المستعمرين صانعيه المستفيدين منه ولا من الإفريقيين الذين عانوا وتعذبوا من نتائجه. المستعمرون اعتبروه شيئًا مشينًا من مصلحتهم أن يتناسوه ، والإفريقيون حاولوا تجاهله حتى لا يذكرهم بماض مهين مرير، ولا أدرى ما الذى يخجلنا نحن الإفريقيين من ماضينا أو احتلالنا أو حتى استرقاقنا. إن تحرير العقل الإفريقى من عقدة عبوديته لا يعنى محو تاريخ الرق من الذاكرة، فمن الحكمة أن يتبنى الأفارقة تاريخهم بكل فخر واعتزاز ويخلدوا بطولاتهم فى المقاومة حتى ولو كانت قد فشلت ولم تقو على الصمود أمام حجافل جيوش المستعمرين المدججين بالأسلحة النارية الحديثة التى حصدتهم. إن ذلك لا يشينهم ولا يظهر ضعفهم بل يظهر ضعف القيم الإنسانية والضمير الإنسانى ويوقظ فى الضمائر المسئولية تجاه هذه القارة المظلومة.

ألخص هذا الكتاب فى كلمتين«الغزو»«والمقاومة» ، والكتابات عن غزو واحتلال إفريقيا عديدة لا حصر لها منها المحايد ومنها الجائر، ولكن قلة قليلة جدًا ما تتحدث عن مقاومة الافريقيين وتضحياتهم واستبسالهم من أجل سيادتهم ووجودهم. يكاد هذا الأمر يكون منكرًا حتى من الإفريقى ذاته إذ إنه يشعر بالخزى عندما يتذكر الفترة الاستعمارية. وقد حاولت أن أسجل بأمانة ماضينا ما واجهناه وما فعلناه وما عانيناه، وهل كنا متهاونين فى صد العدوان أم أننا فعلنا ما كان باستطاعتنا ومقدرتنا أن نفعله فى ذلك الحين.

إن من مسئوليتنا أن نكشف عن ماضى إفريقيا الدفين وندرسه بكل فخر واعتزاز والحمد لله ليس فيه ما يشين ،إن الذى يجب أن يخجل منه هم المستعمرون الأوروبيون المتشدقون بالسمو والتحضر والتفوق وبحقوق الإنسان فهو عار على أوروبا.

*****

الجزء الأول

غزو القارة

- تمهيد:
- الفصل الأول: الاندفاع نحو القارة.
- الفصل الثاني: مؤتمر برلين.
- الفصل الثالث: اقتسام الفطيرة الإفريقية.
- الفصل الرابع: الخلاصة خريطة إفريقيا الاستعمارية

تمهيد

يختزل تاريخ إفريقيا فى حادثين حددا مصيرها هما تجارة العبيد عبر الأطلنطى ومؤتمر برلين. الحدث الأول امتد أربعة قرون من القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر. فيه فقدت إفريقيا ما يقرب من مئة مليون من أبنائها ، هذا العددالمهول من شبابها فقد ما بين عمليات الصيد أو الأسرأو فى أثناء الرحلة الطويلة عبر المحيطات على ظهر سفن العبيد من سواحل القارة الإفريقية إلى القارات الأمريكية وأوروبا ، وهناك سحقت آدميتهم واستُخدم الإفريقيون لا بوصفهم آدميين بل كقوة محركة كما تستخدم الجمال والخيل وغيرها من وسائل النقل والحرث ، وهذا أقسى وأبشع ما يستخدم فيه البشر لا من حيث الجهد العضلى فقط ولكن من حيث النظر إليه باعتباره خارج نطاق البشر. وقد ذكر «كارل ماركس»: «بغير العبودية ما كانت توجد الصناعة الحديثة ؛ فالعبودية هى ما أعطت المستعمرات قيمتها الحقيقية، والمستعمرات هى التى أوجدت التجارة العالمية والتجارة العالمية كانت شرطًا مسبقًا للتصنيع على نطاق واسع، ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى للعبودية».

وفيما عدا اقتناص العبيد لم تظهر بوضوح دوافع قوية تحرك السياسة الأوروبية نحو امتلاك إفريقيا فى النصف الأول من القرن ١٩ ، لم تكن تبلورت وظهرت الدوافع الجامحة التى تدافعت فى النصف الثانى من القرن ١٩ وأدت إلى التكالب الاستعمارى على القارة، ففى مطلع القرن كان التدخل الأوروبى فى إفريقيا ينحصر فى المناطق الساحلية من القارة، ولم تكن الدول الأوروبية لها سيطرة إلاعلى أجزاء صغيرة من اطراف القارة، ولكن الدول الأوروبية سرعان ما انتقلت فى نهاية القرن من المرحلة الجزرية أو الساحلية إلى مرحلة التوغل داخل القارة ، ووصل الأمر فى نهاية القرن إلى درجة من النهم الإستعمارى الذى كاد يؤدى إلى الاصطدام الدموى بين الدول الأوروبية الكبرى المتنافسة.

وحتى بعد ما ظهر التكالب الدولى نحو إفريقيا لم تكن دوافع الاستعمار فى القارة تحددت.

كان بعضها دينيًا وبعضها اقتصاديًا أو أطماعًا شخصية أو ضرورة للهجرة الزائدة من سكانها. فمثلًا استيلاء فرنسا على الجزائر ١٨٣٠ لم يكن السبب المباشر اقتصاديًا بل استراتيجيًا ، فقد طمعت فرنسا فى الجزائر لأن سواحلها تجاور فرنسا، كما كانت مشكلة البحر المتوسط وتقسيم الإمبراطورية العثمانية هى ما حث فرنسا أن تتخذ عملًا إيجابيًا تقاوم به تدخل الإنجليز فى البحر المتوسط، وهناك سبب آخر يتعلق بفرنسا ذاتها حاولت به أن تثبت قوتها ونفوذها، فمنذ الحروب النابوليونية مرت فرنسا بفترة من الضعف كادت تفقدها مهابتها الدولية ، وكان الشعب فى حالة قلق وتذمر داخلى فاستخدمت احتلال الجزائر لتحويل نظر الشعب من الناحية الداخلية إلى ناحية خارجية حاولت به فرنسا أن تظهر أنها أفاقت من ضعفها وأصبحت تفكر من جديد تفكيرًا إمبراطوريًا.

وفى العشرين سنة الأخيرة من القرن ١٩ تجلت بوضوح سياسة الاستغلال الاقتصادى فى الاستعمار، فبعدما انتقلت مقاليد الامور فى الدول الصناعية إلى الرأسماليين وطبقات التجار وأصحاب المصانع تحول التوسع الاستعمارى إلى أغراض تجارية وصناعية ومالية وأصبح الغرض من الاستعمار صراحة غرضًا اقتصاديًا وهو الحصول على مستعمرات تكون اسواقًا لمنتجاتهم وحاصلاتهم واختفت حجة ضرورة المستعمرات لامتصاص الزائد من السكان فلم يكن فى الدول المستعمرة فائضًا سكانيًا.

الحدث الثانى هو مؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥ الذى قسمت بمقتضاه القارة وقطعت شلوًاشلوًا، ورُسمت فيه الحدود على الورق وسرقت الأرض من أصحابها وضاع استقلالها وثرواتها الطبيعية واستعبد أهلها على أرضهم. ويعد القرن ١٩ «قرن الرعب الإفريقى»، تمت فيه كل هذه الاحداث الجسام، فى بدايته لم يكن هناك شبر محتل فى إفريقيا وفى نهايته لم يعد فيها شبر مستقل باستثناء ليبيريا والحبشة (أثيوبيا).

بدأت اقدام الاوروبيين تطأ أرض أفريقا فى القرن ١٥ عندما ابحر البرتغاليون إلى سواحل غرب افريقيا عام ١٤٤٤ واسسوا بعض الحصون على السواحل مثل حصن سان چورچ والمينا فى غانا. وفى القرن ١٧ وصل الهولنديون وبعدهم الإنجليز ثم الفرنسيون والدانماركيون إلى سواحل غرب إفريقيا ، ولكنهم رغم هذا التكالب على السواحل لم يتمكنوا من التوغل إلى الداخل بسبب قوه ملوكها وتماسكهم؛ لذلك اكتفوا بتجارة الرقيق على السواحل. وقد امتدت هذه المرحلة إلى القرن ١٩ وتعتبر المرحلة الأولى للاستعمار الاوروبى لغرب إفريقيا.

فى البداية لم يكن الأوروبيون يعرفون عن إفريقيا سوى الساحل الشمالى وبعض المراكز التجارية على سواحلها الغير معروفة ولا محددة، كانت إفريقيا بالنسبة لهم قارة ذات حافات أو هوامش معروفة من الناحية البحرية قليلة الاتصال بالجزء الداخلى من القارة لذلك سميت بالقارة المظلمة، وتبين من هذه التسمية أن معظم الأجزاء الداخلية منها كان مجهولاً. وبالاستكشافات الجغرافية اندفع الأوروبيون نحو امتلاك هذه الأجزاء، وأدى التنافس الاستعمارى الشرس أن سقطت القارة كلها شعوبًا وأرضًا وثروات فى يدالمستعمرين.

انبعثت الشرارة الأولى فى نشاط الحركة الاستعمارية فى إفريقيا من مشروعات الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا واستيلائه على الكونغو ، فاتجهت بريطانيا إلى شرق إفريقيا وإلى نهر النيجر فى الغرب الإفريقى، وفرنسا إلى وسط إفريقيا وشمالها آملة أن تمتد سيطرتها على الساحل الشمالى إلى الصحراء ليصل أملاكها فى غرب إفريقيا بالكونغو. وأدى هذا التنافس الإمبريالى لإفريقيا أن سقطت القارة كلها فى يد المستعمرين.

أما المرحلة الثانية الاستعماريةفبدأت بعد مؤتمر برلين الذى خُطط فيه لابتلاع القارة. وصف مؤتمر برلين بأنه اكبر عملية اغتصاب عبر التاريخ، فيه تقرر تقسيم القارة بين القوى الأوروبية الاستعمارية، وتعيين مناطق نفوذ لكل منها حتى لا تحدث صراعات ومواجهات بينهم فى أثناء تكالبهم على احتلال المناطق، وتحكمت مصالح الدول الأوروبية فى هذا التقسيم الذى تم دون أدنى اعتبار لأوضاع الكيانات الاثنية فى القارة، فكانت نتيجة هذا التقسيم العشوائى أن توزعت الجماعية الاثنية الواحدة وتجمع جماعات أخرى لا تربط بينها أيه صلة ولا يجمعها إحساس مشترك بالإنتماء إلى قومية واحدة مما أدى إلى تنافر بين هذه الجماعات التى ربطت بينها الحدود المصطنعة، وقادت فى بعض الاحيان إلى صراعات دموية بين الجماعات المكونه للدولة.

إن الحدود المصطنعة التى رسمها المستعمرون للقارة فى مؤتمر برلين هى التى أوجدت مشاكل الحدود الحالية؛ لان هذه الحدود لم توضع تعبيرًا عن أوضاع سياسية أو حقائق اجتماعية ذات دلالات إنسانية أو تاريخية معقولة ومقبولة عند أهل البلاد، بل انها على عكس ذلك تمامًا وضعت فى معظم الأحيان على اسس تحكمية اعتباطية عبرت أولاً وقبل كل شىء عن المصالح والمطامع التى كانت المحرك الدافع للدول الاستعمارية.

* * *

إن ما حدث فى إفريقيا فى القرن ١٩ الذى يوصف بقرن الرعب الإفريقى يفوق كل تصور، ففى مرحلة تجارة الرق التى امتدت أربعة قرون كان القرن ١٩ هو القرن الأكثر فى عدد من استرقوا واستعبدوا من الإفريقين رجالًا ونساء وأطفالًا ، وهو الأكثر عددًا بالنسبة لمن قتلوا فى هذه العمليات. وقد أدى ذيوع هذه الجريمة البشرية على نطاق واسع إلى ضغوط من العالم الغربى ضد هذه التجارة، وتزعمت بريطانيا حملة تحريم الاتجار فى الرق بحجة انتهاك هذه التجارة للمبادئ الإنسانية. والحقيقة أن سعى بريطانيا لالغاء الرق لم يكن من منطلق إنسانى وإنما لمصلحة ذاتية، فبعد أن فقدت بريطانيا مستعمراتها فى امريكا الشمالية وفقدت سيطرتها على أمريكا قلت حاجتها إلى الرقيق هناك، ولم يعد الرق يعود عليها بالربح المأمول.

حدث إلغاء تجاره الرق جنبًا إلى جنب مع صعود الاستعمار الإمبريالى،لم تكن أوروبا مهتمة بالمساواة بين البشر أو فى حقهم فى الحياه أحرارًا فقد كان ذلك أمور أبعد ما يكون فى أجندتها السياسية وإنما كانت تريد السيادة والسيادة فقط، وهذا هو السبب العميق لإلغاء تجارة الرق فمع ظهور الآلة البخارية كقوة محركة حلت محل القوى البشرية لم يعد لدى الأوروبيين مصلحة فى اصطياد العبيد من إفريقيا وتصديرهم إلى أمريكا، بل صارت مصلحتهم فى استبقاء الإفريقيين فى إفريقيا واستعبادهم فيها واستخراج ثروات القارة لتصديرها إليهم، ألغوا عبودية الفرد لأنهم قرروا استعباد إفريقيا بأكملها بشرًا وأرضًا.وهكذا فتح الطريق للتغلغل الأوروبى وبدأ عصر الاستعمار المباشر لإفريقيا، وظهر التدخل البحرى بحجة منع سفن الرقيق ولحماية مصالح التجار الأوروبيين التى صارت أكثر طموحًا واشتباكًا فى الصراعات الإفريقية، ثم استتبع ذلك إنشاء القنصليات الأجنبية بسلطات واسعة حيث مارست نفوذها بإحكام للسيطرة السياسية على البلاد الإفريقية بعد غزوها.

ولكن هذا التغول والافتراس الأوروبى لإفريقيا أدى من ناحية أخرى إلى الاستفزاز وتقوية مشاعر المقاومة وظهور الروح القومية التى كانت أكثر وضوحًا فى غرب إفريقيا فمقاومة اليوروبا والأشانتى وداهومى وممالك الهوسا، وتحالف القوى المتجاورة المحلية ضد النفوذ الأجنبى وبخاصة الفرنسى والبريطانى لا يمكن أن يفسر إلا بظهور الروح القومية بين الإفريقيين لذلك يوصف القرن التاسع عشر أنه اقترن بسمتين: استعمار القارة وتفتيتها وظهور الروح القومية.

* * *

بالنظر إلى خريطة إفريقيا فى بدايات القرن ١٩ وفى نهاياته نلاحظ على الخريطة الأولى عددًا ضئيلًا من الممتلكات الأوروبية فى إفريقيا، أما الخريطة الثانية فنرى كل القارة تقريبًا قد قسمت إلى مستعمرات أوروبية. لم يتم هذا عن طريق الغزو والاحتلال الفعلى بل من خلال معاهدات سياسية بين الدول الأوروبية العظمى التى رسمت الحدود على الورق، وهذه الحدود الوهمية هى نفسها التى أصبحت حدود الدول الإفريقية الحالية مع كل ما ترتب عليها من عواقب.

إن القرن ١٩ هو حقبة تمزيق وتقسيم واحتلال إفريقيا، فى بداياته قامت العلاقات الاستعمارية بين أوروبا وإفريقيا فى شكل تبادلات تجارية إذ لم يكن الاستعمار يظهر فيه بشكل سافر بعد، وبعد نصف قرن بوشرت تطبيقات عملية تم بموجبها تقسيم القارة بوتيرة شديدة السرعة. وفى نهاياته كان التقسيم قد أنجز ونشر الأوروبيون سيطرتهم على القارة كلها، وما يصدم فى عملية التقسيم لا يكمن فيما حصل بل بالاستخفاف الذى تمت خلاله هذه العملية. والمعروف أن القارة الإفريقية فى الفترة ما بين ١٨١٥ـ١٨٣٠ شهدت نوعًا من الثبات النسبى فيما يتعلق بالأوروبيين بغزو إفريقيا إذا أغفلنا طرفيها الشمالى والجنوبى. غير أن هذا الثبات انهار بعد عام ١٨٨٠. ففى عام ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس، وفى العام التالى احتلت إنجلترا مصر ١٨٨٢، وكان لهذا الاحتلال تأثير كبير على مسار تقسيم إفريقيا، ويمكن القول بأن تقسيم إفريقيا كان مرتبطًا بالمسألة المصرية. لم تكن إنجلترا وفرنسا الدولتان الوحيدتان اللتان ترغبان بالاستيلاء على أجزاء من القارة، بل برزت هذه الرغبة أكثر فأكثر فى دول أخرى وظهر التنافس فى كل أجزاء إفريقيا، ويمكن القول أن إنجلترا هى من أطلقت هذه العملية التى تسارعت بمبادرات فرنسية وبلجيكية ثم دخلت ألمانيا الحلبة وتبعتها إيطاليا.

****

الفصل الأول

الاندفاع نحو القارة

١. إفريقيا قبل الغزو الأوروبى.

٢. دوافع الغزو.

٣. بدء الغزو: مرحلة الاستكشاف.

٤. سياسة الإلحاق.

٥. التوغل والاحتلال الفعلى.

١ـ إفريقيا قبل الغزو

حتى عام ١٨٨٠ لم تدخل إفريقيا فى دائرة الحكم المباشر للأوروبيين إلا مناطق محدودة من القارة هى المناطق الساحلية من السنغال فى غرب إفريقيا ومعها مدينة فريتاون وضواحيها وفى سيراليون، والأجزاء الجنوبية من ساحل الذهب (غانا) والمناطق الساحلية لأبيدجان فى ساحل العاج وداهومى (بنين حاليًا) وجزيرة لاجوس (بنيجيريا). أما شمال إفريقيا فإن الجزائر وحدها هى التى وقعت فى يد الاستعمار الفرنسى، ولم يدخل شبر واحد من شرق إفريقيا فى دائرة أية قوة أوروبية، بينما خضعت بعض الأشرطة الساحلية لموزمبيق وأنجولا دون غيرها فى وسط القارة لحكم البرتغال.

مختصر القول أنه حتى عام ١٨٨٠ كانت نسبة ٨٠٪ من القارة الإفريقية فى يد ملوكها وملكاتها ورؤساء عشائرها[1]. وإن أهم الاحداث التى وقعت بعد ذلك كان على أثر مؤتمر برلين ١٨٨٤ـ١٨٨٥ وهى الفترة التى شهدت غزو معظم القارة واحتلالها على يد القوى الأوروبية. لم يكن الاستعمار يمثل لافريقيا فقدًا لسيادتها واستقلالها فحسب بل كان تفتيتًا للمجتمعات الإفريقية وهجومًا على الثقافات القائمة أطاح بالعالم الإفريقى القديم كله الذى وجد نفسه دون سابق استعداد مضطرًا للتكيف مع الظروف الجديدة أو الهلاك، وأدى إلى اختلال معنوى ومادى يقترب فى عمقة وجد به من حالة التفكك الشامل.

ماذا عن موقف الإفريقيين أنفسهم إزاء هذا الاستعمار الذى استتبع تغييرًا عميقًا فى طبيعة العلاقات التى قامت بينهم وبين الأوروبيين؟. إن الاغلبية الساحقة من السلطات والقيادات

---

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المجلد السابع لافريقيا فى ظل السيطرة الاستعمارية ١٨٨٠ـ١٩٣٥. تأليف اللجنة العلمية لتحرير تاريخ إفريقيا العام(اليونسكو)ص٢٣. يلاحظ فيما يجد من إشارات لهذا المرجع بعد ذلك، أنى اطلعت على القسم الأول والثانى والسادس والسابع والثامن والثالث عشر من الكتاب نفسه. ثم أتممت مطالعة الكتاب من خلال شبكة الاتصالات. والإشارة إلى أرقام الصفحات حيثما تذكر فى الهوامش يراعى بشأن الترقيم الوارد فى شبكة الاتصالات الدولية.

الإفريقية ناهضت هذا التغيير بعنف وحاولت الاحتفاظ فوق كل شيء بالسيادة والاستقلال. والحقيقة المنكرة أن مرحلة الغزو الفعلى سبقتها سنوات من التفاوض وعقد الاتفاقات بين القوى الإمبريالية والحكام الإفريقيين، وفى مرحلة التفاوض هذه تقبلت القوى الأوروبية فى البداية نظراءها الإفريقيين كأنداد متكافئين، كما كانت تعترف بسيادة واستقلال الدول والكيانات السياسية القائمة فى القارة.

وعلى غير ما يشاع فالثابت أن الإفريقيين لم يتقبلوا السيطرة الاستعمارية بسهولة، وتدل الوقائع على أن رد فعل الافريقيين كان عنيفا فلم يكن أمامهم خيار إلا خياران لا ثالث لهما، إما أن يسارعوا بالتنازل عن سيادتهم واستقلالهم أو أن يدافعوا عنها مهما كان الثمن. والشاهد أن معظم الحكام الإفريقيين بغض النظر عن النُظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة فى دولهم، وعلى الرغم من كل الصعوبات قرروا الدفاع عن سيادتهم وعن استقلالهم. هذا فى الوقت الذى كان متاحًا للافريقيين أن يحصلوا على بعض المزايا المترتبة على الاتفاقيات مع الأوروبيين والتعاون معهم مثل إمكانية الحصول على الأسلحة النارية والسلع الاستهلاكية والاستعانة بالأوروبيين كحلفاء أقوياء عند حدوث النزاعات الداخلية والخارجية فيما بينهم. فلماذا رفضت كثير من الدول الإفريقية هذه الفرص واختارت أن تقاوم الأوروبيين؟.

إن المسألة لدى الإفريقيين لم تكن قضية مزايا ولكنها قضية أرض وسيادة، وهذا ما دفع الكيانات الإفريقية ان تختار طريق الدفاع عن سيادتها أو محاولة استردادها، فالمسألة فى نظرهم لم تكن قابلة للتنازل بل إن كثيرًا من قادة الدول فضلوا الموت فى ميدان المعركة أو الفرار الاختيارى أو مواجهة النفى الإجبارى على التنازل عن سيادتهم دون كفاح.

كانت القضية الأساسية بالنسبة للحكام الإفريقيين بين عامى ١٨٨٠ـ١٨٩٠ قضية السيادة. لم يوجد حاكم واحد كان مستعدًا للتنازل عن أرضه، حتى الحكام الذين وصفوا خطأ بأنهم مالئون للاستعمار، فقد كانوا يعتقدون أن أفضل وسيلة للاحتفاظ بسيادتهم أو لاسترداد هذه السيادة التى ربما كانوا فقدوها أمام قوة أفريقية أخرى قبل وصول الأوروبيون هى «التحالف» مع الغزاة الأوروبيين وليس ممالأتهم، فالمالئ هو الذى يخون القضية الوطنية بالعمل مع العدو بغية تحقيق أهداف هذا العدو على حساب مصالح أمته، ولكن جميع الافريقيين واجهوا خيارًا صعبًا بين الاستلام أو الاحتفاظ بالسيادة أو استردادها، ومن ثم فإن من ربطوا مصيرهم بالأوروبيين كان سعيًا وراء تحقيق أهدافهم الخاصة[1]

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ص٣١ـ٣٢

ولكن تغيرت العلاقات بين الإفريقيين والأوروبيين تغيرًا جذريًا بعد أن واجهت إفريقيا استعمارًا خطيرًا مدمرًا. فماذا حدث للعلاقات بين إفريقيا وأوروپا، وكيف أقيم النظام الاستعماري فى افريقيا؟ وما هى التدابير السياسية والاقتصادية والسيكلوجية والايدلوجية التى اتخذت لتثبيت هذا النظام؟ وما هى التغيرات التى قبلتها إفريقيا والتغيرات التى رفضتها؟ وما الذى أبقى عليه النظام القديم وما الذى دمر؟ وماذا حدث من تكيف وتأقلم؟ وكم مؤسسة اختلت وضعفت وكم واحدة تفككت؟ وما هى آثار تلك الظواهر على إفريقيا وعلى شعوبها وعلى مؤسساتهم وهياكلهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟.

فى الوقت الذى هبط فيه الأوروبيون على الساحل وبنوا القلاع كانوا يؤدون أجورًا لهذه الشعوب الصغيره الموجودة على الساحل. ويمكن التصور أن الرؤساء فى هذه المناطق الساحلية كانوا مرحبين بهذا الدخل غير المتوقع وهذه الأهمية الجديدة التى اكتسبوها، فعلى طول ساحل غينيا كانت العشرات من الدول الأوروبية تتنافس بسفنها وتجارها وتتداول التجارة عبر العديد من الأيادى والمجالات، وكان لدى شعوب ساحل غينيا الممتد من ساحل غانا غربًا إلى ساحل بنين ثم ساحل نيجيريا ـ شرقًا ـ القوة الكامنة للمقاومة وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم عندما يهاجمون ودافعوا عن أنفسهم فعلاً[1]

إن الحقيقة الغائبة أن الدول الرئيسية فى ساحل غرب إفريقيا وما جاورها فى الأراضى الإفريقية الداخلية قد نشأت بشكل قوى فى وقت نشأة مثيلتها فى أوروپا، كان لها تنافس داخلى وثقة اجتماعية بالنفس ورؤية فنية وقيمية وأخلاقية، وبعضها عرف أوروبا وبعضها لم يعرفها وذلك قبل أن تقوم تجارة بحرية على طول الساحل[2]

أما دول الداخل فقد كانت أكثر قوة ولكنها كانت تعيش فى صراعات وتنافسات، كانت شعوبًا منظمة فى حكومات مركزية يقف كل منها منافسًا للآخر، ولكن قوة إغراء التجارة الأوروبية والرغبة فى الدفاع عن النفس واستيراد البنادق والذخيرة زاد من حدة الصراعات القومية والقبلية الإفريقية بما جعلها تنفجر فى حروب وعمليات غزو أضعفت من قواهم وجعلتهم لقمه سائغة للمستعمرين تقاسمتها القوى الأوروبية.

والسؤال لماذا حصل هذا التقاسم فى تلك الفترة بالذات ما بين ١٨٨٠ـ١٩١٤ وهل كان

---

(١) تجاره العبيد فى افريقيا.عايدة العزب موسى/ مكتبة الشروق الدولية ص٧٦.

(٢) The African Slave Trate:Basil Davidson-James Gury Oxford 2004.P210

بالإمكان وقف هذا التقاسم؟ من الصعب تحديد بداية التقاسم أو اعتبار أن حدثًا معينًا هو سبب هذا التقاسم، كما أن التقاسم بدأ كمسألة أوراق، مسألة معاهدات حصلت من خلال الدول الأوروبية على دوائر نفوذ وممتلكات، ولكن الامر لم يستمر على هذا الحال لأن قوى استعمارية كثيرة طمعت فيما بعد فى احتلال الأراضى الإفريقية فعلًا بحيث أصبح التقاسم على الورق تقاسمًا على الأرض، والتقاسم على الورق ميز سنوات ١٨٨٠ بينما كان التقاسم على الارض فى فترة لاحقة. وكما يذكر «هنرى ويسلنغ» فى كتابه«تقسيم إفريقيا» [١] فى المرحلةالاولى من التقاسم كانت البلدان الاوروبية تعتمد فى هذا التقاسم على خرائط جغرافية، وكانت هذه الخرائط الجغرافية من نوع خاص إذ لم ترسم حدودًا طبيعية أو سياسية بل عبرت عما كان الأوروبيون يتفقون عليه فى الكواليس المظلمة، كانت الأراضى تحدد على الخريطة ثم يبدأ التفكير فى غزوها.

لم يضع تقاسم إفريقيا نهاية لجولات العنف، بل زاد العنف والقمع، وإذا قيل إن تقاسم إفريقيا لم ينتج إلا عددًا محدودًا نسبيًا من الحروب ولم يواجه مقاومه جماعية قوية شاملة فذلك لأن القوى الاستعمارية كانت متوافقة على هذا التقسيم. وكانت دوافعهم متفقة ومتنوعة اقتصاديًا(للحصول على مواد أولية وعلى وسائل تصريف الصناعة الأوروبية) ومالية وسياسية ومصالح استراتيجية. والسؤال الثانى لماذا ظهرت شراهة التقاسم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر؟ لعل السبب أنه فى بدايات القرن كانت أوروبا تعيش أوضاعًا سياسية مضطربة، لم تكن ألمانيا وإيطاليا وحدتا بعد، وفرنسا حجمتها إنجلترا فى منافستها البحرية الاستعمارية، والقوى الاستعمارية القديمة البرتغال وإسبانيا وهولندا كانت قد ضعفت وانسحبت أمام القوى الاستعمارية القوية. ولكن بعد سنوات ١٨٧٠ انتشرت الثورة الصناعية فى العالم وأصبح لإنجلترا منافسون جدد، فبعد هزيمة فرنسا أمام المانيا ١٨٧٠ سعت فرنسا لأن تعوض خسارتها بتوسيع نفوذها فى القارة الإفريقية، كما حاولت ألمانيا وإيطاليا الحديثتان على الجبهة الاستعمارية أن تجدا لهما وجودًا فى القارة، وكذلك بلجيكا التى تفانت للاستئثار بالكونغو.لقد أدى ظهور الدولة القومية فى أوروبا إلى منافسة حادة بين القوى الكبرى وإلى مناورات لا تتوقف.

٢ـ دوافع الغزو

تعد الفترة ١٨٨٠ـ١٩٠٠ مرحلة الغزو والاحتلال كما ذكرنا من قبل، فخلال هذه الفترة

(١) سلسلة دراسات افريقية «تقسيم إفريقيا» ١٨٨٠ـ١٩١٤ـ أحداث مؤتمر برلين وتوابعه السياسية/ هنرى ويسلنغ - ترجمة ريما إسماعيل / الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع الليبية ص٤٥٢

وضع تسعون بالمئة من القارة الإفريقية تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية، وتقاسمت القوى الأوروبية تقريبًا كامل الأراضى الإفريقية، كما كانت هذه الفترة أيضا مرحلة الدفاع عن السيادة الإفريقية من خلال استراتيجية المواجهة أو التحالف أو الخضوع المؤقت. كانت إفريقيا آخر قارة أخضعتها أوروبا، واتسم احتلالها بسرعة وسهولة لم يسبق لها مثيل. فما الذى أدى إلى هذه الظاهرة، وبعبارة أخرى لماذا قسمت إفريقيا سياسيًا واحتلت احتلالًا منظمًا فى خلال تلك الفترة القصيرة، ولماذا عجز الأفارقة عن صد هجمات أعدائهم؟.

بالنسبة للمستعمرين كانت فرنسا تسعى إلى تعويض خسارتها فى الحرب السبعينية (١٨٧٠) التى استولت ألمانيا فيها على جزء كبير من الأراضى الفرنسية وهما إقليما الألزاس واللورين(لم تستعدْهما فرنسا إلا بهزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٨)، وذلك بكسب أراضى فيما وراء البحار. إن فرنسا المهزومة أرادت أن تبحث عما يضمد جراحها بالحصول على إمبراطورية استعمارية فى إفريقيا تعوضها عن فقد الألزاس واللورين.

وكانت إنجلترا تريد التغلب على عزلتها الأوروبية بتوسيع الإمبراطورية البريطانية،أما ألمانيا وإيطاليا التى نمت الروح القومية فيهما خلال حركات الوحدة والاستقلال(وحدة ألمانيا واستقلال إيطاليا عن إمبراطوية النمسا) وتمخضت عن رغبتهما فى التوسع وأن تكون لهما مستعمرات كإنجلترا وفرنسا، وإن تظهرا للعالم أن من حقهما أن تعززا بفتوحاتهما الإمبريالية فى الخارج ما اكتسباه داخل أوروبا من هيبة قائمة على القوة.

يؤكد ف.هـ هنسلى «أن حاجة أوروبا إلى السلم والاستقرار الداخلى هو السبب الأول فى تقسيم إفريقيا،فابتداء من ذلك العام الذى عقد فيه مؤتمر برلين كانت دول أوروبا قاب قوسين أو أدنى من الدخول فى حرب فيما بين بعضهم البعض جراء التنافس بين روسيا وبريطانيا فى البلقان وفى الإمبراطورية العثمانية. وقد استطاع الزعماء الأوروبيون درء هذه الأزمة فى مجال سياسة القوة وتراجعوا عنها، ومنذ ذلك الحين وحتى أزمة البوسنة عام ١٩٠٨ أبعدت سياسة القوة عن أوروبا فصارت تمارس فى إفريقيا وآسيا، وعندما أصبحت المصالح متضاربة فى إفريقيا تهدد بتقويض أركان السلام فى أوروبا، لم يكن أمام القوى الأوروبية من اختيار إلا تقطيع أوصال إفريقيا كى تحافظ على التوازن الدبلوماسى الأوروبى الذى كان قد استقر فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر [١].

(١) تاريخ إفريقيا العام - المرجع السابق - ص ٤٤.

ومن الناحية الاقتصادية لم يكن الاندفاع إلى القارة السوداء سببه تصريف الفائض من إنتاج المصانع الأوروبية بقدر ما كان سببه النقص فى إمداداتها من المواد الخام.

قبل توقيع وثيقة برلين كانت القوى الأوروبية قد حصلت على مناطق نفوذ فى إفريقيا بشتى الطرق مثل الاستيطان والاستكشافات وإنشاء المراكز التجارية ومستوطنات التبشير واحتلال المناطق الاستراتيجية وبإبرام المعاهدات مع الحكام الإفريقيين. أما بعد المؤتمر فقد أصبح النفوذ عن طريق المعاهدات أهم أسلوب من أساليب تنفيذ تقسيم القارة على الورق. وكانت تلك المعاهدات تتخذ شكلين:شكل معاهدات بين الإفريقيين والأوروبيين، وشكل اتفاقيّات ثنائية بين الدول الأوروبية ذاتها. وكانت المعاهدات الإفريقية الأوروبية من نوعين اساسيين أولهما معاهدات تجارة الرقيق والمعاهدات التجارية التى أدت إلى احتكاكات نتج عنها التدخل السياسى الأوروبى فى الشئون الإفريقية، وثانيهما المعاهدات السياسية التى تخلى الحكام الإفريقيون بمقتضاها ضمنًا عن سيادتهم فى مقابل الحماية.

كانت المعاهدات السياسية هى الشائعة، وكان يبرمها إما ممثلون للحكومات الأوروبية أو ممثلون لهيئات خاصة تنازلت عنها فيما بعد للحكومات التى كانوا يتبعونها، وكان يترتب على قبول حكومة بلد أوروبى لتلك المعاهدات ضم الأراضى التى تتناولها أو إعلانها محمية خاصة لها. وإذا كانت الحكومة تشك فى صحة المعاهدات فإنها كانت تستخدمها فى أغراض المساومة فى أثناء المفاوضات الثنائية الأوروبية.

أما الإفريقيون فكانوا يبرمون تلك المعاهدات لدوافع شتى متصورين أنها فى مصلحة شعوبهم،ففى بعض الحالات كانوا يقبلون على إبرام علاقات تعاهدية مع الأوروبيين أملا فى أن تعود عليهم بالهيبة عند جيرانهم، وأحيانا أخرى كانت دولة إفريقية ضعيفة تقبل عقد معاهدة مع إحدى الدول الأوروبية على أمل أن تساعدها على التنصل من ولائها لدولة إفريقية أخرى تدعى السيادة عليها، كما كان بعض الحكام الإفريقيين يقبلون على عقد المعاهدات على أمل استغلالها فى تدعيم سيطرتها على الدول التى تخضع لهم على مضض، وفى أحيان أخرى كانت بعض الدول الإفريقية تعتبر إبرام معاهدة مع إحدى الدول الاوروبية وسيلة للحفاظ على استقلالها من تهديدات دول أوروبية أخرى[١]

فى حين تعمدت الدول الأوروبية المتعاقدة بمعاهدات إلى تحويل حقوقها ـ بمقتضى هذه

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ص٤٥ـ٥١.

المعاهدة - إلى حقوق سيادة طالما لم تطعن فى المعاهدة أية دول أوروبية أخرى. وقد أنجز تقسيم إفريقيا على الورق قبل نهاية القرن التاسع عشر بمقتضى سلسة من المعاهدات والاتفاقات. وعلى العموم تمت هذه المعاهدات بطريق الغش والتدليس بعضها زور تزويرًا صريحًا وبعضها الآخر كان وهميًا، باختصار معظمها نفذ بطريقة مخالفة للقانون.

٣ـ بدء الغزو:مرحلة الاستكشافات

ترجع بداية الغزو الاستعمارى لإفريقيا إلى جهود المستكشفين الأوائل، وبدأ الاستكشاف المنظم لإفريقيا من الداخل مع رحلة مونجو بارك Mango Park إلى السودان الغربى ما بين سنوات ١٧٩٥ـ١٧٩٧. ومونجو بارك مثل الآخرين الذين اتبعوه، لم يكن لديهم أى طموحات تتعلق بالفتح أو الغزو، وقليل منهم من كان يهتم بالتجارة. كانت المغامرة والوصول إلى المعارف والباعث العلمى هو الهدف الاول. وعندما أنشئت الجمعية الإفريقية البريطانية ١٧٨٨ فإن سير جوزيف بانكس ورفاقه استهدفوا فى الأساس أن يعرفوا شكل وهيئة القارة الافريقية، ومن بعد ذلك جاء التنصير والتجارة.

كان الجهد الاستكشافى جهدًا شاقًا وكانت الصعوبات عديدة. ومرت سنوات ثلاثون فصلت بين ما كان يؤكده «بارك» من ان نهر النيجر يتجه إلى الشرق وليس إلى الغرب، وأكثر من ثلاثين سنة فصلت بين هذا الأمر وبين تحديد المستكشف «لاندر Lander» لآبار الزيت وتدفق النيجر غربًا إلى البحر. كما قام «رينيه كاليه Reny Caillie» برحلة كبيرة من جامبيا إلى مراكش عبر السودان الغربى والصحراء فى ١٨٢٧ـ١٨٢٨. ولكنه لم يحدث إلا فى ١٨٤٩ أن استطاع الرحالة «بنجر Binger» أن يعرف البلاد التى تتاخم طريق «كاليه» داخل إفريقيا.

تقدمت هذه الجهود بالتدريج، ففى ستينيات القرن التاسع عشر فإن عددا من البعثات رسمت خريطة تحدد سمات إفريقيا الغربية الداخلية[1] فى حين كانت بدايات الدراسة المنهجية لشعوب هذه المنطقة ظهرت عام ١٨٥٧ مع كتابات «هنرى بارث» Heinarich Barth. وبالنسبة لوسط وجنوب إفريقيا بدأت رحلات ديفيد ليفنجستون David Livigstone عام ١٨٤١ واستمرت بتواصل وإصرار نحو ربع قرن. وقد شغلت رحلات هذا المستكشف خيالات وطموحات كثيرين من المستكشفين الآخرين سواء كانوا من البعثات التبشيرية أو غيرها.وفى عام ١٨٥٧ مشى «بيرتون Buirton» ألف ميل من باجامويو على ساحل تانزانيا

(١) Africa In History.Basil Davidson.p282

إلى بحيرة تنجانيتا فى حين استمر زميله Speke فى اتجاه إلى الشمال إلى بحيرة فكتوريا. وبعد عدة سنوات وصل سبيك مع جرانت Grant إلى المياه العليا للنيل الأبيض، وفى نفس الوقت كان صمويل بيكر آتيًا إليها من الخرطوم ومتجهًا غربًا إلى أوغندا. وبعد الستينيات من القرن التاسع عشر صارت المسأله أساسًا تصحيح أخطاء وتكملة جزئيات على الخريطة.

فى ذلك الوقت كان المشروع التبشيرى المسيحى للقرن التاسع عشر ينمو نموه البطىء، وفى هذا الشأن فإن الصعوبات كانت كبيرة جدًّا ليس أقلها المكافحة المادية للملاريا والحميات الأخرى ورغم ذلك فإن الاستجابة للتطوع كانت قائمة رغم الاخطار. إن أكثر من ٥٢ مبشرًا عانى من الحميات فى الشاطئ الغربى فى عام ١٨٢٥ وحدها ولكن تدفق المتطوعين لم يفشل. وفى عام ١٨٠٤ فإن جمعية مبشرى الكنيسة البريطانية بدأت أعمالها فى سيراليون، وبعد ٢٣ سنة ظهرت خطوة هائلة إذ أسست مؤسسة «فورابيي Fourah Bay» لتعليم التلاميذ الواعدين ـ وقد كان أحد أوائل تلاميذها صمويل كروثر الذى صار بعد ذلك أسقفا على نيجيريا ـ ،كان دارسًا بارعًا للغات إفريقية الغربية، وترجم جزءًا من الإنجيل لليوروبا. وفى عام ١٨٤٦ أسست مقارات للبعثات فى يوروبا لاند، كما أسست مقار أخرى عام ١٨٦٥ فى «لوكوجا ـ Lokoja».

إن الكنيسة الكاثوليكية وعديدًا من المؤسسات البروتستانتية قاموا بأعمال مشابهة فى مناطق ساحلية عديدة فى إفريقيا واندفعوا بنشاطهم إلى الداخل. وفى عام ١٩٠٠ كانت هناك مناطق قليلة هى ما لم تصل إليه بعثات التبشير المسيحى وفشلت فى الوصول إليها والاستقرار بها، فالجهود الكاثوليكية المبكرة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أعيد إنتاجها على نطاق القارة كلها، وبعثت بذلك نخبة إفريقية ذات ثقافة مسيحية، وكان هذا ما لعب دورًا له أهميته حتى قبل ١٩٠٠ فى تشكيل اتجاهات الفكر المعادى للاستعمار.

٤ـ سياسة الالحاق

تبنى الأوروبيون فى القرن التاسع عشر نظرية تفوقهم العنصرى على شعوب العالم وأنهم ينتمون إلى عرق أبيض واحد ظهر أولًا فى القوقاز. وصنف عالم الأجناس الألمانى جوهان بلوين باخ الأجناس العرقية فى العالم بأنهم ينتمون إلى أربعة أعراق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود. ثم قام العالم الفرنسى جوزيف آرثر دى جوبينو بوضع هرمية عرقية على رأسها الجنس الابيض الأوروبى.

قوبلت هذه النظريات بتأييد واسع وحركت أناسًا للحديث عن أن من واجبهم تحضير السود، وتم الغزو الاستعماري باسم هذه النظرية، وبحجة انقاذ القارة من همجيتها العشوائية القبلية التي كانت لها الهيمنة واليد الطولى.ولكن هذه النظرية التي انتشرت على نحو واسع أجهضتها دراسة التاريخ الإفريقي الحديث الذي أظهر زيف هذه النظرية، فأغلب إفريقيا لم يكن في حالة اضطراب ولا فوضى قبل الغزوات الاستعمارية. كانت هناك مناطق واسعة في هذه القارة الشاسعة تسير أمورها بالطرق القديمة بشكل مستقر، وقليلًا ما كان يحدث الاضطراب الذي يؤثر على العادات والأعراف والتقاليد المستقرة. وكان كل جيل بعد جيل يتخذ من أصلاب أسلافه مسئولياتهم وينشيء وثاقًا بين من مات ومن يعيش ومن سيولد. إن ديفيد ليفنجستون وجد في أراضي الزامبيزي العليا في خلال الفترة ما بين الأربعينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر أن الأمن كان كاملًا بالنسبة للأرواح والممتلكات في كل بقاع المملكة، وثمة رحالة آخرون وصلوا إلى نفس النتيجة[١]

وهذه ليست وحدها الحقيقة فثمة حقيقة أخرى هي أن أزمة القارة التي وصلت بإفريقيا إلى الحضيض كانت تجارة الرقيق التي امتدت نتائجها السيئة على الساحل الغربي الإفريقي، ومن المناطق الشرقية إلى البحيرات الكبرى بالوسط، هذه التجارة استمرت في الانتشار حتى الثمانينيات من القرن التاسع عشر وخاصة عند الساحل الغربي وشواطئ شمال إفريقية. ولو لم تكن جرت هذه التجارة كان يمكن أن تقوم في إفريقيا أنظمة جديدة مختلفة للتجارة والإنتاج وتسير بفاعلية كبيرة تطيح بالعادات القديمة وتنشيء أوضاعا جديدة دون استخدام العنف. إن الخلل الذي أحدثته تجارة الرق نتج عنه تغييرات اجتماعية واقتصادية تخللت الهياكل التقليدية الإفريقية..

لقد دمرت تجارة العبيد النظم الإفريقية التقليدية للعصر الحديدي الناجح طويل المدى الذي كانت تعيشه إفريقيا، ووصلت فيه القارة إلى حد النضوج من فنون ونحت ونسيج، وكان المقدر له أن يتلوه توسع في التطور الاقتصادي ولكن جاءت هذه التجارة التي فقدت فيها إفريقيا الملايين من أبنائها. بالإضافة إلى حروب البنادق والأسلحة التي أدخلت على القارة، كان لذلك أثره الضار على المجتمعات الإفريقية واقتصادياتها.

إن الحقيقة الكبرى التي تكشفت الآن أن إفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية كانوا جميعًا يمشون خطوة خطوة نحو التطور، وكانت الفجوة في القوى الحربية والقدرات العسكرية تكاد

---

(١) المرجع السابق African In History ص٢٧٦

تكون متقاربة فى العصور الوسطى، ولكن بعد ذلك بثلاث قرون تلت عرفت أوروبا خبرات متعددة الجوانب لم يكن لإفريقيا أى مشاركةفيها.

وفيما بعد ثلاثينيات القرن التاسع عشر أخذ التدخل الأوروبى يزداد عمقًا واتساعًا رغم أن الحكومات الأوروبية لم تكن ترحب به وحاولت أحيانًا أن تعارضه ولكن التدخل استمر. فى عام ١٨٤٠ سيطرت فرنسا على الشاطئ الغربى فيما يُسمى بالسنغال وخضع لإدارة فرنسية، وفى عام ١٨٤٩ عُين قناصل بريطانيون على شواطئ لاجوس(نيجيريا)، وهذه السلطات الجديدة دخلت سريعًا فى أعمال ضد السلطات الإفريقية القائمة. ومع القناصل جاءت الزوارق الحربية والقوات المسلحة. وفى عام ١٨٦٠ احتلت فرنسا ميناء داكار على شاطئ السنغال وبدأت فى دفع قواتها داخل الأراضى، وبعد عام واحد حاصر الإنجليز لاجوس واحتلوها، وهكذا صار غرب إفريقيا سياسة وهدفًا استعماريًا لأوروبا الغربية.

لم تكن هذه السياسة مرحبًا بها فى البداية بما تتكبده من نفقات للحكومات الغربية، ورغم ذلك استطاعت هذه السياسة أن تكتسح كل الاعتراضات واستمرت سياسة الإلحاق لمناطق صغيرة بعناد نتج عنها الحاجة إلى المال والدخل، وأسهل وسائل الدخل هو فرض الضريبة على التجارة،ولكن الضرائب تحتاج إلى حدود فنما بسرعة الوعى بأنه كلما اتسعت الحدود كلما زاد الدخل بمعنى أن بلوغ الشواطئ أدى إلى السيطرة على الشواطئ وعمّق الاتصال بأوروبا، وأدت السيطرة على الشواطئ خطوة خطوة إلى غزو أراضى الساحل وفرض الحماية للسيطرة على أراضى الداخل، ولكنها حماية تستدعى نفقات للقوات والموظفين المقيمين فى هذه المناطق، ففرض الأوروبيون ضرائب على التجارة يتحملها الإفريقيون وحدهم ليمولوا نفقات قوات الاحتلال فى هذه المناطق[١] هذه واحدة.

الأمر الثانى هو الضغط لإنهاء تجارة الرق بوسائل تتعلق بالغزوات العقابية للجيران والمناطق التى لم تلحق بعد، وهذه الغزوات أدت إلى امتداد نفوذ التجار والحكام فى ذات الوقت. وتحت هذه الضغوط المتنوعة كتب موظف استعمارى كبير عام ١٨٦٣ يقول « إننا دون أن نشعر انزلقنا فى سياسة جديدة لمحاولة وقف تجارة العبيد عن طريق عمل جنود وليس عمل تجارة»، إن وقف تجارة الرق صارت وسيلة لأهداف مختلفة وليس فقط لمراقبة أو أسر سفن العبيد التى يقوم بها تجار الرقيق من الأوروبيين والبرازيليين وتجار الولايات المتحدة فى أعالى

(١) المرجع السابق African In History ص٢٧٨

البحار، وإنما لقيام بريطانيا بأعمال عسكرية على الأرض...وفيما بعد عندما لم تعد تجارة الرقيق أمرًا مطروحًا بقيت عملية الإلحاق مستمرة وصار الإلحاق يتم بعذر أو بآخر.

إن الوزراء والموظفين فى لندن وباريس بدافع الخشية من النفقات لم يكونوا يميلون إلى هذه العملية وكانوا يعارضونها، ولكن ترددهم لم يؤد إلى نتائج هامة وصارت آلة التوسع الاستعمارى تعمل بقوتها ولم تكن تتوقف. وفى عام ١٨٦٥ فإن لجنة مختارة من مجلس العموم البريطانى أوصت بالانسحاب البريطانى من كل مناطق إفريقيا الغربية فيما عدا سيراليون، ولكن بعد ذلك بتسع سنوات فإن ساحل الذهب (غانا) صار مستعمرة بريطانية جديدة[١]

ولعل أهم عامل ساهم فى إنجاح سياسة الإلحاق والاستلاب الإفريقى هى الشركات التجارية عابرة القارات[٢] التى تلخص قصة الاستعمار الغربى كله وبها بسط سيطرته على العالم فى القرون الماضية،"هذه الشركات اعملت فيه أسوأ اشكال النهب الاستعمارى والعنف العنصرى الهمجى الممنهج بهدف استنزاف خيرات إفريقيا واسترقاق شعوبها وتدمير مقوماتها الإنسانية. كانت الشركات التجارية الضخمة تقوم بالاستحواذ على ثروات شعب بأكمله لمصلحة شركة وحيدة تصب فى النهاية لمصلحة الدولة الاستعمارية، وباسم التجارة الحرة - التى هى فى حقيقتها تجارة الإجبار أو الجشع التجارى - أتت بهدف التجارة ولكنها بقيت من أجل الحكم، فالاستراتيجية البريطانية اعتمدت على إطلاق يد القطاع الخاص بالانتفاع بثروات الشعوب ووقفت بقوة خلف هذه الشركات ومنحتها امتيازات شبه سيادية من بينها حق سك العملة الخاصة فى فروعها الخارجية والاضطلاع بالسلطة القضائية فى المستعمرات وحق تكوين الجيوش المسلحة بل والحق فى شن الحروب. وبهذا توسعت الامبراطورية البريطانية التجارية عبر المحيط الأطلنطى وحول رأس الرجاء الصالح إلى الخليج العربى وصولا إلى الهند، فالهند مثلًا هذه البلاد الجميلة كانت مزدهرة فى ظل أكثر الأنظمة الأهلية الاستبدادية، ففى عام ١٧٥٠ كانت شبة القارة الهندية تنتج حوالى ربع الإنتاج الصناعى فى العالم فى حين كانت بريطانيا تنتج فقط ٩ , ١٪ وأصبحت الهند على وشك الدمار عندما صار للإنجليز نصيب كبير فى إدارتها.

لقد كانت الشركات التجارية على استعداد لارتكاب جرائم مروعة لأنها كانت تعلم جيدًا

---

(١) African In History المرجع السابق ص٢٧٩

(٢) مقتطفات من كتاب الشركة التى غيرت العالم.تأليف نك روبينز.ترجمة كمال المصرى.مكتبة الشروق الدولية.

أنه لا يوجد من القوانين فى بريطانيا ولا فى العالم كله مايمنعها أو يحاسبها على ارتكاب الجرائم فى خارج بلادها. كان النظام التجارى يؤمن بمبدأ واحد وهو الجشع التجارى ويستخدم وسيلة واحدة للحكم هى القوة».

إن سياسة التوسع والإلحاق لم تكن مفهومة فى ذلك العصر حتى إن وزراء بريطانيين وفرنسيين فشلوا فى فهم مواقف حكوماتهم، وكذلك القادة الإفريقيين لم يدركوا الأمر. راقبوا السياسات الأوروبية والفعل الأوروبى ولم يحركوا ساكنًا، قبلوا التحالف أو الصداقة مع هذا البلد الأوروبى أو ذاك ونادرًا ما كانوا يرون أنهم بذلك يفتحون الأبواب لغزو أوروبى يجىء بعد ذلك. إن البعض فكر فيما إذا كان يمكن أن يحصل على فائدة من الوجود الأوروبى والبعض الآخر فقد بوصلته تمامًا..فأيدلوجيات عصر الحديد كانت تقود إلى عدد من الاحتمالات ليس فيها تفسير لما تفعله أوروبا فى القرن التاسع عشر. لقد كان الدرس طويلًا وقاسيًا.

٥- التوغل والاحتلال الفعلى

بلغت الصراعات والطموحات الإمبريالية ذروتها فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر فيما أسمته الصحافة حينذاك «التدافع إلى إفريقيا».ويرى بعض المؤرخين أن هناك علاقة بين الاتفاقات البريطانية الفرنسية التى أظهرتها السيطرة البريطانية على مصر وقناة السويس. ويرى آخرون تلك العلاقة فى الأعمال المثيرة لملك بلجيكا ليوبولد الثانى لكى يستحوذ لنفسه على مستعمرة فى وسط إفريقيا مترامية الأطراف تحت بصر وأنف معاصريه الأكثر قوة منه.

والحقيقة إن خلف كل الحركات الدبلوماسية والسياسية تكمن ضغوط حاسمة كبيرة. هذه الضغوط أطلقها النمو الهائل للرأسمالية فى أوروبا الغربية، وتجلت على المسرح الإفريقى بما وصف أنه حصاد الضغوط الصلبة للمغامرين التجار؛ وفق ذلك كله كان هناك رجال من أمثال سيسل رودس الذين أكدوا أن حكومات فى أوروبا يتعين عليها أن تشيد مشروعًا استعماريًا وراء البحار، ومن جهود هؤلاء بوعى أو بدون وعى كانت الايدلوجيات الخاصة بأوروبا الاستعمارية تتخذ شكلها وطابعها العملى.

عندما تحولت هذه الضغوط فى النهاية إلى غزو متعدد الجوانب وجدت قوى أوروبا الغربية نفسها تقع فى عدد من الظروف الحرجة، لقد وضعوا أقدامهم بثبات على مواقع هامة على الساحل وصارت لهم روابط مع عدد من الشعوب الساحلية فى إفريقيا وكانوا يحوزون(الأوروبيون) على قوى صناعية وعسكرية لا تقارن بالإنتاج المحدود لاقتصاد عصر الحديد والإنتاج السابق

للرأسمالية بوسائله الحرفية اليدوية[1].وكانوا أيضًا قادرين على السيطرة على منافساتهم فى إفريقيا فى إطار اتفاقات يمكن أن يجروها بين بعضهم البعض، وإذا كانوا يتعاركون بشدة بين بعضهم فقد كانوا حريصين على ألا يجرى هذا العراك فى إفريقيا. إن الحدود الواسعة للتوسع لكل القوى ذات المصلحة لم تحدث إلا متاعب قليلة بينهم فى المؤتمر الاستعمارى فى برلين ١٨٨٤ـ١٨٨٥، وكانت هذه القوى هى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا(من خلال ملكها) وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا.

كانت اتفاقات فعالة للقمة سبقت هذا المؤتمر فى إفريقيا الشمالية؛ إذ أسس الفرنسيون مصلحتهم الأولوية مبكرًا فى عام ١٨٣٠ فى غزوهم المفاجئ للجزائر. وحدث ذلك فى الطرف الشرقى للبحر المتوسط بواسطة بريطانيا حيث كانت مصر والبحر الأحمر ذات أهمية عليا كحلقة فى طريق المواصلات البريطانية إلى الهند. إن البريطانيين بعد ثورة عرابى باشا قرروا نهائيًا حقهم الغزو فى مواجهةفرنسا. وإذا كان السبب الظاهرى هو الرقابة المالية الانجليزية الفرنسية على مصر فإن الإنجليز ما إن احتلوا مصر بقوا فيها وأعلنوا رسميًا حمايتهم عليها ١٩١٤[2]. فى ذلك الوقت أسست فرنسا محمية لها فى تونس عام ١٨٨٠، وبعد عشرين سنة اتفقت فرنسا وإنجلترا على أن يطلق كل منهما يد الأخرى فيما احتلته مصر لبريطانيا ومراكش لفرنسا عام ١٩٠٤.

تكررت هذه العملية ذاتها فى مناطق إفريقيةأخرى كانت منطقة العبودية فى شرق إفريقيا مثلًا واضحًا على ذلك، إذ خضعت لنوع من السيطرة الاستعمارية أوقفت حالة الحروب القبلية، ولكن ثمنًا كبيرًا دفعه الأهالى فمع كل حرب داخلية توقفت حلت محلها حرب أكبر بالغزو الذى كان مليئًا بالمذابح والدمار. فالملك ليوبولد ووكلاؤه الذين ادعوا أنهم وضعوا نهاية لتصدير العرب السواحيلى للعبيد أنجزوا ذلك مقابل الموت والبؤس لفئات كبيرة من الشعب الذين صاروا حكامًا عليه[3]

ومثل البريطانيين فى الأراضى وراء لاجوس وساحل الذهب واجه الفرنسيون شعوبًا أشداء فخورين باستقلالهم ومستعدين للقتال من أجله ولكن مقاومتهم فشلت فى النهاية

(١) المرجع السابق. African In History ص٢٨٤
(٢) مع اعتراف بريطانيا باستقلال مصر السياسى واكتسابها الشخصية الدولية الكاملة منذ فبراير ١٩٢٢ إلا أن الإنجليز لم يجلوا عنها إلا فى عام ١٩٥٦ بموجب اتفاقية أبرمت فى أكتوبر ١٩٥٤.
(٣) المرجع السابق African In History ص٢٨٥.

لأنهم كانوا يحوزون أدوات قتال أضعف وتنظيماً عسكريًا أقل كفاءة، ولأنهم لم يستطيعوا أبدًا أن ينجزوا فيما بينهم وحدة تضمهم معًا، واحتاج الأمر من الفرنسيين إلى عشرين سنة من الحروب لكى يبرروا دعواهم على أرض مالى وصنغى.

ويمكن ملاحظة أنه رغم تماثل الدوافع لدى الإمبريالية الفرنسية أساسًا مع الدوافع البريطانية فقد كان الاستعمار الفرنسى يتميز بتأييد رأسمالى ضعيف. إن الفرنسيين كان لديهم كوادر قوية من المغامرين التجار، ولكنهم لم يكونوا بالصلابة الكبيرة التى تتوافر لدى أمثال رودس الإنجليزى، وتركت أشياء كثيرة للمنظمين المحليين المستوطنين الذين قاموا بدور نشيط ولكنهم كانوا محدودين فى إطار وسائلهم المتواضعة.

ومن الوجهة الاقتصادية فإن الغزاة الفرنسيين فى إفريقيا بدوا أكثر ترددًا من البريطانيين فى الاستثمار فى المشروعات الإفريقية التى ظهر احتمال ربحيتها إلا أنهم لم يكونوا راغبين فى المغامرة برأسمالهم وكانوا يفضلون المجالات الأكثر ضمانا للربح فى أوروبا وآسيا، فقد كانوا بشكل عام أقل ثقة فى أنهم سيحصلون على الأمان لمشروعاتهم فى إفريقيا. وتعويضًا عن هذا الوضع بدوا أكثر قوة من ناحية «العنصرية الاستعمارية» ودعم هذا طموحات الجيش والبرجوازية التى صورت الانتصار فيما وراء البحار على أنه نوع من التفوق الوطنى أكثر من قرنائهم الإنجليز.

إن الغزاة الصغار لم يجدوا مهمتهم أسهل رغم أن طموحاتهم كانت أقل. فالبرتغاليون محميين ببريطانيا مُكنوا من الوجود فى مجالات نفوذ داخل القارة فى أنجولا وموزمبيق وأوجدوا فيها احتلالاً فعليًا. وأقوى من هؤلاء ـ ولكن بعيدًا عن الأنظار تمامًا ـ كان الألمان يحصلون على مواقع أقدام فى جنوب غرب إفريقيا وفى الكاميرون وتوجو وتنجانيقا فى الشرق، وقد استخدموا أشد وسائل القوة والعنف مقارنًا بغيرهم من الغزاة. وإن الألمان مثل منافسيهم تحركوا داخل إفريقيا من مواقع أقدامهم على الساحل بعمليات عدوانية، وبالطعنات المفاجئة توسعت أعمالهم الحربية واحتلالهم الفعال للأراضى. لم يكن الألمان وحدهم من يتبعون هذه الأوضاع ولكنهم فاقوا غيرهم فى هذه الأساليب.

ورغم استمرار العنف الاستعمارى ضد حركات المقاومة للشعوب الإفريقية فإن الغزو الاستعمارى جرى أحيانا بوسائل سلمية، ومن هذه الوسائل الأكثر فاعلية عملية التغلغل والتقدم المستمر حتى بلوغ مرحلة الاحتلال الفعلى، وهذا الأمر كان يجرى بواسطة عمليات لم يكن أى من الرؤساء الإفريقيين يدركون النوايا وراءها أو نادرًا ما كانوا يدركون ذلك..بهذه الأساليب وبغيرها اقتسمت إفريقيا بالتدريج[1].

(١) المرجع السابق African In History ص٢٨٦.

ثم قام المستعمرون بعد ذلك بتحرير عدد كبير من الاتفاقيات بين بعضهم البعض وخاصة من خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر، وكانت هذه الاتفاقيات بين المستعمرين مما يصوغ الاعتراف بالحدود التى بقيت لوقت طويل ليست أكثر من خطوط على خريطة إفريقيا.

إن القوى الأوروبية بعد أن استقرت صراعاتها الذاتية شرعت فى التوغل التفصيلى والإخضاع الفعلى للأراضى التى تأكد لكل منها احتلاله الفعلى. وإذا كانت الاعوام من ١٨٠٠ـ١٩٠٠ هى بشكل عام أعوام الغزو وإقامة الوجود الاستعمارى فإن الأعوام من ١٩٠٠ إلى ١٩٠٤ يمكن تعريفها بأنها مرحلة التهدئة التى تم فيها استقرار الحكم الاستعمارى.

*****

الفصل الثانى

الكارثة مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥

- إرهاصات المؤتمر.
- وقائع المؤتمر.
- نص قرارات المؤتمر.
- اسلاب المؤتمر.
- مضمون المؤتمر.

١- مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥

إرهاصات المؤتمر

لا يوجد حدث فى تاريخ إفريقيا الحديث كانت له من نتائج على القارة مثلما كان لمؤتمر برلين ١٨٨٤_١٨٨٥، وكما قال الزعيم الغانى العظيم كوامى نكروما«إن أول تقسيم لإفريقيا وتفتيتها تم حسمه فى مؤتمر برلين». ويعتبر المؤتمر عملًا دوليًا لتنظيم السلب والنهب فى القارة الإفريقية وأضفى الشرعية الدولية لالتهام القارة، وكان معنى نصوصه أن التملك بوضع اليد جائز فى الأراضى غير التابعة لدولة أخرى من الدول الموقعة على الإتفاقية سواء كانت مسكونة بالقبائل أوالأمم(١).

انعقد المؤتمر على مدى ثلاثة شهور فى برلين بألمانيا وحضرته ١٣ دولة أوروبية فضلًا عن الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يدع أى إفريقى إلى هذا المؤتمر ولا أخطر بقراراته التى أرست قواعد اقتسام إفريقيا وغيرت الخريطة البشرية والسياسية الجغرافية لإفريقيا بشكل يصعب تصديقه. بدأ تقاسم إفريقيا كمسألة أوراق، مسألة معاهدات حصلت من خلالها الدول الأوروبية على دوائر نفوذ وممتلكات،ثم طمعت الدول الاستعمارية فى احتلال الأراضى الإفريقية فتحول هذا التقاسم على الورق إلى التقاسم على الأرض، كان التقاسم على خرائط جغرافية لم ترسم حدودًا طبيعية أو سياسية بل عبرت عما كان الدبلوماسيون الأوروبيون يتفقون عليه فى الكواليس المظلمة، عكس ما كان يحدث فى أوروبا مثلًا إذ كانت تتم الغزوات ثم تنتقل إلى الخرائط بينما فى إفريقيا كانت تحدد الأراضى على الخريطة ثم يبدأ التفكير فى طريقة غزوها(٢). وقد استطاع تقاسم إفريقيا أن يكمل حتى النهاية لأن القوى الاستعمارية كانت متفقة على ذلك.

---

(١) تاريخ إفريقيا الحديث/ د.إلهام محمد على ص١٦.

(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص٤٥٠.

إن النظرة العامة لخريطة إفريقيا قبل انعقاد المؤتمر تُظهر إن حوالى ١٠٪ من مساحة إفريقيا كانت تحت السيطرة الاستعمارية، وفى أقل من عشرين سنة بعده استولى الأوروبيون على باقى القارة، وهكذا غير المؤتمر صورة إفريقيا بعد أن نظم عمليات السيطرة عليها.

عندما افتتح المؤتمر فى منتصف نوفمبر ١٨٨٤ كان ٩٠٪ من إفريقيا لا يزال تحت السيطرة المحلية التقليدية، وباستثناء سيطرة فرنسا على الجزائر وبريطانيا على مستعمرتى الكاب والناتال(كلاهما صار جزءًا من جنوب إفريقيا الحديثة) والبرتغال على أنجولا، كان الاستعمار يتركز أساسًا حول السواحل الإفريقية وكان الداخل لا يزال شديد الغموض بالنسبة للأوروبيين مما قادهم إلى المقولة الخاطئة بأن إفريقيا هى القارة المظلمة. لم يكن الإظلام على أية حال فى ذات إفريقيا وإنما كان فى رءوس الأوروبيين المتطلعين الذين لم يكن لهم أى فكرة على ما كان عليه الداخل الإفريقى وما يحدث فيه.

وعلى مدى الشهور الثلاثة التى استغرقها مؤتمر برلين مزقت القوى الأوروبية أراضى إفريقيا كلها غير عابئة بالكيانات الثقافية واللغوية والقبلية والتاريخية التى عليها الأهالى، وتوزعت القارة على خمسين دولة منفصلة بعضها عن بعض، كلها أشتات من الجغرافيا والثقافات والأجناس والعناصر الموحدة الأخرى.

إن بعض المؤرخين المحدثين مثل المؤرخ الامريكى آدم هوتشيلد يصر على أن مؤتمر برلين لم يقسم إفريقيا وذلك على عكس الاقتناع الشعبى بذلك، يقول فى كتابه«شبح الملك ليوبولد» الذى نشر عام ١٩٩٠ :«إن النهب كان واسعًا جدًا بحيث أنه احتاج إلى معاهدات أخرى كثيرة لتوزعه». ومع صحة هذا القول من الناحية الفنية فإن مؤتمر برلين يصلح أن يكون علامة لكل ذلك ولبعثرة إفريقيا، فإن ١٤ دولة مشاركة فى المؤتمر تركت برلين مع ادعاءات غير كافية وحلت بعد ذلك معاهدات أخرى ومساومات أخرى فى السنوات التالية.

ويقول الكاتب الصحفى النيجيرى«روتيمى سونكور» ،«إن تقسيم إفريقيا يتعين ألا ينظر إليه كحدث منعزل إنه إستمرار لسياسات سابقة للدول المستغلة، وقد أتى بشكل طبيعى نتيجة ٤٠٠ سنة من العبودية عبر الأطلنطى. إن الثروة التى أوجدت القاعدة للثورة الصناعية فى أوروبا كانت صانعته العبودية عبر الأطلنطى، كانت الصناعات تحتاج إلى المواد الخام والمواد موجودة فى إفريقيا، ولمنع الصراعات التى كانت تنشب حول الثروات الإفريقية انعقد مؤتمر برلين ليمتص إفريقيا ومصادرها».

وفى الحقيقة فإنه فى خلال ٤٠٠ سنة من العبودية عبر الأطلنطى فإن الدول الأوروبية

خاضت معارك مميتة بين بعضها البعض للسيطرة على الثغور الساحلية والقلاع والغابات والأراضى التى كان يقتنص منها الأفارقة العبيد ويشحنون إلى الأمريكات، كانت المدافع الكبيرة توجه إلى البحر لتضرب أى سفن أوروبية تقترب يعتبرها المسيطرون على هذه القلاع سفنًا أوروبية أخرى معادية لهم. وإن تفادى هذه الأمور هو ما جعلهم فى مؤتمر برلين ينشدون منع المعارك بينهم باقتسام إفريقيا.

* * *

تاريخ مؤتمر برلين(١) لا يمكن ذكره إلا مع الاشارة إلى أربعة عناصر وشخصيات أساسية: الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا، والمستكشف البريطانى هنرى مورتون وغيره من المستكشفين، ونهر الكونغو، وأراضى الكونغو التى صارت بعد ذلك بلدى الكونغو، كونغو برازافيل وكونغو ليوبولدفيل(الكونغو الديمقراطية حاليًا D R C).

كانت هناك عناصر وشخصيات أخرى مثل المستشار الألمانى بسمارك الذى استضاف المؤتمر، ومثل حكومتى البرتغال وفرنسا اللتين كانتا تتزاحمان وتتنافسان على حوض الكونغو، وادعاءات ملك بلجيكا ليوبولد الثانى، كل ذلك هو ما أدى إلى الدعوة لعقد المؤتمر ويكون موضوعه الأساسى هو أراضى حوض الكونغو ويكون اسمه الرسمى لدى الألمان «كونغو كونفرانس ـKongo Conferance» وليس الاسم المعروف به الآن«مؤتمر برلين».

انعقد مؤتمر برلين وقت كان الأوروبيون يعتبرون الإفريقيين دون مستوى الإنسانية ودون مستوى البشر ويعاملونهم كالماشية وكقوة إنتاج آلية، وكانت تجارة الرقيق قد استنفدت الطاقات الجسمانية والمعنوية للأفارقة وحطمت أساسهم الاقتصادى، كانت القارة فى أضعف أوضاعها فأقوى أبنائها وبناتها شحنوا بالمراكب إلى أراضى أجنبية على مدى ٤٠٠ سنة متصلة يقدمون العمل العبودى الذى طور أوروبا وأمريكا وبلاد أخرى.

وساعدهم الدور الذى لعبه الملك ليوبولد الثانى وصنيعته المستكشف ستانلى H.M.Stanly كان الملك ليوبولد يشعر بأن بلده الصغير بلجيكا ليس له مستعمرات مثل مالدى جيرانه الأقوياء وهم بريطانيا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا وهولندا وغيرهم. وقد أنفق الملك ليوبولد وقتًا وجهدًا للبحث عن المستعمرات ولكنه كان سيىء الحظ وحيثما توجه كان

---

(١) New African Magazine 20 _ P14 _ Licence To Colonize.February 2010

إما أن يفشل أو يواجه بقوة استعمارية أخرى، وكما جاء فى كتاب «شبح الملك ليوبولد»: «كانت الإمبراطورية الروسية قد امتدت شرقًا حتى المحيط الهادى وفرنسا سيطرت على مناطق أخرى وهولندا على جزر الهند الشرقية، والباقى من آسيا الجنوبية إلى سنغافورة كانت تمت الهيمنة البريطانية عليه. ولم يكن بقى إلا إفريقيا.

المستكشفون واستكشاف نهر الكونغو:

هناك ثلاثة مستكشفين كان لهم الفضل فى اكتشاف الغرب لنهر الكونغو وبالتالى احتلال الملك ليوبولد للكونغو، هم ليفنجستون وستانلى وبييردى برازا بالإضافة إلى كاميرون.

ديفيد لينفجستون ١٨١٣-١٨٧٣:

هو طبيب ومبشر ومستكشف، قام لينفجستون بعدة رحلات كبيرة لاجتياز إفريقيا بدءًا من لواندا على الساحل الغربى وصولًا إلى كيمليان على الساحل الشرقى، وفى خلال رحلاته الاستكشافية التى قام بها عام ١٨٧١ تتبع مجرى مياه نهر لوالابا الطويل والهام الذى يشكل المجرى العلوى للكونغو، ولكن لينفجستون اعتقد أنه امتداد للنيل، وهذا التفكير الخاطئ جعل من إفريقيا الوسطى موضعًا لشغل المستكشفين.

لوفيت كاميرون:

اجتاز ليفنجستون إفريقيا من غربها إلى شرقها،ولكن أول من اجتازها من الشرق إلى الغرب هو لوفيت كاميرون، واستغرقت رحلته سنتين ونصف انطلق من باجومويو فى إفريقيا الشرقية ووصل فى نهاية رحلته عام ١٨٧٥ إلى لواندا على الساحل الغربى عند مصب الكونغو،ولكن لم ينجح فى اتباع مجرى نهر لوالابا حتى نهايته.

هنرى مورتن ستانلى ١٨٤١- ١٩٠٤:

وهو المستكشف الأشهر والأهم فى تاريخ اكتشافات القارة الإفريقية والكونغو بالذات، وهو الرجل الأبيض الوحيد الذى ظل على قيد الحياة عند نهاية الاستكشافات التى قادها على نحو ٩٩٩ يومًا اجتاز فيها إفريقيا. ولد ابنًا غير شرعى فى مدينه ويلز ١٨٤١ وسجلته أمه فى كنيسة سانت هيلارى باسم جون رونالد باستار، وكان يعتقد أن أباه من أهل البلد ومات بسبب الإدمان، كان هنرى مورتن ستانلى أو جون رونالد باستار الابن الأكبر لأم أنجبت خمسة أولاد، وبعد طفولة قاسية ذهب جون إلى الولايات المتحدة عام ١٨٥٩ حيث غير اسمه

عدة مرات فسمى نفسه أحيانًا موريليك وأحيانًا أخرى مورلانك وفى النهاية استقر على اسم هنرى بورتن ستانلى وقد صار جنديًا وبحارًا وصحفيًا ومستكشفًا شهيرًا على شاطئ المحيط الأطلنطى. حصل على لقب فارس فى بريطانيا ثم انتخب عضوًا فى البرلمان.

جاءت أهم محطة فى حياته عام ١٨٦٩ عندما أرسله ناشر صحيفة نيويورك هيرالد إلى إفريقيا ليبحث عن المستكشف ديفيد ليفنجستون الذى انقطعت أخباره لخمس سنوات منذ أن ترك الشواطئ البريطانية ١٨٦٦ فى حملة كبيرة بحثًا عن تجار الرقيق والمسيحيين المحتملين،ومحاولة إزالة ملابسات الغموض حول الأسئلة التى كانت تثار عن شكل بحيرة فكتوريا وهل ينبع منها النيل؟ وهل نهر لولابا الذى اكتشفه ليفنجستون بداية للنيل أو الكونغو أو نيجيريا وأى شىء آخر يمكن اكتشافه، وقد حول الناشر مهمة ستانلى وصرفه عن البحث عن ليفنجستون عندما رأى ما يمكن أن يمده بقصص وأخبار حصرية.

فى عام ١٨٧١ ترك ستانلى الشاطئ الشرقى لإفريقيا وتوغل فى داخل إفريقيا ثمانية أشهر قبل أن يجد ليفنجستون، أسالت التقارير التى كان يرسلها ستانلى عن داخل إفريقيا لعاب القوى الاستعمارية واستغل هو اهتمام الملك ليوبولد الذى سرعان ماجنده لقضيته. يقول هوتشيلد فى كتابه «شبح الملك ليوبولد» إن المستكشفين لإفريقيا صاروا شخصيات عالمية يحتفل بهم وقد طبقت شهرتهم الآفاق واجتازت الحدود مثل نجوم السينما الآن».

ومن ثم فإنه فى عام ١٨٧٥ عندما كان المستكشف كاميرون على وشك أن يجتاز إفريقيا من الشرق إلى الغرب ويحتاج إلى المال قدم له ليوبولد مباشرة مساعدة تبلغ مائة ألف فرنك لم يكن كاميرون فى حاجة إليها لأنه كان فى نهاية رحلته فى المنطقة المعروفة الآن باسم كاميرون.

فى ١٨٧٤ قام ستانلى بحملة أخرى من الساحل الشرقى لإفريقيا فى قافلة ضخمة ليعبر الأراضى الاستوائية للقارة وليكتشف مايمكن كشفه؛الكونغو النيل البحيرات وغيرها. وبعد ثلاث سنوات فى اغسطس ١٨٧٧ وصل ستانلى بصحبة الأفارقة إلى بوما Boma (الآن هى جزء من الكونغو الديمقراطية) وهى على بعد ٥٠ ميل من الساحل الأطلنطى وكان هو الثانى بعد كاميرون فى اجتياز القارة الكبيرة من الشرق إلى الغرب، ولكن على خلاف كاميرون فإن ستانلى بلغ الثغر الخاص بنهر الكونغو العظيم.

فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة داخل إفريقيا كان ستانلى مجنونًا بالنهر،وقد تابع طريق النهر ذا الثلاثة آلاف ميل طولًا إلى ثغره فى ما نادى على الشاطئ الغربى، ومن ثم كان هو الأوروبى الذى فعل ذلك وحل الغموض الخاص بهذا الأمر من أين يأتى النهر.

ولكن استانلى لم يكن هو الأوروبى الأول الذى وصل إلى ثغر نهر الكونغو فقد سبقه الملاح البرتغالى ديوجوكاوDio go cao فى عام ١٤٨٢ حيث وصل إلى مصب النهر فى المحيط الأطلنطى، وقد تعجب من حجمه، وذكر كتاب «شبح الملك ليوبولد» إن جغرافى المحيط المحدثين اكتشفوا شواهد جديدة عن قوة النهر الكبير ومصبة فى المحيط، وفى مناطق معينة يبلغ عمقه أربعة آلاف قدم حفرها النهر فى قاع البحر،إنه يصب نحو ٤ , ١٪ مليون قدم مكعب من الماء فى كل ثانية إلى المحيط ولا يفوقة فى ذلك سوى نهر الأمازون».

أدهشت الأوروبيين إمكانيات النهر الضخمة فى النقل وفى مساعدة التجارة، وللنهر أسماء عديدة:«لولابا أو انزاوى أو انزير، وكذلك يسميه الأهالى الإفريقيون الذين يعيشون على شواطئه» «نزير» معناها النهر الذى يبتلع الأنهار الأخرى، (ونزير Nzeroصارت زائير). وكشأن كل الأمور فى إفريقيا فإن الأوروبيين غيروا اسم النهر فصار الكونغو.

إن مجرد رافد واحد للكونغو هو كاساى Kasai يحمل من المياه مايزيد على أكبر أنهار أوروبا وأطولها وهو الفولجا فى روسيا وكذلك رافده أوبانجى، وأغلب حوض النهر يوجد كأرض منبسطة تعلو نحو ألف قدم وتنحدر على بعد ٢٢٠ ميل من ساحل الأطلنطى، ومن ثم فإن النهر يسقط لمستوى البحر على مسافة ٢٢٠ ميل.

بيير دى برازا:

عندما جرت عجلات الثروة لصالح الملك ليوبولد ظهرت المعارضة له فى شكل فرنسى لتفسدها عليه، فالمستكشف الفرنسى الإيطالى بيير دى برازا الذى استخدمتة الحكومة الفرنسية ذهب إلى نهر أوجوى Ogowi فى السبعينيات من القرن التاسع عشر وهو مجاور لحوض الكونغو فيما يسمى الآن الجابون، ونجح فى أن يعقد سلسلة من الاتفاقات مع الملك ماكوكو ملك شعب تيكى Teke ـ كتبت هذه المعاهدات كالعادة بلغة لا يستطيع الملك الإفريقى أن يقرأها أو يفهمها ـ منحت مساحات واسعة من الأراضى لدى دى برازا، بوصفة ممثلًا لفرنسا. ولكن المدهش أن الحكومة الفرنسية لم تهتم بما فعل دى برازا ربما لأنه لم يكن فرنسى الأصل فقد كان إيطاليًا تجنس بالجنسية الفرنسية واسمه الأصلى بييترو باولو دى برازا، ولكنه عندما تجنس بالجنسية الفرنسية عرف باسم بيير باول دى برازا.

وبعد أن أُقصى النفوذ الفرنسى عن مصر لصالح بريطانيا ١٨٨٢، فإن الحكومة الفرنسية تحت الضغوط الداخلية تذكرت فجأة أن هناك أرضًا واسعة تحت تصرفها تسمى وسط إفريقيا

أتت إليها بفضل المعاهدات المخادعة التى أبرمها دى برازا مع الملك ماكوكو، وحدث أن جزءًا من هذه الأراضى ادعاها ستانلى للملك ليوبولد وجرى السباق حول أيهما يصير المالك لها.

وفى هذا السياق تذكر البرتغاليون فجأة أنهم أول أوروبيين يدخلون هذه البقاع ١٤٨٢. وهم عندما وصلوا إلى الكونغو أول مرة وجدوا مملكة إفريقية مزدهرة، ذكرها آدم هوتشيلد فى كتابه«شبح الملك ليوبولد»:«رغم ازدراء ثقافة الكونغو اعترف البرتغاليون بأن المملكة كانت متطورة ونامية، وكانت هى من يقود الشاطئ الغربى لإفريقيا الوسطى، تتكون من ما بين مليونين وثلاثة ملايين من الشعب وتغطى منطقة تبلغ نحو ٣٠ ألف ميل مربع، وأجزاء منها تتوزع الآن على دول متعددة بعد أن رسم الأوروبيون خطوط الحدود بطريقة تعسفية لإفريقيا ١٨٨٥».

ومع تعود المطالبات على ذات الأراضى فى حوض الكونغو سارع الملك ليوبولد بأن أرسل مبعوثًا له إلى واشنطن ليكسب الأمريكيين إلى جانبه. وفى إبريل ١٨٨٤ حصل ليوبولد على كسبه الدبلوماسى من أمريكا بأن صرح وزير خارجية أمريكا إن بلاده تعترف بدعوى ليوبولد على الكونغو، وكانت أمريكا أول دولة تعترف بذلك.وفى الجانب الآخر كان الفرنسيون يزعمون رسم الحدود على الخريطة لصالحهم فى حوض نهر الكونغو[١].

بسمارك المستشار الألمانى الحديدى:

لم يهنأ ليوبولد إذ ظهر فى الأفق مناوئ آخر هو المستشار بسمارك أوتوفون موحد ألمانيا الذى اهتم اهتمامًا شخصيًا بمسألة الكونغو،وبالتالى أدرج الكونغو فى عالم السياسة الكبرى بعد أن غدت ألمانيا قوة عظمى والبلد الأكثر نفوذا فى أوروبا، فكيف كانت تمتنع عن المشاركة فى المنافسة التى كانت تجرى على الساحة.إن ألمانيا عندما حققت وحدتها ١٨٧١ وأجبرت فرنسا على توقيع معاهدة فرانكفورت زاد حماس الشعب الألمانى وبدأ يتطلع إلى الاستعمار خارج بلاده والبحث عن مستعمرات توفر له المواد الخام التى تتطلبها الصناعات الحديثة، وكانت القارة الإفريقية هى المجال الخصب أمام طموحات الألمان.(وفى غضون عام واحد ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ اصبح لألمانيا أربع مستعمرات وهى تنجانيقا فى شرق القارة، والكاميرون ،وتوجو فى الغرب وناميبيا(جنوب غرب إفريقيا) فى جنوب القارة[٢]

(١) مجلة New African المرجع السابق ص ١٤ـ٢٠.

(٢) المسلمون والاستعمار الاوروبى عبدالله عبد الرازق إبراهيم ـ عالم المعرفة عدد ١٣٩ سلسلة كتب يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (الكويت) ص٩.

كان المستشار الألمانى صعب المراس، وقد وصف طلبات ليوبولد بأنها ادعاءات. لم تجر الأمور طيبة لصالح ليوبولد، وكما قال هوتشيلد« لقد تعلم ليوبولد أن محاولاته العديدة لشراء مستعمرة أمر صعب لأن لا أحد يبيع وأنه يتعين أن يغزوها، ولكن هذا الصنيع كان من شأنه أن يزعج الشعب البلجيكى ومعظم القوى الأوروبية، وإذا كان يريد أن يسيطر على أى شئ فى إفريقيا فعليه أن يقنع كل شخص بأن مصلحته هى لخدمة الآخرين».

ومن ثم ففى سبتمبر ١٨٧٦ دعا ليوبولد إلى مؤتمر فى بروكسل حضره ١٣ من البلجيكيين ورجال الأعمال والمعارضين للأنشطة العبودية والعسكريين الذين يؤيدون مسعاه فى الكونغو ويوافقون على إنشاء جمعية إفريقية دولية تدعم ذلك يكون رئيسها الأول هو ليوبولد. واستطاع ليوبولد أن يؤلف قلب بسمارك عن طريق البنك الذى كان يتعامل معه والذى قام بالمشروعات الضخمة فى أوروبا. وفى عام ١٨٨٤ كان ليوبولد قد كسب بسمارك تمامًا إلى جانبه.وكما جاء فى كتاب«شبح الملك ليوبولد»:«لقد ترك بسمارك بنفسه يقتنع بأنه من الخير للكونغو أن تذهب إلى الملك ولدولته الضعيفة لتكون مفتوحة للتجار الألمان أحسن من أن تذهب إلى فرنسا والبرتغال بقدراتها الطموحة أو إلى انجلترا القوية، ومع كسب بسمارك الاعتراف والضمانات لحرية التجارة فى الكونغو فقد وافق بسمارك على الاعتراف بالدولة الجديدة، ولم يكن يعرف النص الكامل لمعاهدات ليوبولد مع الملوك الإفريقيين.

ما ان استطاع ليوبولد أن يقنع بسمارك وأمريكا، فقد بقى على مشكلة مع الفرنسيين والبرتغاليين،ولحسن حظه لم تكن بريطانيا مهتمة بالموضوع المتعلق بحوض الكونغو رغم أن المستكشف الاسكتلندى كاميرون سبق أن اكتشف حوض الكونغو قبل ستانلى، وفى الحقيقة فإن ستانلى رغم أنه كان ينتحل صفة الأمريكى كان يود أن تكون بريطانيا هى من يستعمر الكونغو وليس ليوبولد، ولكن لندن التى كانت تعانى من ركود اقتصادى فى ذلك الوقت ولديها محميات ومستعمرات عديدة فى العالم كله لم تهتم بأن تستعمر منطقة أخرى صعبة المواصلات فى داخلها وطرقها مسدودة بصخور وجزر معوقة.وقد ذكر ستانلى«أنا لا أفهم الإنجليز أبدًا إما أنهم يشكون فىّ ويعتبرون إن لدىّ مصلحة خاصة أو أنهم لم يقتنعوا بكلامى». ولم يستطع ستانلى أيضا أن يثير اهتمام أمريكا باستعمار الكونغو. وفى الحقيقة فإن صحيفة نيويورك هيرالد التى كان يتعامل معها عرضت عليه البحث عن القطب الشمالى. وعلى أية حال فإن هذه الأوضاع مكنت الملك ليوبولد أن يلتقط أنفاسه ويتعامل مع التحدى البرتغالى والفرنسى. ولكن أخبارًا سيئة أتت فى فبراير ١٨٨٤ عندما وقعت البرتغال مع بريطانيا اتفاقية

تعوق سعى ليوبولد عبر الاطلنطى. وقد ذكر هوتشيلد«إن التعطش للأراضى الإفريقية صار قويًا فى أوروبا».ولحل الرغبات المتصارعة ولوضع قواعد اقتسام الفطيرة الإفريقية اقترحت البرتغال على المستشار بسمارك أن يستضيف مؤتمرًا دبلوماسيًا فى برلين لمناقشة هذه الأمور، وكان هذا المؤتمر اسمه كونغو كونفراس«Kongo Conferenze ».

قبل انعقاد مؤتمر برلين بخمسة أشهر أعلن بسمارك أنه لن يعترف بالمعاهدة الإنجليزية البرتغالية.وبعث ابنه إلى لندن ليُفهم الحكومة البريطانية أنه جاد، وفى الوقت نفسه أعلن إلحاق المنطقة الممتدة من أنجولا حتى مستعمرة الكاب بألمانيا ثم أرسل الدعوات لحضور مؤتمر برلين.

٢. وقائع المؤتمر

افتتح مؤتمر برلين فى ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ وحضرته ١٤ دولة هى «النمسا والمجر»، وبلجيكا والدانمارك وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا و هولندا والبرتغال وروسيا وإسبانيا والسويد النرويج(توحدتا من ١٨١٤ إلى ١٩٠٥) وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية. كانت الدول ممثلة بسفرائها ومبعوثيها وكان اللاعبون الأصليون فى هذا المؤتمر هم البرتغال وفرنسا وبريطانيا وألمانيا، وهم المسيطرون على أغلب مستعمرات إفريقيا فى ذلك الوقت.

يصف هوتشيلد فى كتابه المؤتمر بقوله «فى ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ فإن ممثلى القوى الأوروبية اجتمعوا على مائدة كبيرة تطل على حديقة مقر بسمارك وقد جلسوا جميعًا أمامهم خريطة ضخمة لإفريقيا وبدأوا عملهم..إن مؤتمر برلين كان التعبير النهائى عن أن عصر الحماس من أجل الديمقراطية له حدوده الواضحة، وإن المسألة لا تتحقق بالتصويت، وحتى جون ستيوارت ميل الفيلسوف الكبير للحرية الإنسانية كان من قبل قد كتب عن الحرية قائلًا:«إن الاستبداد هو الأسلوب الشرعى للحكومة التى تتعامل مع البرابرة مادام الإصلاح هو غايتها». لم يوجد إفريقى واحد على مائدة برلين. وكان الملك ليوبولد الذى لم يحضر المؤتمر فى وضع قوى، وكان على متابعة مستمرة لما يحدث.

قضية الكونغو:

قبل الحديث عن وقائع مؤتمر برلين ونتائجه التى غيرت تاريخ إفريقيا لا بد من الحديث عن قضية الكونغو التى كانت السبب الظاهرى لعقد المؤتمر.

تعرف الأوروبيون على الكونغو فى السبعينيات من القرن التاسع عشر على أثر الرحلات

التى قام بها برازافيل ١٨٧٥ ـ ١٨٧٨ وستانلى ١٨٧٤ ـ ١٨٧٧ وأطلق عليه اسم الهند الجديدة الصالحة للتجارة والاستعمار. ومن ثم بدأت المطامع الاستعمارية، كان الجزء الشرقى من الكونغو خاضعًا لسيطرة عرب ومستوطنين من إفريقيا الشرقية ممن يطلق عليهم السواحليين، وهم الذين عاشوا فى منطقة خاضعة لسيادة زنحبار، وقد استطاع أحد هؤلاء حميد المرجبى الملقب بتيبوتيب العربى[١] أن ينشئ مملكة هناك. ولد تيبوتيب فى زنجبار لأب عربى وأم سواحيلية، وذهب إلى الكونغو وأسس مملكة فى شرق الكونغو امتدت من ١٨٧٠ إلى ١٨٩٠.

كان اهتمام الأوروبيين منصبًا على الكونغو الغربى بعدما وصل البحار البرتغالى ديوجو كاو إلى مصب نهر الكونغو فى القرن الخامس عشر، وفى خلال القرون اللاحقة أقام البرتغاليون علاقات مع ملوك الكونغو وبشروهم بالمسيحية، وكانت مملكة الكونغو شاسعة تتضمن شمال أنجولا والكونغو حتى الجابون. وبسبب انتشار تجارة العبيد على الساحل الأطلسى تحول هذا القسم من الساحل الغربى لإفريقيا إلى مركز مهم لتجارة العبيد، وبقيت هذه التجارة طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر وكان نصف العبيد تقريبًا يأتون من هذه المنطقة (أنجولا والكونغو). وعندما ألغيت تجارة الرق من المستعمرات البرتغالية ١٨٥٨ ـ ١٨٧٨ ظهرت تجارة المنتجات الزراعية مثل زيت النخيل وبذور زيت النخيل بالإضافة إلى العاج والكاوتشوك، وقد انتشرت المراكز التجارية على طول الساحل الغربى الإفريقى ودلتا الكونغو وشاركت البرتغال فى هذه الغنيمة فرنسا وإنجلترا وهولندا[٢].

وهكذا تأسس فى القرن التاسع عشر عدد من المنشآت الأوروبية على سواحل إفريقيا وتطورت الأمور أن يقوم على تحديد الأوروبيين لرقعة نفوذهم على الساحل من أجل إخضاع دواخل القارة لسيطرتهم حيث كانت سلطة الأوروبيين تنحصر فى الساحل وكان من الممكن أن يكون الوضع على حاله لو لم يطرأ حدث غير عادى وهو ظهور مستعمرة أوروبية من العدم أسسها ليوبولد الثانى ملك بلجيكا بصفته الشخصية لا الملكية اعترفت بحدودها القوى الأوروبية، ونتج عن هذا الحدث وضع مختلف فلم تعد المستعمرات الفرنسية والبرتغالية الساحلية قادرة على التوسع داخل القارة. ونشأ الكونغو الذى سمى بدولة الكونغو الحرة التى

---

(١) كان تاجر رقيق وهو من أسس الوجود العربى فى الكونغو، وكان له فضل إرشاد وحماية المستكشفين الأوروبيين أمثال برتون وليفنجستون.

(٢) تقسيم إفريقيا المرجع السابق ص١٢٤.

أصبحت فيما بعد الكونغو البلجيكى. كل ذلك نتج عن تسلطات وطموحات سياسية تميز بها رجل واحد هو ليوبولد الثانى الذى لم تطأ أقدامه قط أرض الكونغو[1].

إن قضية الكونغو هى الأغرب على الإطلاق من بين مختلف الأحداث الغربية فى تاريخ إفريقيا؛ ذلك بأن تكتسب بلجيكا وهى إحدى أصغر الدول الأوروبية لإحدى أكبر وأغنى مستعمرات إفريقيا؛ علماً بأن بلجيكا لم تكن قادرة على احتلال مستعمرة بتاتًا.

فقبل عام ١٨٣٠ لم تكن بلجيكا دولة مستقلة بل كانت تشكل جزءًا من المملكة الهولندية التى تفككت فاستقلت بلجيكا بموجب معاهدة ضمنت حيادها الدول العظمى.وتولى ليوبولد الثانى عرش بلجيكا وكانت طموحاته الاستعمارية لا حد لها. ومن الصعب تحديد التاريخ الذى بدأ فيه ليوبولد التفكير فى إفريقيا، فقد فكر فى ملكية بلجيكية فى الصين أو اليابان أو أمريكا الوسطى أو الساحل الإفريقى، وكان يعتقد أنه يستطيع الاختيار بين إحدى هذه المناطق، وفى عام ١٨٣٣ طرح مشروع إنشاء شركة إفريقية شرقية فى موزامبيق البرتغالية، ولكن هذا المشروع باء بالفشل. وفى هذه الأثناء استرعى انتباهه الرحلات التى قام بها ليفنجستون وكاميرون وستانلى ودى برازا فى منطقة الكونغو.

عندما بدأ ليوبولد يرسم مخططاته الإفريقية ١٨٧٥ كان كل هؤلاء المستكشفين لا يزالون داخل أدغال إفريقيا، وفى ذلك العام عقد فى باريس مؤتمر جمعية الجغرافيا، حضره ليوبولد وفيه طلب الحصول على المعلومات الخاصة باستكشاف القارة الإفريقية، وفى العام التالى ١٨٧٦ عقد ليوبولد فى قصره فى بروكسل ببلجيكا إجتماعًا باسم مؤتمر الجغرافيا تميز بعدد ضخم من الحضور. تضمن جدول أعماله:

١ـ إقامة قواعد للعمل فى زنجبار وعند مصب نهر الكونغو.

٢ـرسم طرق الوصول إلى المناطق الداخلية.

٣ـ إنشاء هيئة دولية لتنسيق هذا العمل.

باشر المؤتمر أعماله دون انتظار ورحب المشاركون بفكرة إنشاء محطات أو مراكز تستقبل المسافرين وتضطلع بدور علمى أى تجميع المعلومات الجغرافية والعرقية، ونال الاقتراح ترحيبًا

(١) تقسيم إفريقيا المرجع السابق ص١٢٧.

وقرر المؤتمر إقامة أربع محطات وإنشاء مؤسسه دولية تسمى «الجمعية العالمية الإفريقية»[1] ومقرها بروكسل ويرأسها الملك ليوبولد.

لجنة دراسة الكونغو الأعلى:

ولدت الجمعية العالمية الإفريقية بوصفها هيئة عالمية ميتة ولم تخدع كلمة عالمية إلا القليل من الدول حيث كانت بلجيكا هى البلد الوحيد الذى حمل الجمعية على محمل الجد، إلا أن الدولة البلجيكية لم تشأ تحمل أية مسئولية فيما يتعلق بالمشاريع الإفريقية، لذلك لم تقم الجمعية بنشاطات واعتمدت ديناميكية جديدة عندما وصل ستانلى إلى الشاطئ الغربى بعد رحلته الطويله عبر إفريقيا عام ١٨٧٥.

وصل الخبر إلى أوروبا فتحرك الملك ليوبولد على الفور، ووجد فى ستانلى الشخصية التى يمكن أن تحقق أهدافه وعرض عليه الانخراط فى خدمته بأن يقوم باكتشاف الكونغو وإنشاء محطات فيه على أن تتطور هذه المراكز وتتحول إلى منشآت بلجيكية حينما يحين الوقت وتسمح الظروف. وفى نوفمبر ١٨٧٨ عقد اجتماع فى قصر بروكسل تقرر فيه تأليف لجنه دراسات الكونغو الأعلى بهدف إنشاء محطات هناك تقام فيها خطوط نهرية، وكان المفهوم السياسى لتوجيهات ليوبولد يتعلق بدعوة بعض الزنوج الأحرار ليسكنوا فيها ليطال تأثيرها رؤساء القبائل المحيطة ومن ثم تجمع هؤلاء ضمن فيدرالية جمهورية للزنوج الأحرار وتكون تابعة لليوبولد ولا أحد سواه.

كان هذا المفهوم السياسى مبهماً ورآه ستانلى محالاً، ومع ذلك تبنى الفكرة التى تقوم على أنه من الممكن للمحطات أن تعتبر دولاً أو بالأحرى دويلات صغيرة ويكون الاتحاد الفيدرالى مثيلًا للدولة. وفى أغسطس ١٨٧٩ وصل ستانلى إلى الكونغو ووقع أولى المعاهدات التى كلفه ليوبولد بإبرامها.

وعلى الجانب الآخر كان دى برازا المستكشف الثالث للكونغو يجوب الكونغو لحساب وطنه فرنسا، ونجح فى أغسطس ١٨٨٠ أن يبرم معاهدة غيرت مجرى تاريخ الكونغو هى معاهدة برازا ـ ماكوكو، وماكوكو هو لقب يحمله الحاكم الإفريقى الذى كان يسيطر على المنطقة.

---

(١) نشط الملك ليوبولد الذى أطلق عليه النذل الاستعمارى فى الكونغو بين السنوات التى فصلت مؤتمر بروكسل هذا ومؤتمر برلين ١٨٨٤. وعادت هذه المؤسسة بفائدة كبيرة حيث أتاحت له الفرصة اكتساب هذه الدولة واعتراف الدول بحدودها.

وبموجب هذه المعاهدة تنازل ماكوكو عن أراضيه وعن حقه الوراثى بالسيادة، وأرسل برازا إلى الرؤساء المحليين الذين كان يعتبرهم فصائل للماكوكو بوضع يده على أراضيهم التى تقع على ضفة الكونغو اليمنى باسم فرنسا ورفع العلم الفرنسى عليها، وسلم نسخًا من الأعلام لكى يرفعوها فى قراهم كرمز لتملك فرنسا الأرض، وأقر الرؤساء بالتنازل عن أراضيهم ووقعوا العقد وكان مجموع الموقعين ستة، برازا وخمسة زعماء محليين. وعلى الضفة اليسرى للكونغو كان ستانلى يبرم معاهدات مع الحكام المحليين بين أعوام ١٨٨٠ـ١٨٨٥، خمسمائة معاهدة باسم ليوبولد وجمعيته كانت عبارة عن استمارات نموذجية لملئها وتوقيعها، وبمجرد وضع الزعماء الأفارقة إشارة صغيرة عليها يكونوا قد سلموا سيادتهم لمؤسسة ليوبولد المؤسسة الدولية للكونغو.

وهنا يثور السؤال هل كانت سلطة ماكوكو حقيقية؟ وما هى الأراضى التى كان يسيطر عليها تحديدًا، أم كان شأنه شأن الملوك الذين تصادفهم فى إفريقيا كل خمسة كيلومترات، وهل كان فعلًا الزعماء أو الرؤساء المحليون فصائل تابعة له؟ وماذا كانت تعنى بالنسبة للإفريقيين كلمات وضع اليد وتنازل ونقل السيادة ؟ إن الإفريقيين كانوا يعتبرون تلك المعاهدات مع البيض هى نوع من الاتفاقات التجارية. وقد أبرمت المعاهدات بمواثيق مختومة بالدم وفقًا للعرف الإفريقى، ولم يكن نص هذه المعاهدات فى نظرهم تسليم أراضيهم لغرباء بل لتوثيق علاقة صداقة معهم.

وأيًا كان الأمر فقد شغلت مسألة الكونغو موقعًا متزايد الأهمية على الساحة الدبلوماسية الأوروبية إذ ظهرت البرتغال تطالب بأحقيتها فى الاستحواذ على الكونغو، فالبرتغاليون كانوا أول من وطئت أقدامهم أرض الكونغو، وأول من عقدوا معاهدات واتفاقيات مع أهله منذ القرن الخامس عشر، ومع ذلك كله كان الوجود البرتغالى فى إفريقيا محدودًا جدًّا. وقبل أن تتخذ مسألة الكونغو بعدًا دوليًا ١٨٨٢ شهدت هذه المنطقة تنافسًا بين انجلترا والبرتغال، وكانت بريطانيا ترفض كل مطالبات البرتغال فى الكونغو بحجة أنهم أول من اكتشفوا المنطقة، وكانت ادعاءات البرتغاليين فى نظر بريطانيا معدومة القيمة لأنهم أهملوا الطابع المادى وهو وضع يدهم الفعلى على الأراضى؛ فى حين كان الإنجليز يمسكون بيدهم ورقة رابحة فقد أبرموا معاهدات مع الزعماء المحليين منحوهم بموجب هذه المعاهدات وعدًا بإلغاء العبودية مقابل الاعتراف بسيادتهم ونفى سيادة البرتغال عليها. وباءت بالفشل كل محاولات البرتغال من أجل التوصل إلى اتفاق انجليزى ـ برتغالى حتى ١٨٨١، ولكن فى مطلع ١٨٨٢ تغير الوضع

جذريًا. ما إن وصل إلى مسامع الإنجليز خبر معاهدة ـ برازا ماكوكو حتى بدأت المفاوضات بين إنجلترا والبرتغال وأصبحت الادعاءات البرتغالية تلقى فجأة الترحيب وقدم الإنجليز بعض التنازلات للبرتغاليين بسهولة لتصد الادعاءات الفرنسية عدوة بريطانيا اللدود.

وفى فبراير ١٨٨٤ وقعت معاهدة اعترفت بريطانيا بموجبها بسيادة البرتغال على الساحل الممتد على كل منطقه مصب الكونغو، ولكن هذا الاتفاق وحد جهود كل من ألمانيا وفرنسا وليوبولد لمعارضته، وأحرز ليوبولد تقدمًا على الفرنسيين بفضل العمليات التى قام بها ستانلى، ففى غضون سنة واحدة أبرم ستانلى مئات المعاهدات مع أكثر من ألفى رئيس قبيلة. وفى الوقت نفسه بسط نفوذه الفعلى بتشكيل قوة عسكرية من مئات الجنود وألف بندقية وثمان سفن تجارية، وجر هذه القوة الحربية الكبيرة وراءه صعودًا فى النهر حتى وصل إلى شلالات ستانلى، وفى الوقت ذاته أعلن ليوبولد أن دولة الكونغو الحرة سوف تتمتع بحرية تجارية مطلقة، ولما كان مطلب حرية التجارة أهم مطلب فقد أعطت خطة ليوبولد ثمارها فتخلت إنجلترا عن البرتغال واستقبل المجتمع الدولى الدولة التى أسسها ليوبولد بصفتها دولة من دون جمارك، واعترفت إنجلترا وفرنسا بدولة الكونغو وبحدودها بعد أن وعد ليوبولد بتبنى نظام الحرية التجارية المطلقة فى دولته المستقلة، وبهذا حصل على دعم الانجليز الذين رأوا فيه ضامنًا للتجارة أفضل من هؤلاء البرتغاليين.

وعندما انتهى المؤتمر بالتوقيع على الاتفاق لم يكسب أحد مثلما كسب الملك ليوبولد، وعندما أشير إلى اسم ليوبولد فى احتفال التوقيع وقف الحضور جميعًا مصفقين. وذكر بسمارك فى خطابه الختامى للمندوبين«إن دولة الكونغو الجديدة يقدر أن تكون واحدة من أهم ما أنجزنا فى هذا العمل الذى اجتمعنا من أجله، وأنا أعبر عن أطيب الأمانى لتطورها السريع وأن تحقق الأهداف التى نتوقعها». وبعد شهرين جاءت سفينة تابعة للأسطول البحرية الأمريكية وظهرت عند ثغر نهر الكونغو وأطلقت ٢١ طلقة مدفعية احتفالًا بدولة الكونغو الحرة ورفع علمها الأزرق ذى النجمة الذهبية.

وأخيرًا صار ليوبولد الحاكم الفرد للشعب الذى قدره ستانلى بثلاثين مليون نسمة بغير دستور وبغير رقابة دولية وبغير أن يذهب هو نفسه إلى الكونغو. حصل على مستعمرة تبلغ مساحتها ٨٠ ضعف مساحة بلجيكا تبلغ ٩٠٥,٣٥٥ ميل مربع وأكبر من ١٣ دولة أوروبية معًا هى بريطانيا وبلجيكا وإيرلندا وهولندا والدنمارك والبرتغال وسويسرا وألمانيا وإسبانيا

وإيطاليا وارمينيا وألبانيا(وهذا هو الحجم الكبير لدولة الكونغو) وهى ثالث أكبر دولة فى إفريقيا، القارة التى صارت بفضل مؤتمر برلين مستعمرة فى الأساس لست دول أوروبية: بريطانيا وفرنسا والبرتغال وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا.

٣- نص قرارات مؤتمر برلين

نصت إتفاقية مؤتمر برلين التى وقعتها ١٤ دولة فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ على[١]:

الفصل الأول يتعلق بحوض نهر الكونغو:

ماده ١: يجب أن تتمتع تجارة الدول كلها بالحرية الكاملة.

مادة ٢: كل الأعلام بغير تمييز بين الدول لها حرية الوصول إلى كل سواحل الأقاليم.

مادة ٣: كل البضائع أيًا كان مصدرها التى ترد إلى كل الأقاليم تحت أى علم كان بالبحر أم بالنهر أم بالبر يجب ألا تخضع لضرائب أكثر مما يتقرر بوصفه تعويضًا عادلًا عن النفقات لصالح التجارة.

مادة ٤: البضائع المستوردة إلى هذه الأقاليم يجب أن تبقى معفاة فى الاستيراد والنقل، ويمكن تعديل هذا الحكم بعد ٢٠ سنة.

مادة ٥: ليس من حق أيه دولة فى استخدامها لحقوق السيادة فى هذه الأقاليم أن تسمح بمنح احتكار أو ميزة من أى شكل فى مسائل التجارة.

مادة ٦: كل القوى التى تمارس حقوق السيادة أو النفوذ فى الأقاليم المعنية يلزمون أنفسهم بمراعاة مصالح القبائل المحلية وتحسين أوضاعهم المادية والمعنوية والمساعدة فى قمع العبودية وبخاصه تجارة العبيد، ويجب عليهم بغير تمييز فى العقيدة أو الوطن أن يجمعوا كل المؤسسات الدينية والعلمية والخيرية وغيرها، وأن يحموا بعثات التبشير المسيحية والعلماء والمستكشفين وأتباعهم، والملكيات والجماعات كلها يتعين أن يكون مشمولًا بهذه الحماية الخاصة. وإن حرية العقيدة والوعى مضمونة لكل الأهالى بها لا يقل عن الرعايا والأجانب.

الفصل الثانى: الوثائق الخاصة بتجارة العبيد

مادة ٩: إن القوى التى تمارس حقوق السيادة والنفوذ فى هذه الأقاليم المكونة لحوض

(١) مجله New African عدد فبراير ٢٠١٠.

الكونغو يعلنون أن هذه الأقاليم لن يكون مسموحًا بأن تكون سوقًا لتجارة الرق أو وسيلة لنقلهم أيًا كان عنصر هؤلاء العبيد. وإن هذه القوى تلزم نفسها بأن تستخدم كل مالديها من إمكانيات لإنهاء تجارة العبيد ومعاقبة من يرتبطون بها.

الفصل الرابع: النص الخاص بالملاحة فى الكونغو

مادة ١٣ : إن الملاحة فى نهر الكونغو بغير استثناء من روافده أو فروعه يجب أن تبقى حرة أمام السفن التجارية للأمم كلها متساوية، وإن رعايا هذه الأمم والدول وإعلامها يجب فى كل المجالات أن تعامل على قدم المساواة التامة، ولا يجوز منح مزية فى الملاحة لأى من الشركات أو الاتحادات أو الأفراد لأى سبب.

الفصل الخامس: النص الخاص بالملاحة فى نهر النيجر

مادة ٢٦: إن الملاحة فى النيجر بغير استثناء لأى من روافده أو فروعه يجب أن تبقى حرة تمامًا بالنسبة للسفن التجارية من كل الجنسيات المتساوية(كل من بريطانيا وفرنسا التى لكل منها أجزاء فى إقليم النيجر ويخضع لحمايتها يتعهدان بأن تطبقا حرية التجارة على أقاليمها).

الفصل الخاص بالنسبة للاحتلال الجديد لسواحل إفريقيا

مادة ٣٤: إن أى دولة تسيطر أو تحوزجزءًا من أرض فى سواحل القارة الإفريقية بخلاف ماتحوزه الآن يجب أن تعلن أنها تحت حمايتها وأن يصحب ذلك إعلان لكل الدول الموقعة على هذه الاتفاقية لتمكنها من الاحتجاج على هذا الصنيع إن كان ثمة ما يدعو لذلك.

مادة ٣٥: إن الدول الموقعة على هذا الاتفاق يعترف بوجوب قيام سلطة فى الأقاليم المحتلة على سواحل القارة الإفريقية تكون كافية لحماية الحقوق المقررة ولحماية حرية التجارة والانتقال بالشروط المتفق عليها.

مادة ٣٧: إن الدول الموقعة على هذا الاتفاق العام تحتفظ لنفسها بالحق فى الاتفاقيات المتبادلة للتعديل والإصلاح وفقًا لما يتبين من الخبرة الجارية.

بتحليل هذه البنود يمكن القول أن المؤتمر نجح فى تحقيق هدفين أساسيين هما:

أولًا: قيام دولة كبرى فى قلب إفريقيا الإستوائية (دولة الكونغو الحرة) تكون من الناحية الاسمية مفتوحة لكل الشعوب وبعيدة عن المنافسات الدولية.

ثانيًا: وضع أسس التنظيمات الاقتصادية المتعلقة بالمناطق الداخلية للقارة، وهو ما دفع عجلة التكالب الاستعماري على القارة، هذا التكالب الذى يعنى بالضرورة الاحتكاك بالقوى الوطنية الإفريقية التى كانت هى الأخرى تسعى لإنشاء الممالك الإسلامية وشهدت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر سلسلة من الحروب بين القوى الإسلامية والدول الاوروبية التى سعت للاحتلال الفعلى فى أقاليم القارة حسب قرارات مؤتمر برلين، وكان الصدام أمرًا محتمًا ولم يتوقف حتى قيام الحرب العالمية الأولى[1]

٤ـ أسلاب المؤتمر

قبل انعقاد مؤتمر برلين كانت الدول ذات الأثر الفعال فى تلك الفتره هى إنجلترا وفرنسا، والبرتغال التى كانت تدعى السيطرة على مناطق شاسعة منذ أيام مجدها فى فترة الكشوف الجغرافية فى القرن السادس عشر، ولكن احتلالها الفعلى لهذه المناطق لم يكن مؤثرًا. كانت فرنسا قد استقرت فى أوائل القرن التاسع عشر فى الجزائر ثم بدأت تتطلع نحو الساحل الغربى من القارة نحو النيجر وبسطت نفوذها على جزيرة مدغشقر فى الساحل الشرقى الإفريقى. كذلك اتجهت بريطانيا إلى جنوب القارة ومدت سيطرتها على منطقة زنجبار فى الشرق، وتطلعت إيطاليا إلى تونس وطرابلس الغرب وقامت بوضع قدم لها فى منطقة خليج عصب شمال أوبوك.

تلك كانت الصراعات الدولية قبل أن تفجر ألمانيا مشكلة التكالب على إفريقيا بعد الثورة الصناعية التى كانت تتطلب الحصول على مناطق المواد الخام والأسواق لتصريف المنتجات الصناعية، ودخلت بلجيكا حلبة التنافس الاستعماري للاستيلاء على الكونغو، وكان احتلال بريطانيا لمصر مقدمة لمرحلة التكالب الاستعمارى.

عندما افتتح مؤتمر برلين فى ١٥ نوفمبر ١٨٨٤، كانت البرتغال واحدة من الداعين الأساسيين له، وقدمت فى افتتاحه ما صار يعرف باسم الخريطة القرمزية(أى الخريطة ذات اللون الوردى) التى تشير إلى أن المستعمرات البرتغالية تمتد من أنجولا غربًا إلى موزمبيق شرقًا وتضم الأراضى الشاسعة التى صارت فيما بعد زامبيا وزيمبابوى مالاوى.

والغريب أن كل الدول المشاركة فى المؤتمر فيما عدا بريطانيا وافقت على أن تكون البرتغال

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى لإفريقيا. د. عبد الله عبدالرازق إبراهيم ـ عالم المعرفة العدد ١٣٩ (سلسلة كتب يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (الكويت).

هى المالك الجديد بهذه الأراضى الشاسعة التى تبدأ من أنجولا على الساحل الغربى إلى قلب القارة الداخلى حتى موزمبيق على الساحل الشرقى. وبالنسبة للأثنتى عشرة دولة الحاضرة فى المؤتمر صار ذلك صفقة منتهية، ولكن إنجلترا كانت لها تخطيطات أخرى.

فى عام ١٨٩٠ أى بعد خمس سنوات من المؤتمر فإن بريطانيا (لندن) أمرت البرتغال لتنسحب من الأراضى الداخلية أو يكون عليها أن تواجه القوة البريطانية العسكرية بكاملها، وقد أطاعت البرتغال هذا الأمر وصارت هذه المنطقة بريطانية ومن ثم قسمت إلى روديسيا الشمالية(زامبيا) وروديسيا الجنوبية (زيمبابوى) ونياسالاند (مالاوى). وقد كانت بريطانيا مهتمة بالأساس باستبقاء مواصلاتها إلى الهند ومن ثم اهتمت بمصر وجنوب إفريقيا. ومع الاطمئنان إلى الوضع فى هذين الإقليمين(مصر وجنوب إفريقيا) بدأت تفكر بدافع من المخطط الاستعمارى سيسل رودس فى أن تحصل على تجميع للأراضى من القاهرة حتى كيب تاون وتقيم سكة حديد بين هاتين المدينتين، ونجحت بريطانيا فى السيطرة على مصر والسودان(السودان المصرى الإنجليزى) والصومال وأوغندا وكينيا(شرق إفريقيا البريطانى) ونياسالاند وروديسيا الجنوبية وبتشوانالاند (بتسوانا) وليسوتو وسوازيلاند وجنوب إفريقيا أى فى الوسط والجنوب الإفريقى، وفى غرب إفريقيا سيطرت بريطانيا على نيجيريا وساحل الذهب (غانا) وسيراليون وجامبيا.

أما فرنسا الرابح الكبير الآخر فقد حصلت على الكثير فى غرب إفريقيا ووسط إفريقيا موريتانيا والسنغال ومالى وغينيا وبوركينا فاسو وكوت ديفوار والنيجر وتشاد وبنين (كل هذه الأقاليم كانت تسمى غرب إفريقيا الفرنسية) وذلك حتى الجابون، وجمهورية إفريقيا الوسطى وكونغو برازافيل • وهذه كلها تكون إفريقيا الاستوائية الفرنسية)، والصومال الفرنسى(جيبوتى حاليًا) فى الساحل الشرقى ومدغشقر فى الجنوب الشرقى.

وبالنسبة للبرتغال فقد فقدت الاراضى الوسيطة ولم يبق لها سوى أنجولا على الساحل الغربى وموزمبيق على الساحل الشرقى، وجزر كيب فيرد Cap Verde فى إفريقيا الغربية.

وألمانيا فى عهد بسمارك وافقت أن تترك إقليم الكونغو الواسع للملك ليوبولد باعتباره ملكية خاصة له وحصلت فى مقابل ذلك على جنوب غرب إفريقيا(ناميبيا الآن)، وفى الشرق الإفريقى تضمنت ممتلكات ألمانيا تنجانيقا ورواندا وبورندى(وهى الآن تانزانيا ورواندا وبورندى)، والكاميرون وتوجو، ولسوء حظ الألمان أنهم فقدوا كل هذه المستعمرات الإفريقية بهزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى.

أما إيطاليا فقد أخذت الصومال (الصومال الايطالى) وجزءًا من اثيوبيا؛ فى حين حصلت إسبانيا على إقليم صغير هو غينيا الاستوائية (سمى وقتها ريو مونى Rio Muni، ثم بعد ذلك الصحراء الغربية.

ورغم أن النص الأصلى لمؤتمر برلين تضمن قرارًا «بالمساعدة فى قمع العبودية» فإن القوى الأوروبية لم تلتفت إليه ووجدت أن الاهداف الاقتصادية والاستراتيجية التى تحصل عليها من المستعمرات الإفريقيه هى الأهم باعتبار أن المؤتمر وضع القواعد والأسس التى تجعل الثغور الخاصة بالكونغو ونهر النيجر والأحواض الخاصة بهما محايدة ومفتوحة للتجارة الأوروبية.

ولمنع الاحتيال والتبديد فإن النص الأساسى يطلب من القوى الأوروبية ألا تكون لها مستعمرات إلا ما تستطيع السيطرة عليه فعلًا باتفاقات تجريها مع الرؤساء المحليين أو برفع الأعلام على الأرض وبإنشاء إدارة لهذه الأراضى تستطيع حكمها وقوة بوليس لحفظ النظام. إن القوة الاستعمارية يمكن أن تستخدم المستعمرة من الناحية الاقتصادية، وإذا لم تستطع فعل هذه الأشياء يمكن لقوة أخرى أن تقوم بها وأن تحصل على هذا الاقليم. ولذلك صار من المهم إقناع الرؤساء المحليين بتوقيع اتفاقيات الحماية وإيجاد قوه بوليسية كافية فى المنطقة.

ولإجابة هذه المطالب عملت القوى الأوروبية على إرسال حملات عسكرية تجبر الحكام الأفارقة على توقيع المعاهدات وتستخدم القوة عند الضرورة وكثيرًا ما أدى هذا الأمر إلى وضع الرؤساء الإفريقيين بصمات أصابعهم على معاهدات كتبت بلغات غريبة لم يقرأوها ولم يفهموها.«إن المادة ٣٤ من اتفاقية برلين ذكرت أن أى دولة أوروبية تحوز ساحلًا إفريقيا أو تعتبر نفسها حامية له عليها أن تبلغ القوى المتعاقدة والموقعة على اتفاقية برلين بهذا الصنيع، وإذا لم يحدث ذلك فإن ما أعلنته لا يكون معترفًا به». وهذه الماده أدخلت ما عرف باسم نظرية «مجال النفوذ»، وإن عبارة السيطرة على الساحل تعنى انهم يسيطرون على الأراضى التى خلفه لمسافات غير محدودة. وذكرت الماده ٣٥ «إنه من أجل احتلال منطقة ساحلية فإن القوى الاستعمارية يتعين عليها أن تثبت أنها مسيطرة على السلطة فى هذه المنطقة لتحمى الحقوق المكتسبة بالنسبة للحريات والتجارة والنقل، وهذا ما سمى بنظرية «الاحتلال الفعلى» وهو ماجعل غزو إفريقيا عملية أقل دموية بالنسبة للدول الأوروبية الاستعمارية .. إنها بالطبع أقل دموية بالنسبة للأوروبيين لا بالنسبة للإفريقيين».

٥- مضمون مؤتمر برلين

كانت عملية تقسيم إفريقيا تدور بين المنافسة والاتفاقات الثنائية، كان التقسيم يجرى

بالمنافسة بين فرنسا وإنجلترا. وعلى صعيد آخر كانت أوروبا مسرحًا للتنافس الفرنسى الألمانى. وفى أثناء البحث عن حلول لمسألة الكونغو ظهرت الدبلوماسية الجماعية بدلًا عن الدبلوماسية الثنائية مجسدة فى مؤتمر برلين الدولى، فصورة المؤتمر الذى يرأسه زعيم ألمانيا ويجتمع فيه زعماء أوروبا لكى يخططوا لتقسيم قارة بأكملها كانت مدهشة، تم تنظيم المؤتمر تحديدًا بسبب السباق الفوضوى فى القارة من أجل الحصول على أكثر ما يمكن من المستعمرات وامتلاك أكبر ما يمكن من مناطق نفوذ، وحاول المؤتمر تنظيم هذه السيطرة فالمؤتمر كان يناقش الاتفاقات والاعتراف بالدول المستقلة ويعين حدودها بينما الضم الاستعمارى فى إفريقيا كان يتتابع بوتيرة متسارعة، وقد حاول المؤتمرون أن ينجزوا هذه الاتفاقات لكنهم لم ينجحوا سوى فى مناطق الساحل التى كانت كلها محتلة أو معظمها تحت الاحتلال، أما فى الداخل فقد استعر السباق للبحث عن «مناطق نفوذ» ودخل هذا المفهوم القانون الدولى.

الحجة الأولى فى مذهب هذا القانون هى مبدأ «المنطقة الداخلية» يرتكز هذا المبدأ على أن أية قوة تطالب بأحد السواحل سيكون من حقها أن تغزو منطقته الخلفية (وقد تم تناول هذا المبدأ فى مؤتمر برلين) والمشكلة الأساسية فى هذا المبدأ أنه ليس معروفًا نقطة البداية ونقطة النهاية فى المنطقة الخلفية. ظهرت طبيعة هذه المشكلة حين طالب الفرنسيون بضم نيجيريا ذاهبين أنها تشكل المنطقة الخلفية للجزائر !. ورفض الانجليز الاعتراف بهذا المبدأ ورأوا أن الفرنسيين والألمان يستخدمونه لمد سلطتهم إلى كل البلدان وحتى القطب الشمالى (وعلى الرغم من ذلك فقد استخدمه البريطانيون فى المباحثات ضد الألمان فى إفريقيا الشرقية).

والحجة الأخرى التى جرى استعمالها هى حجة التملك حسب المعاهدات، وقد ظلت هذه المعاهدات والاتفاقات عرضة للاحتجاج والنقض فى إفريقيا من قبل الدول الأوروبية. عبر بسمارك عن هذا الواقع بقوله « من السهولة بمكان أن تحصل فى إفريقيا على قطعة من ورق يخربش عليها رجل أسود». وكان الدبلوماسيون يعرفون جيدًا أن هذه المعاهدات والاتفاقات ليس لها أيه قيمة فعلية. ولم يكن مبدأ «المنطقة الخلفية» ولا مبدأ احترام المعاهدات ذو قيمة وإنما المبدأ الأكثر فعالية هو مبدأ الاحتلال الفعلى.

بعد مؤتمر برلين خرجت المعاهدات الثنائية عن إطارها وتداخلت مطالب القوى الاستعمارية مما حدا بها أن ترسم مناطق نفوذها وحقوقها وهو ما جعل لورد سالسبورى يقول عبارته الشهيرة « لقد اعطينا لبعضنا جبالًا وأنهارًا وبحيرات. فى حين أننا لم نكن نعرف أين تقع

هذه الأشياء بالضبط ولم يثر أية غرابة أو دهشة، وقد تبين فى بعض الأحيان أن جبالًا وأنهارًا وبحيرات لم تكن موجودة أصلًا».

أصبحت المعاهدات مجرد لعبة سياسية ففى خلال الأعوام من ١٨٨١ـ١٩٠٥ عقدت فرنسا وإنجلترا ٤٢٩ معاهدة بشأن الحدود المشتركة فى إفريقيا الغربية وحدها[١]. وشهدت أوروبا سلسلة من المعاهدات والاتفاقات لم تشهد السياسة مثلها فى أى عصر من العصور فشهدت سنوات:

١٨٨٥ : اتفاقًا بين بلجيكا والبرتغال وآخر بين بلجيكا وفرنسا بشأن الكونغو.

١٨٨٦ : اتفاق ألمانيا وإنجلترا بشأن شرق إفريقيا.

١٨٨٧ : اتفاق بين بلجيكا وفرنسا بشأن الحدود فى منطقة الكونغو.

١٨٨٨ : اتفاق فرنسى إنجليزى بشأن الصومال.

١٨٨٩ : نزول الإيطاليين فى الصومال الإيطالى.

١٨٩٠ : اتفاقية تقسيم شرق إفريقيا بين بريطانيا وألمانيا بمقتضاها أصبحت أوغندا من نصيب بريطانيا.

اتفاقًا فرنسيًا بريطانيًا بشأن الصحراء، واتفاقًا بريطانيًا برتغاليًا بشأن اعتراف بنياسالاند.

١٨٩١ : معاهدة انجلترا مع ملك أوغندا، واتفاقا انجليزيًا وإيطاليًا بشأن الصومال.

١٨٩٢ : احتلال أوغندا.

١٨٩٤ : اتفاقا إنجليزيًا إيطاليًا بشأن أريتريا، ومعاهدة بين البرتغال وبلجيكا وإنجلترا بشأن حدود الكونغو، واتفاقًا ألمانيًا فرنسيًا بشأن الصحراء الكبرى[٢].

ترتب على هذه المعاهدات والاتفاقات أن تغيرت خريطة إفريقيا تمامًا وبدأت الدول الاستعمارية تمارس نفوذها الفعلى عقب انتهاء المؤتمر فى فبراير ١٨٨٥. ففى يونيو ١٨٨٥، بدأت بريطانيا تكوين محمية لها فى ساحل النيجر، وفى المنطقة الواقعة بين لاجوس والكاميرون، ثم توسعت شمالًا لتصل إلى الدول الإسلامية فى إمبراطورية الفولانى، وفى جنوب القارة

(١) مجلة New African عدد فبراير ص٢٤.
(٢) الاستعمار الأوروبى لإفريقيا فى العصر الحديث ـ د. زاهر رياض ص٢٤.

توسعت بريطانيا من مستعمرة الكاب شمالًا بإعلان الحماية على بتسوانالاند واعترف بادعاءاتها فى زنجبار وكينيا وأوغندا والروديسيات، وحددت مناطق النفوذ البريطانى فى غرب إفريقيا على أربع مستعمرات هى جامبيا وسيراليون وغانا ونيجيريا.

وفى يونيو أيضًا عام ١٨٨٥ وقُعت اتفاقية ألمانية مع توجو وضعت بمقتضاها توجو تحت الحماية الألمانية.

وعقدت فرنسا معاهدة مع حكومة الكونغو يكون نهر أوبانجى فرع الكونغو الغربى هو الحد الفاصل بين الحدود الفرنسية وحدود دولة الكونغو، المنطقة الشمالية منطقة فرنسية والمنطقة الجنوبية دولة الكونغو الحرة. ووقعت فرنسا أيضًا معاهدة مع بريطانيا بخصوص نيجيريا مقابل اعتراف بريطانيا بالمحمية الفرنسية فى مدغشقر.

لم تكن هذه الاتفاقيات نهاية التمزيق والتفتيت والخضوع الإفريقى فعلى أثرها اشتعلت الحروب التى عمت أنحاء القارة. وتعد الفترة من عام ١٨٩١ حتى قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ سنوات الحرب فى إفريقيا، شهدت هذه الفترة استعمار السودان للصالح البريطانى والحرب بين إيطاليا والحبشة وحروب جنوب إفريقيا، والحروب بين إمبراطورية التوكرور والفرنسيين، وحروب ساموري مع الفرنسيين، وحروب الشيخ محمد الأمين ضد الفرنسيين، وحروب المجاهدين المسلمين ضد القوى الأوروبية، وصراع محمد عبد الله حسن زعيم الجهاد فى الصومال ضد القوى الأجنبية ورابح فضل الله ضد الفرنسيين فى منطقة تشاد، وكل هذه الحروب حملت فى طياتها الطابع الدينى والجهاد الإسلامى ضد القوى الأوروبية[١].

خلاصة القول أن مؤتمر برلين الذى مزق إفريقيا لم يجلب خيرًا لها ولم يطورها. كانت لمخططاته الاستعمارية خلفيات اقتصادية وهى استخلاص ثروات القارة لصالح القوى الاستعمارية. وبالنسبة للإفريقيين الذين أضعفتهم العبودية ونتائجها والحماية الدولية المزيفة ولم يكن ذلك يعنى فقط إنكار حقهم فى تقرير المصير، ولكنه يعنى أيضًا إخضاعهم لآلات الدول الاستعمارية التى أنكرت على الإفريقيين الحق فى استثمار اقتصادهم ومهدت الطريق للسيطرة الإقتصادية للدول الغربية.

*****

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى ـ المرجع السابق ص٣٠.

الفصل الثالث

اقتسام الفطيرة الإفريقية

- حمى الغزو.
- الاستعمار الفرنسى.
- الاستعمار البريطانى.
- الاستعمار البلجيكى.
- الاستعمار الألمانى.
- الاستعمار الإيطالى.
- الاستعمار البرتغالى.
- الاستعمار الإسبانى.

اقتسام الفطيرة الإفريقية

١ـ حمى الغزو

كانت الدوافع الاستراتيجية من أهم الدوافع التى حدت بالأوربيين لاستعمار إفريقيا، فأوضاع فرنسا بعد هزيمة بونابرت وعودة الملكية كانت من أهم الاسباب التى دفعت للتفكير فى غزو الجزائر. كذلك الأوضاع الداخلية فى ألمانيا وانتشار حركة التذمر وضغط الرأى العام الألمانى على حكومته لتحذو حذو فرنسا وبريطانيا جعلت بسمارك يغير رأيه بعد أن كان محجماً عن الزج بألمانيا فى ميدان الاستعمار فاندفع إليه ونادى بعقد مؤتمر برلين لبحث كيفية ممارسة الدول الاستعمارية نشاطها الاستعمارى فى إفريقيا دون أن يصطدم بعضها بالبعض الآخر[1].

لقد فتح مؤتمر برلين (الكارثة) الباب على مصراعيه للتنافس والصراع الدولى بين القوى الاستعمارية للاحتلال القارة. ونصت المادة ٣٤ من قرارات المؤتمر صراحة:« إن أى دولة تسيطر أو تحوز جزءًا من أراضى سواحل القارة الإفريقية بخلاف ما تحوزه يجب أن تعلن أنها تحت حمايتها، وأن يصحب ذلك إعلان لكل الدول الموقعة على هذه الاتفاقية لتمكنها من الاحتجاج على هذا الصنيع». وذكرت المادة ٣٥:« إنه من أجل احتلال نقطة ساحلية فإن القوى الاستعمارية يتعين عليها أن تثبت أنها مسيطرة على السلطة فى هذه المنطقة». وإن عبارة السيطرة على الساحل تعنى أنهم يسيطرون على الأراضى التى خلفه لمسافات غير محددة..وبهذه البنود اندلعت حمى الغزو والتنافس الاستعمارى لإفريقيا.

ويمكن القول أن مستقبل إفريقيا تقرر فى مؤتمر برلين، وبه تدشن عصر جديد أنيط به عملية تقسيم القارة بالدبلوماسية الأوروبية، وتحول نشاط القوى الاستعمارية إلى اندفاع محموم لالتهام الفطيرة: فكيف تم ذلك،وكيف التهمت القارة وقطعت شلوًا شلوًا، وما هى

---

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المجلد الثانى تاريخ إفريقيا ـ إصدار جامعة القاهرة اليوبيل الذهبى لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية مايو ١٩٩٧ ص٣٣٢.

الدول التى فازت بالنصيب الأكبر؟ بإيجاز قامت فرنسا وبريطانيا بالدور الرئيسى فى السباق على المستعمرات؛ فى حين شغلت ألمانيا منصبًا ثانويًا ثم لحقتها إيطاليا.

وقد فضلت كل من بريطانيا وإيطاليا وألمانيا أن تلجأ أولًا إلى منح استغلال الأجزاء التى ترنوا إليها شركات تقوم الحكومة بمنحها بعض الحماية والمساعدة المالية، وذلك رغم اختلاف دواعى هذه السياسة، فقد كانت سياسة إنجلترا تتأرجح دائمًا بين حرية التجارة التى يتبعها حزب الأحرار وسياسة بناء الإمبراطورية التى يتبعها حزب المحافظين. بينما لجأت المانيا إلى سياسة الشركات بسبب احجام الحكومة الألمانية عن القيام بمغامرات استعمارية لأنها كانت ترى أن هذه المستعمرات لن تكون إلا عبئًا على ألمانيا الناشئة، كما أنها قد تضطرها إلى الدخول فى حروب تضرها وهى ما زالت فى دور التكوين أكثر مما تنفعها. بينما كانت إيطاليا أفقر من أن تقوم بالمغامرات الاستعمارية، هذا بينما لجأت فرنسا إلى سياسة استعمارية صريحة معتمدة على عطف الدول عليها بعد هزيمتها فى حرب السبعين.

٢ـ الاستعمار الفرنسى

كان جوهر الأفكارالإمبريالية الجديدة التى استمدت منها السياسة الرسمية للحكومة الفرنسية الموافقة على أن تضطلع الدول بدور أكبر فى الشئون الاستعمارية. وفى إنجلترا أيضًا بدأت هذه الأفكار تفرض نفسها، ودخلت ألمانيا هذا الصراع بعدما استولت على توجو. واحتدم التنافس حتى أصبح كل علم إنجليزى يجاوره علم فرنسى حتى بات الأمر يؤذن بوقوع حرب بينهما. وبما أن فكرة خوض حرب من أجل صحراء إفريقيا كما كان ينظر إلى هذه المنطقة(منطقة غرب إفريقيا) فقد تمالك المعسكران الفرنسى والبريطانى نفسيهما ووضعا حدًا لتنافسهما بمعاهدة ١٨٩٨ . ويمكن القول أن بريطانيا أول من أثار الاهتمام بإفريقيا الغربية إلا أن فرنسا تمكنت من نشر سيطرتها على هذه المنطقة، وذلك لأن الفرنسيين كانوا يريدون بناء إمبراطورية من خلال غزوات عسكرية؛ فى حين كان الإنجليز يطبقون سياسة الاستحواذ من خلال التجارة، وإذا حصلت فرنسا على الجزء الأكبر من الأراضى فقد سيطرت إنجلترا على المنطقة الأثرى اقتصاديًا[(١)].

يعود الوجود الفرنسى فى إفريقيا الغربية إلى القرن السابع عشر عندما أسس الفرنسى ى لبيه ١٦٥٩ مدينه سان لويس على جزيرة صغيرة على مصب السنغال، وقد أصبح هذا الموقع

(١) تقسيم إفريقيا – المرجع السابق، ص ٣٢٩

فيما بعد مستعمرة فرنسية. وقام اقتصاد هذه المستعمرة على تجارة العبيد التى يتم الحصول عليهم من الداخل من مناطق تقع خارج منطقة النفوذ الفرنسى. وكان الفرنسيون يخافون من أن يقوم الإنجليز بإرسال حملة بهدف احتلال المنطقة، وأدى هذا الخوف إلى القيام بسياسة التوسع العسكرى التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ إفريقيا. ورأت فرنسا فى السودان الغربى والسنغال «كندا» الجديدة أو الهند الفرنسية التى ستكون تعويضًا متأخرًا لهذه المستعمرات التى تنازلت عنها فرنسا لإنجلترا فى القرن الثامن عشر.

ويطلق اسم السودان الفرنسى أو إفريقيا الغربية الفرنسية على المستعمرات التى تقع فى غرب إفريقيا وهى موريتانيا والسنغال وغينيا وداهومى والنيجر وساحل العاج(كوت ديفوار) وفولتا العليا(بوركينا فاسو). وحتى عام ١٨٥٠ لم تكن هذه المستعمرات أكثر من مراكز تجارية أنشأها تجار بريطانيون وهولنديون وغيرهم. كانت فرنسا على اتصال بتجارها وتزويدهم بالحماية التى يطلبونها إذ كانت معظم المراكز تتعرض لهجمات الأهالى الوطنيين أو بعض الزعماء المحليين، وقد تعرضت هذه المراكز الفرنسية بالوقوع فى يد البريطانيين فى خلال الحروب النابوليونية (١٧٩٥ ـ ١٨١٤) ولكنها أعيدت إلى فرنسا بعد مؤتمر فيينا ١٨١٥، وأخذت فرنسا منذ ذلك الوقت تتدخل تدخلًا مباشرًا فى هذه المراكز وترسل إليها رسلها ليتصلوا بالزعماء الوطنيين ليعقدوا معهم معاهدات يرضى فيها هؤلاء أن يضعوا أنفسهم تحت الحماية الفرنسية. وظلت هذه السياسة بطيئة حتى منتصف القرن، وظهرت واضحة عام ١٨٥٤ عندما عينت حاكمًا عامًا على إقليم السنغال، ونشطت فرنسا فى نشر نفوذها فى إفريقيا عقب هزيمتها فى حربها مع ألمانيا ١٨٧٠ من أجل استعادة مركزها المنهار وتعويض خسارتها فى إقليمى الألزاس واللورين، وكان ذلك يجرى تحت سمع وبصر الدول الأوروبية الأخرى حيث كانت المانيا منصرفة إلى تدعيم وحدتها وترى فى انشغال فرنسا بشئونها الإفريقية ما يلهيها عن الانتقام. وكانت بريطانيا منصرفة إلى تدعيم تجارتها، ولم تكن قد كونت بعد فكرة واضحة عن استعمار أجزاء من إفريقيا إذ كانت تجد فى إمبراطوريتها التى بنتها فى كندا وجنوب إفريقيا وأستراليا عناء لا فائدة من ورائه.

تم دخول فرنسا إلى غرب إفريقيا عبر سياسة غزو منهجية وحروب دائمة؛ ذلك أن التوسع الفرنسى فى هذا الجزء كان قائمًا على سياسة غزو واضحة، وكان الهدف الاساسى تحويل السنغال إلى مستعمرة لإنشاء إمبراطورية فرنسية كبرى فى غرب السودان تربط المناطق الفرنسية الثلاثة فى إفريقيا الجزائر والكونغو الفرنسى وإفريقيا الغربية الفرنسية؛ لذلك فإن توسعًا من السنغال نحو الشرق باتجاه بحيرة تشاد كان أساسيًا.

أما العنصر الثانى فهو اللجوء المنهجى إلى الوسائل التعاقدية. كان التوسع فى أماكن أخرى بشكل عام يتم بعقد اتفاقيات يقبل بموجبها الزعماء الأفارقة حماية القوى الأوروبية ويتنازلون لها عن سيادتهم، وقد أبرمت اتفاقات كهذه فى السودان الغربى إلا أنها لم تكن ذات قيمة كبيرة فتوسع القوى الأوروبية واجه مقاومة شديدة من الممالك الإسلامية التى كانت قائمة، وكان السودان معدودًا من بين البلدان الغنية والقوية التى تتمتع بجهاز عسكرى صلب وتربطها وحدة فكرية مرتكزة على الإسلام، وإن كانت هذه الممالك الإسلامية لم تتمكن من توحيد قواها فكان الانقسام نقطة ضعفها.

فمن وجهة نظر فرنسا كان المغرب العربى قلب الوجود الفرنسى فى إفريقيا وبذلك تصبح المنطقة السوداء هى الخلفية للإمبراطورية الإفريقية الفرنسية، وهذا يقتضى ربط إفريقيا بعضها ببعض؛ لذا يتعين الانطلاق من الجزائر لتجاوز الصحراء لربط منطقتى الغرب الإفريقى السنغال والسودان الغربى مع بعضها، ثم ربط هذا الجمع بالممتلكات فى إفريقيا الوسطى. باختصار إنشاء أكبر إمبراطورية استعمارية فى العالم، وهذا يقتضى العمل سريعًا على احتلال فعلى لهذه الأراضى وعقد اتفاقات دولية ومعاهدات مع زعماء البلاد الإفريقية واحتلال أراضيهم وبالتالى تجديد الجهود العسكرية[1].

وإذا ما عقد مؤتمر برلين وأباح للدول الغربية الاستيلاء على أجزاء من القارة حتى نشطت السياسة الفرنسية فى غرب إفريقيا واتخذت من السنغال قاعدة للانطلاق نحو المناطق الداخلية، ولم يقتصر النشاط الفرنسى على المناطق الداخلية الواقعة شرقًا وإنما امتد ليشمل منطقة ساحل غينيا حيث نجح الفرنسيون فى تأسيس مستعمرتين مستعمرة داهومى(بنين حاليًا) ومستعمرة ساحل العاج (كوت ديفوار)[2].

وبادرت فرنسا بإعلان حمايتها على هذه المستعمرات الفرنسية وبإعلان معاهدات الحماية التى عقدتها مع الزعماء المحليين. كانت إنجلترا وألمانيا بدأتا أيضًا بالحصول على المستعمرات ومن ثمّ بدأ الصراع الفرنسى البريطانى الألمانى، وظهر هذا الصراع واضحًا فى التسابق نحو حوض النيل الأعلى حينما قاد الجنرال الفرنسى مارشان حملة حربية من الكونغو الفرنسى(كونغو برازافيل) من أجل الوصول إلى بحر الغزال، إلا أن الدولتين فرنسا وإنجلترا سرعان ما تفاهما

(١) بحوث ودراسات ووثائق فى تاريخ إفريقيا الحديث ـ د. إلهام محمد على ص٨٦.
(٢) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ص٣١٣ ـ ٣٢٩.

على تقسيم المناطق الإفريقية فاعترفت إنجلترا لفرنسا بحدود السنغال، واعترفت ألمانيا لها بحدود داهومى وغينيا، ومن ثمّ انصرفت فرنسا إلى مد النفوذ الفرنسى إلى بحيرة تشاد فخرجت حملة من السنغال لتقابل أخرى من الجزائر وثالثة من الكونغو.

كرست فرنسا جهودها للاستيلاء على تشاد، فأرسلت إلى بحيره تشاد ثلاث حملات، وانطلقت الحملات الثلاث ١٨٩٩ للتخلص من «رابح» سيد المنطقة قائد المقاومة الإفريقى، ووقعت المعركة الحاسمة ١٩٠٠ وانتهت بهزيمة «رابح» وقتله ووقعت المنطقة بين أيدى الفرنسيين، وحققت فرنسا مشروعها الكبير فى تشاد. وأدرجت عملية سيطرة فرنسا على موريتانيا فى الإطار نفسه، ولم تكن هذه المنطقة المرتبطة نظريًا بالسنغال موضعًا للمطامع فألحقت فرنسا موريتانيا بها بسهولة بموجب معاهدة فرنسية إسبانية. وأدت هذه الجهود إلى إخضاع إفريقيا الغربية لدائرة نفوذ الفرنسيين، وبدت الممتلكات الإسبانيه والألمانية والبرتغالية القليله المنثورة على خريطة إفريقيا الغربية جيوبًا صغيرة فى منطقة النفوذ الفرنسى.

على أن أعظم ما وقف فى وجه فرنسا كانت قوتان كبيرتان هما قوة رابح فى السودان وقوة السنوسيين. كان رابح من أنصار الزبير باشا الذى فتح دارفور تحت إمرة الحكومة المصرية، ولكن الزبير اصطدم مع مصر فاعتقل فى مصر، ومن ثم استقل رابح بجزء كبير من جيش سيده الزبير واتجه نحو الغرب إلى دارفور ثم وداى واتخذ البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد مركزًا له وغزا دولتى الباجرمى وبورنو وبنى لنفسه ملكًا مستقلًا ١٨٩٥ فكان لا بد أن يصطدم مع الفرنسيين الزاحفين من الغرب. ووجدت فرنسا فى هؤلاء السلاطين الذين استولى رابح على ولاياتهم عضدًا فضمتهم إليها وبدأ الصدام الذى تقهقر فيه رابح نحو الشرق وتقدم الفرنسيون إلى وداى (تشاد)، واتفق الفرنسيون مع الإنجليز الذين دخلوا السودان المصرى فى يناير ١٨٩٩ أن يقفوا عند حدود دارفور ويتركوا الغرب كله للفرنسيين، وخلص هذا الجزء لفرنسا نهائيًا فأصبح لها سبع مستعمرات هى السنغال وموريتانيا وغينيا والسودان الفرنسى (مالى) وداهومى والنيجر ،ساحل العاج(كوت ديفوار).

وبالنسبة لإفريقيا الفرنسية الاستوائية فقد كانت فرنسا فى عام ١٨٣٩ حصلت على حق الإقامة على الضفة اليمنى لنهر الكونغو من بعض الزعماء المحليين، وكان هذا الحق يشمل إقامة حامية لتأمين مصالح التجار الفرنسيين، وفى عام ١٨٤٩ أقيمت مدينه ليبرڤيل فكانت أول مدينه فرنسية،ولكن فرنسا اضطرت إلى ترك المدينة نتيجة لهزيمتها فى الحرب السبعينية ١٨٧٠ ثم عادت ١٨٧٥ إلى الاهتمام بهذا الجزء وأرسلت البعثات الاستكشافية لا ستكشاف

نهر الكونغو التى جدت فى عقد المعاهدات مع الزعماء المحليين، وغداة مؤتمر برلين أعلنت بلجيكا قيام دولة الكونغو الحرة فأعلنت فرنسا قيام الكونغو الفرنسى (كونغو برازافيل)، وأخذت تمد حدود الكونغو الفرنسى إلى الشمال بعقد المعاهدات مع الزعماء المحليين حتى وصلت إلى بحيرة تشاد. وفى عام ١٨٩٧ احتدمت المنافسة بين بريطانيا وفرنسا من أجل منطقة أعالى النيل فخرجت حملة فرنسية من فرنسا الاستوائية بقيادة مارشان بغرض الوصول إلى أعالى النيل، ووصلت الحملة إلى فاشوده حيث رفعت العلم الفرنسى، ولكن وصول الحملة البريطانية المصرية لاسترداد السودان ١٨٩٨ أدى إلى انسحاب فرنسا بعد مفاوضات بين الطرفين[1]. وبعد الحرب العالمية الأولى ضمت فرنسا إليها محمية الكمرون التى كانت تابعة لألمانيا حتى ١٩١٦.

وفى الجزائر التى تعد من أقدم المستعمرات الفرنسية فى إفريقيا بعود الاهتمام الفرنسى بها إلى أزمان بعيدة كان البحر المتوسط هو طريق التجارة بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة وفى العصور الوسطى، وكان القراصنة من جميع الأجناس يسيطرون عليه، وفى عام ١٨١٥ حاولت الدول المجتمعة فى ڤيينا أن تضع حدًا لاعتداءات القراصنة فاتخذت قرارًا بوجوب القضاء على القراصنة، فعولت فرنسا أن تقوم بتأديب هؤلاء خاصة أن الأسطول الفرنسى لم يكن لديه قواعد تطل على البحر فى حين كان الأسطول البريطانى يمرح بين أجزائه بعد أن استولى على جزيرة مالطة عام ١٧٩٨ وأصبحت موانى تركيا ومصر فى الشرق مفتوحة أمامه بفضل الصداقة التركية البريطانية، فأرادت فرنسا أن تستولى على الجزائر لتتخذ من شواطئها قاعدة بحرية، فأرسلت حملة بحرية إلى سواحل البحر واستولت على مدينة الجزائر ١٨٣٠، وحتى عام ١٨٣٤ لم تكن فرنسا قد استولت على أكثر من ثلاث مدن ساحلية منفصلة عن بعضها، وذلك لمقاومة الأهالى الذين تجمعوا تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائرى، وقد اضطرت فرنسا فى فبراير ١٨٣٤ إلى عقد معاهدة اعترفت بسلطة الأمير فى الداخل، ولكن تجدد القتال مرة أخرى ١٨٤٠ واستمر سبع سنوات حتى اضطر الأمير التسليم عام ١٨٤٧.

وبالنسبة لتونس فقد كانت مطمع كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، كل منها كانت تتصارع من أجل الحصول عليها، وجعلها مركزها الجغرافى فى متوسط البحر الأبيض قريبة الاتصال بإيطاليا حيث كانت إيطاليا تود الاستيلاء عليها وتأسيس مستعمرة بها لأنها أقرب البلاد إليها.

---

(١) الاستعمار الأوروبى لإفريقيا ـ المرجع السابق ص٧٢ ـ ٧٤.

كذلك كانت فرنسا تنظر إلى تونس كخطوة تالية لها بعد استيلائها على الجزائر ١٨٣٠ وتراها امتدادًا للجزائر، وانتهزت مبررًا للغزو باعتداء قبائل من البدو على بعض جنودها واحتلت تونس ١٨٨١ ووضعتها تحت الحماية الفرنسية.

وفى مراكش (المغرب) بدأت فرنسا تتطلع إليها منذ أن احتلت الجزائر، ولكنها لم تبدأ خطواتها الجدية إلا بعد ١٨٨١ حيث انتهت من احتلال تونس. وفى ذلك الوقت كان هناك أكثر من دولة تتطلع إليها مثل إيطاليا التى ساءها احتلال فرنسا لتونس، وإسبانيا التى تواجهها على الناحية الأخرى من البحر، وإنجلترا التى تسيطر على جبل طارق والتى احتلت مصر ١٨٨٢، وكذلك ألمانيا التى بدأت تتطلع إلى المستعمرات، فبدأت فرنسا سلسلة من المعاهدات تؤمن لها طريقها فعقدت مع إيطاليا اتفاقًا يطلق يدها فى مراكش نظير إطلاق يد إيطاليا فى طرابلس الغرب، ومع إنجلترا نظير إطلاق يدها فى مصر، وأخرى مع إسبانيا يبيح لفرنسا احتلال مراكش إذا تركت جزءًا منها لإسبانيا. وأدرجت عملية سيطرة فرنسا على موريتانيا فى الإطار ذاته، لم تكن هذه المنطقة المرتبطة نظريًا بالسنغال موضعًا للمطامع. وفى ١٩٠٠ ألحقت بفرنسا ولكن لم يهتم الفرنسيون جديًا إلا بها بعد سنوات عديدة.

وفى مدغشقر لم يكن لفرنسا مصالح تجارية فى شرق إفريقيا تدافع عنها، ولم تكن تطالب بأراضى فى الضفة الشرقية الإفريقية، ولم تكن لديها منشآت أو وجود كما كان لإنجلترا، باختصار لم يكن هناك سبب يدعو لنفوذ فرنسى فى شرق إفريقيا، ولكن بما أن القسمة هى لعبة تشترك فيها القوى العظمى وفرنسا تشكل جزءًا من تلك القوى فإنها شاركت فى تلك اللعبة.

وبإسم الحق التاريخى طمحت فرنسا فى الحصول على جزيرة مدغشقر، فقد كان لويس الثالث قد وضع يده على الجزيرة فى القرن السابع عشر ثم تنازل عنها. وفى القرن التاسع عشر كانت مدغشقر جزيرة مستقلة تسمى الجزيرة الكبرى حيث كانت مساحتها تساوى مساحة فرنسا وبلجيكا مجتمعين، كما كانت فرنسا سبق أن وضعت يدها على بعض الجزر الصغيرة المنتشرة قبالة السواحل المدغشقرية.

عندما طالبت فرنسا أن تكون مدغشقر محمية لها رفضت حكومة مدغشقر الرضوخ لمطالبها، وكان فى الجزيرة مملكة تعد من إحدى الممالك الكبرى التى كانت موجودة فى تلك الحقبة التاريخية التى تم فيها اقتسام إفريقيا. وانتهزت فرنسا مقتل أربعة من رعاياها فى الجزيرة فتحرك الأسطول الفرنسى فى مياه مدغشقر الإقليمية وأخذ يقصف سواحلها، وحل النزاع

بتوقيع معاهدة تاما تاق ١٨٨٥. وكانت هذه المعاهدة مثيرة للاستغراب لأنها نصت على أن فرنسا تعترف بسيادة الملكة رانا فالونا الثالثة على الجزيرة بأكملها فى حين أنها لم تكن تملك أصلًا هذه الصلاحية. وبالإضافة إلى ذلك فإن مدغشقر وفقًا لهذه المعاهدة عهدت إلى مقيم فرنسى لإدارة علاقاتها الخارجية وبهذا تكون قد قبلت الحماية.

أثارت هذه المعاهدة جدلًا ولكن بعد خمس سنوات اعترفت بها بريطانيا وألمانيا وتم توقيع معاهدة غدت بها مدغشقر محمية فرنسية مقابل اعتراف فرنسا بحماية بريطانيا على إفريقيا الشرقية البريطانية (كينيا) وألمانيا على إفريقيا الشرقية الألمانية (تنجانيقا).

وعلى الساحل الشرقى الإفريقى أيضًا حصلت فرنسا على الصومال الفرنسى (جيبوتى) عندما ابتاعت الحكومة الفرنسية ميناء أوبوك من مشايخها عام ١٨٨٣.

الخلاصة أن فرنسا دخلت السودان الغربى عبر سياسة غزو منهجية وحرب قائمة بشكل مختلف عما كان يتخلله مشروع تقسيم إفريقيا؛ ذلك أن التوسع الفرنسى فى هذا الجزء كان قائمًا على سياسة غزو واضحة، كان الهدف الأساسى تحويل السنغال إلى مستعمرة إلا أن مشروعًا أكثر توسعًا حل محل المشروع الأول بهدف إنشاء إمبراطورية فرنسية كبرى فى غرب السودان تمتد من السنغال إلى بحيرة تشاد لتربط المناطق الفرنسية الثلاثة فى إفريقيا وهى الجزائر فى الشمال والكونغو الفرنسى (كونغو برازا ڤيل) فى إفريقيا الوسطى وإفريقيا الغربية الفرنسية (السنغال) هذه الاستراتيجية بدأت تفرض نفسها فى أوساط المستعمرين الفرنسيين، وأعطت دفعًا لسياسة الغزو التى اعتمدتها فرنسا فى السودان، كانت سياسة التوسع فى السودان سياسة موجهة ومخطط لها من قبل الدولة الفرنسية، فلم يكن العلم الفرنسى يتبع التجارة كما كان سائدًا بل العكس تمامًا كانت فرنسا تتصرف فى إفريقيا كدولة دخلت بالقوة الأراضى الإفريقية على أمل أن تتبع التجارة لها.

أما العنصر الثانى للاستعمار الفرنسى فهو اللجوء المنهجى إلى الوسائل الحربية، كان التوسع فى أماكن أخرى يتم بعقد اتفاقيات يقبل بموجبها الزعماء الأفارقة حماية القوى الأوروبية ويتنازلون لها عن سيادتهم. وبما أن الفرنسيين كانوا رجال حرب شرسين فلم يلجأوا إلى الطرق الدبلوماسية واستعملوا القوة المباشرة، ولم تربح فرنسا تلك الحروب بسهولة ليس فقط بسبب مقاومة الأهالى الوطنيين بل بسبب طبيعة الأرض غير الممهدة والمناخ القاتل الذى يسود المنطقة. كما كان السودان الغربى ساحة لتمرين الضباط والكثيرون منهم بنوا مستقبلهم

المهنى فى تلك المنطقة، فالعديد من المارشالات والجنرالات الفرنسيين المعروفين بدأوا حياتهم العسكرية فى الاشتراك فى حروب الممالك الإفريقية فى إفريقيا الغربية[1].

كان الفرنسيون يريدون بناء إمبراطورية من خلال غزوات عسكرية؛ فى حين كان الإنجليز يطبقون سياسة فرق تسد من خلال التجارة؛ لذلك حصلت فرنسا على الجزء الأكبر من الأراضى وسيطرت بريطانيا على المنطقة الأثرى اقتصاديًا.

٣ـ الاستعمار البريطانى

من المعروف أن القارة الإفريقية شهدت فى الفترة ما بين ١٨١٥ـ١٨٨٠ نوعًا من الثبات النسبى فيما يتعلق بغزو القارة، فإذا أغفلنا طرفيها الشمالى والجنوبى نجد أن هذا الثبات يرجع إلى ثلاثة عناصر رئيسيةهى: ١ـ تقلد بريطانيا الزعامة البحرية فى تلك الفترة ٢ـ عدم اهتمام الدول الأوروبية باستثناء فرنسا وبريطانيا بالقارة ٣ـ وجود صيغة مقبولة للتعايش الإنجليزى الفرنسى دامت على مدى الفترة من ١٨٤٥ إلى ١٨٧٥، ولكن بحلول ١٨٨٥ كانت عناصر التوازن الثلاثة قد انهارت، فالزعامة البريطانية بدأت تأخذ فى التدهور الأمر الذى شجع فرنسا على التخلى عن صيغة التعايش وبدأت بالمبادرة بسياسة التنافس فى غرب إفريقيا، وحمل الجنود والمستكشفون الفرنسيون العلم الفرنسى إلى غرب القارة، وقبل حلول عام ١٨٩٣ أصبحت المنطقة الغنية بالغابات بين ليبيريا وساحل الذهب (غانا) تسمى جمهورية ساحل العاج الفرنسى، وأصبحت داهومى عام ١٨٩٢ تحت السيطرة الفرنسية.

هذا بينما كانت بريطانيا تكتفى بسياسة التفوق فى النفوذ مهربًا من التورط فى نزاعات داخلية محلية، فلم تكن لبريطانيا أيه ممتلكات فى منطقة النيجر، ومع ذلك كانت مصالحها مصونة بتفوقها البحرى؛ على أنه لم يكد يحل عام ١٨٨٢ حتى كان هذا العنصر من عناصر التوازن قد اعتراه الخلل وأصبح مجموع سفن الأسطولين الفرنسى والألمانى يضارع مالدى بريطانيا.

وكان من المفترض أن يبدأ تقسيم إفريقيا من إفريقيا الغربية وهى المنطقة التى أقامت معها أوروبا علاقات طويلة الأمد أكثر من غيرها من بقاع إفريقيا. ولكن لم يبدأ الجدال الدولى حول إفريقيا الغربية إلا سنة ١٨٨٤ إثر مؤتمر برلين، واستحوذت فرنسا وإنجلترا وحدهما

---

(١) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ص٣١٣ ـ ٣١٥.

على المنطقة، وتم التوسع الفرنسي من الغرب إلى الشرق وتمحور حول السيطرة على النيجر العلوى، أما التوسع البريطانى فامتد من الجنوب باتجاه الشمال وتركز على النيجر السفلى. وركزت بريطانيا بسبب طبيعتها البحرية وخبرتها الاستعمارية على أن تختار منطق نفوذها فى مخارج الأنهار الكبرى (مصب النيجر فى نيجيريا ونهر الفولتا فى غانا وجامبيا). وتحت ستار محاربة الرق استطاع البريطانيون التوغل فى الأنهار الافريقية وعقدوا المعاهدات مع الزعماء والرؤساء المحليين وفرضوا حمايتهم وتدخلوا فى الاقطار الإفريقية بحجة ضمان تنفيذ قوانين إلغاء الرق والنخاسة[١].

لذلك بينما كانت فرنسا تنشئ إمبراطورية السودان الغربى كانت إنجلترا تركز دعائم مستعمراتها الأكثر أهمية فى غرب إفريقيا وهى نيجيريا، وكانت نقطة البداية من الساحل فى الدلتا الهائلة التى تتشكل من نهر النيجر وروافده، وبرغم وعورة أرضها فقد أصبحت هذه المنطقة أكبر مركز تجارى فى إفريقيا الغربية منذ عام ١٨٣٠ بفضل تجارة زيت النخيل، فدواخل البلاد كانت غنية بالزيت وسمحت مجارى المياه بالوصول إليه بسهولة مما حدا بإنجلترا أن تطلق على هذه المنطقة تسمية «أنهار الزيت». وكانت منطقة أنهار الزيت إحدى مراكز النشاط التجارى التى استخدمتها بريطانيا، أما المركز الآخر فهو مملكة لاجوس الواقعة إلى الغرب، وكانت هذه المملكة مهمة للبريطانيين لسببين: **الأول** ممارسة تجارة العبيد **والثانى** أرباح زيت النخيل، وقد لعب الأفارقة دورًا مهمًا فى تجارة زيت النخيل ولم يسمحوا للأوروبيين بإقامة علاقات تجارية مباشرة فى دواخل البلاد؛ لذلك كان الأوروبيون يقيمون علاقاتهم مع منتجى الزيت عبر وسطاء أفارقة يحتكرون دور الوسيط فى النظام التجارى، وإلى جانب منطقة أنهار الزيت أقنع البريطانيون ملك لاجوس بالتخلى عن مملكته مقابل راتب سنوى، فاحتلت بريطانيا لاجوس ووقعت معاهدة حماية معها، وأصبحت لاجوس من الممتلكات البريطانية عام ١٨٦١.

احتدم التنافس بين فرنسا وبريطانيا، واتبعت بريطانيا سياسة الشطرنج أى أن تقيم مؤسسة بريطانية إلى جانب كل مؤسسة فرنسية. وكادت الأمور تؤذن بحرب، ولكن ما من أحد كان يرغب فى دخول حرب من أجل «صحراء إفريقية تتفشى فيها الملاريا» حسب تصوره، وبالتالى

(١) تجارة العبيد فى إفريقيا ـ عايدة العزب موسى ـ مكتبه الشروق الدولية ص١٩٠.

تماسك المعسكران ووضعت فرنسا وإنجلترا حدًّا لعشرين سنة من التنافس بينهما فى الغرب الإفريقى[(١)].

كانت اتفاقية التسوية هذه قد عقدت فى ١٠ أغسطس ١٨٨٩ وهى التى حددت الحدود بين الممتلكات الفرنسية والبريطانية فى غرب إفريقيا حيث تناولت المادة الأولى تحديد حدود جامبيا والسنغال، ،والمادة الثانية خاصة بتحديد حدود مستعمرة سيراليون البريطانية وغينيا الفرنسية، والمادة الثالثة خاصة بساحل الذهب البريطانية ومستعمرة ساحل العاج الفرنسية، والمادة الرابعة خاصة بساحل العبيد وتحديد الحدود مع مستعمرة لاجوس البريطانية وداهومى، والمادة الخامسة تكونت بمقتضاها لجان بحث تحديد الحدود بين ممتلكات الدولتين. ولكن ليس معنى هذا أن اتفاق ١٠ أغسطس ١٨٨٩ كان هو الأخير لتحديد الحدود بين الدولتين فقد تبعه عقد عدة اتفاقيات أخرى اتخذت من الأنهار والبحيرات نقاطًا لتحديد الحدود[(٢)].

تجسد جوهر تقسيم إفريقيا الغربية فى المعاهدة الفرنسية البريطانية عام ١٨٩٨ ولم يبق أمام إنجلترا سوى عملية تنظيم نيجيريا فألحقت محمية ساحل النيجر (دلتا النيجر) بالنيجر الأدنى وأعيد تسميته بمحمية نيجيريا الجنوبية، ومنها ظهر أسم نيجيريا ووضع شمال نيجريا تحت سيطرة بريطانيا بعد أن ترجم نظام الحماية البريطانية على أرض الواقع وضمت لاجوس لجنوب نيجيريا، وبذلك أصبحت نيجيريا تتألف من ثلاثة أجزاء.

ما كادت نيجيريا تستقر حتى ظهرت أزمة النيجر، كانت الحكومة البريطانية مترددة فى موقفها تجاه النيجر، فقد كانت تخشى التبعات المالية والسياسية؛ فى حين كان التجار البريطانيون يمارسون ضغوطًا لكى تنحل قوة الوسطاء الأفارقة بفعل تدخل عسكرى، وفى عام ١٨٨١ أسست الشركة الإفريقية البريطانية التى سيطرت على النيجر السفلى وأصبح به عشرون قاعدة عسكرية متمركزة فى نهر النيجر، وفى عام ١٨٨٣ وقعت معاهدات وصاية مع رؤساء القبائل بلغت ثلاثًا وسبعين معاهدة. ولكن الادارة البريطانية تباطأت فى أن تأخذ الأمر بشكل جاد، وفى تلك الفترة ظهرت ألمانيا وأمر بسمارك قنصله بالذهاب إلى ساحل إفريقيا الغربى وإبرام معاهدات فى توجولاند ثم اجتاز نهر الكاميرون وعقدت ألمانيا معاهدة وصاية معها؛ لذلك صُدم الإنجليز عندما علموا أن الألمان سبقوهم.

أجج سباق المعاهدات بين الإنجليز والألمان الحزازات بين الفريقين، ولكن لم تكن القضية

(١) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ص٣٥٥.

(٢) بحوث ودراسات ووثائق فى تاريخ إفريقيا الحديث ـ المرجع السابق ص١٧٢.

تستوجب حربًا، فاتفق الطرفان فى برلين ١٨٨٤ على أن تنال ألمانيا الكمرون وبريطانيا النيجر، وأعلنت الحكومة البريطانية وصايتها على النيجر. ووفقًا لقواعد مؤتمر برلين لم تكن الوصاية تكفى فالمهم هو الاحتلال الفعلى داخل البلاد، فوجدت بريطانيا نفسها منخرطة فى مسألة النيجر فى مواجهة الأطماع الفرنسية المستميتة حوله. وتعقدت الأمور أكثر عندما عقدت بريطانيا مع ألمانيا معاهدة «زنجبار ـ هيلفولند» فاحتج الفرنسيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنهم يملكون حقوقًا فى زنجبار، وأدت هذه الاحتجاجات إلى مفاوضات إنجليزية فرنسية انتهت عام ١٨٩٠ باتفاق فرنسى بريطانى اعترفت فيه فرنسا بالوصاية البريطانية على زنجبار وبالمقابل اعترفت إنجلترا لفرنسا بالوصاية على مدغشقر.

أزمة فاشودة:

على أن أهم ازمة قامت بين الدولتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا وكادت تعصف بالوفاق البادى على السطح هى أزمة فاشودة.استمدت العداوة الانجليزية الفرنسية أصولها من احتلال إنجلترا لمصر ١٨٨٢ وبلغت هذه الخصومة أوجها، وأوشكت على اندلاع الحرب فى فاشودة. وفاشودة منطقة بسيطة تقع على الضفة العلوية للنيل الأبيض تأسست عام ١٨٥٥ كمحطة مصرية لمراقبة مكافحة تجارة العبيد.

وخططت السياسة الانجليزية أن تستأثر بمصر ثم النيل والسودان ورفضت فرنسا هذا المخطط وأرادت إجبار الانجليز على إعادة طرح القضية المصرية على بساط البحث، فعملت على ممارسة ضغوط عسكرية بالاستيلاء على موقع متقدم على النيل وزحفت باتجاه النيل إلى فاشودة.

فى عام ١٨٨٩ أعلنت إنجلترا أنها تنوى البقاء فى مصر وبالتالى عليها أن تسيطر على النيل، وبذلك تحولت مسألة السيطرة على وادى النيل هى هدف أساسى من أهداف السياسة الإنجليزية، ورفض الفرنسيون رفضًا باتًا الاعتراف باحتلال إنجلترا لمصر والاحتكار البريطانى لحوض النيل، فمنذ وضع نابليون بونابرت قدميه فى مصر أصبحت مصر بمثابة الأرض الموعودة للفرنسيين، ثم ظهرت أطماع طرف ثالث هو ليوبولد ملك بلجيكا فبعد أن اعترف له بدولة الكونغو المستقلة طمع أن يؤسس إمبراطورية تربط الكونغو بالبحر الأبيض من خلال النيل ، وأعد حملة بنية التوجه نحو النيل إلا أن بريطانيا رفضت أى تجاوزات لخط تقسيم المياه بين الكونغو والنيل ، فاتجه ليوبولد إلى فرنسا لإستدراجها للوقوف إلى جانبه

لتحقيق ما يرغب، إلا أن فرنسا استغلت فكرة ليوبولد لتحقيق أهدافها هى وجهزت حملة تتجه إلى النيل العلوى.

اعتبرت إنجلترا هذا التحرك عملًا عدائيًا للسيطرة على منطقة كانت تصفها بأنها بلد «المستنقعات والحمى»، ولكن هذه المنطقة اكتسبت أهمية خاصة بعد أن دخلت السودان فى دائرة النفوذ البريطانى؛ إذ كانت بريطانيا تحلم بإنشاء سكة حديد تصل بين الكاب والقاهرة فتحكم السيطرة على القارة بالطول والعرض[1]، وكادت أزمة فاشودة أن تؤدى بالدولتين إلى مواجهة عسكرية، ولكن لما كانت سياسة التقاسم فى إفريقيا تقوم على أساس« التبادل والتعويض» فقد قبلت فرنسا الانسحاب من فاشودة وقبلت تمركز بريطانيا فى مصر شرط أن تطلق يد فرنسا فى المغرب، وهكذا أدت فاشودة إلى إعادة التفاهم الودى والتقاسم الاستعمارى[2].

وبالنسبة لشرق إفريقيا كان الأمر مختلفًا، كان الساحل معرضًا للغزاة الأجانب وفى طليعتهم البرتغاليون والهولنديون والإنجليز والألمان، وقد اتخذت بريطانيا من محاربة الرق بتفتيش سفن الدول الأخرى ذريعة لتوطيد نفوذها فى هذا الجزء من إفريقيا فقد كانت قد عقدت العزم أن تستأثر به.

كان شرق إفريقيا جزءًا من منطقة النفوذ التابعة لسلطان جزيرة زنجبار منذ أن قدم من مسقط وعمل على إنماء دولته بتشجيع قدوم التجار الأجانب إليها سواء كانوا من الهنود أو الأوروبيين، ولكن التجار العرب الذين يعيشون على هذه السواحل منذ القدم كانوا عصب هذه التجارة، وقد استطاع السلطان أن يمد نفوذه إلى المنطقة الخلفية للساحل حتى البحيرات الكبرى وترك شعوبها فى الداخل يقررون مصيرهم بأنفسهم.

كان النفوذ البريطانى فى دوائر السلطان قويًا إلى حد أن كانت بريطانيا تستطيع أن تحكم كل بلاد السلطان إذا أرادت فقد كان نفوذها سابقًا لكل ما عداه وإن لم يعلن ضم رسمى أو حماية لأى جزء من أملاك السلطان. ولما مات السلطان سعيد اشتد التنافس البريطانى الفرنسى فتخلت بريطانيا عن حليفها سلطان زنجبار الوريث ونشأ حكم ثنائى إنجليزى فرنسى انتهى باتفاق تم بينهما بأن تستحوذ بريطانيا على جزيرة زنجبار الصغيرة مقابل أن تحتل فرنسا جزيرة مدغشقر الكبيرة[3].

---

(١) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ص٣٧١.
(٢) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ص٤١٥.
(٣) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ص٢٣٠.

وعلى أراضى الساحل كانت إنجلترا قد حصلت من سلطان زنجبار على حق السماح لشركة شرق إفريقيا البريطانية بالعمل فى كل أراضى السلطان، وعلى المنطقة التى تمتد وراءها فى منطقة البحيرات وأن يكون لها حق المندوبين لحكم المديريات باسمه وأن تعقد المعاهدات مع الزعماء والمشايخ لقاء جُعل من الأرباح التجارية تدفعه الشركة للسلطان.

وعندما اشتد الصراع البريطانى الألمانى الفرنسى حول هذه الممتلكات لجأت الدول الثلاث إلى تأليف لجنة حتى لا يتطور التنافس إلى نزاع مسلح، وانتهت اللجنة إلى أن سلطة السلطان تمتد إلى عشرة أميال فقط من الساحل وما وراء ذلك فهى سلطة اسمية ومن ثم تملك هذه الدول الأوروبية حرية العمل فيها، ولما كانت فرنسا قد ارتضت بجزيرة مدغشقر فقد اتفقت الدولتان الإنجليزية والألمانية على اقتسام هذه الأجزاء بموجب اتفاقية وقعت بينهما عام ١٨٨٦ ورسم خط وهمى يمتد من الساحل إلى بحيرة فكتوريا فاستولت بريطانيا على أراضى شمال الخط وألمانيا على جنوبه، وهكذا خلقت مستعمرة إفريقيا الشرقية البريطانية (كينيا) ومستعمرة إفريقيا الشرقية الألمانية تنجانيقا (تانزانيا) ولم تشمل الاتفاقية منطقة أوغندا، ولكن فى عام ١٨٩٠ وقعت اتفاقية جديدة بين إنجلترا وألمانيا جعلت أوغندا من نصيب إنجلترا مقابل أن يمتد نفوذ ألمانيا إلى وسط القارة.

وهكذا أصبحت إنجلترا تتحكم فى مصبات أنهار غرب إفريقيا وهى النيجر والفولتا وجامبيا إلى جانب تحكمها فى مناطق الثروات المعدنية والزراعية (الماس فى سيراليون) والنحاس والفحم فى روديسيا الشمالية (زامبيا) وروديسيا الجنوبية (زيمبابوى) وغيره من المعادن فى جنوب إفريقيا، والمحاصيل الزراعية فى شرق القارة فى تنجانيقا وزنجبار وكينيا وأوغندا، وأحيت أحلام بريطانيا فى إقامة خط طريق الكاب/ القاهرة عبر سلسلة من المستعمرات من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ضمن العوامل التى حكمت وجودها فى كل منطقة للجنوب والشرق وامتدادًا إلى السودان ومصر شمالا[١].

٤ـ الاستعمار البلجيكى

كانت لدى ليوبولد الثانى ملك بلجيكا أطماع ذاتية استعمارية فى وقت كان يرأس أصغر دولة أوروبية ليست قادرة على احتلال مستعمرات بتاتًا. فبدأ بصفته الشخصية بالدعوة إلى

(١) دليل الدول الإفريقية (الجمعية الإفريقية) ص٢٠.

عقد مؤتمر فى بروكسل ١٨٧٦ من أجل القيام بعمل مشترك لكشف القارة. وأسفر المؤتمر عن إنشاء ما سُمى « باالهيئة الدولية الإفريقية» اتخذت مقرها فى بروكسل، وفى العام التالى دعا ليوبولد إلى عقد مؤتمر آخر فى بروكسل أيضًا تمخض عن إنشاء هيئة جديدة أطلقت على نفسها«هيئة دراسة الكونغو الأعلى» هدفها فتح هذا الجزء من إفريقيا، وكانت هذه الهيئة نقطة تحول فى سياسة ليوبولد. كان برنامجها أكثر وضوحًا محدد الأهداف ينحصر عملها فى الاتصال بأهالى الكونغو وعقد اتفاقيات معهم من أجل الحصول على امتيازات، وأوفد ليوبولد الرحالة ستانلى إلى الزعماء الوطنيين فى المنطقة ونجح فى الحصول على أكثر من ٤٠٠ معاهدة وافق فيها أكثر من ألفين من الزعماء أن تخضع أراضيهم لسيادة هذه الهيئة، وكان هذا العمل إعلانًا بقيام دولة الكونغو الحرة التى بادرت الولايات المتحدة إلى الاعتراف بها فى إبريل ١٨٨٤ مقابل أن يترك باب الكونغو مفتوحًا للبضائع الأمريكية. اعترضت على ذلك كل من البرتغال وفرنسا وألمانيا وبدا النزاع على مسألة الكونغو لن يحل إلا عن طريق مؤتمر دولى دعت إلية ألمانيا يعقد فى برلين فكان مؤتمر برلين الشهير الذى أعلن قيام دولة الكونغو الحرة، وأصبح الملك ليوبولد رئيسًا لهذه الدولة بصفته الشخصية وبات رئيس أصغر الدول الأوروبية رئيسًا لألكبر وأغنى مستعمرات إفريقيا[1].

ولّدت قيام دولة الكونغو الحرة أطماع الملك ليوبولد إلى مزيد من الاختطاف الاستعمارى لأراضى القارة، وتمثلت هذه المطامع فى السعى ليكون له موطئ قدم عند منابع النيل ليمكنه تصريف منتجات الكونغو عن طريق نهر النيل بدلًا من المحيط الأطلسى. لذلك دخل فى مناوررة سياسية مثيرة مع العملاقين الاستعماريين بريطانيا وفرنسا، وحارب الثورة المهدية فى السودان استرضاء لبريطانيا نظير حصوله على منطقة من بحر الغزال وجيب لادو على النيل الاعلى[2]. لم يقم البلجيكيون بأى احتلال فعلى فى هذه المنطقة ولكنهم بادروا باحتلال لادو ١٨٩٨ عقب واقعة فاشودة فأذن لهم الانجليز بالبقاء بشرط ألا يعتدوا على بحر الغزال، وبذلك جعلتهم بريطانيا بمثابة حارس مؤقت على باب بحر الغزال ، ثم أوقفت توغلهم فى أعالى النيل بعد أن استتب بها الأمر بعد استرداد السودان وخاصة بعد اتفاق التسوية النهائى مع فرنسا ١٨٩٩ الذى حدد مناطق النفوذ بين بريطانيا وفرنسا فى وسط القارة[3]. وفشلت أحلام البلجيك فى التوسع فى القارة.

---

(١) الاستعمار الأوروبى لإفريقيا ـ المرجع السابق ص١١٥.
(٢) الموسوعة الإفريقية ص٣٣٨.
(٣) الموسوعة الإفريقية ص٣٥٥.

٥- الاستعمار الألماني

جرى تقسيم إفريقيا الشرقية فى جو من التفاهم، لم تكن فرنسا ولا البرتغال تلعب دورًا فيه إذ كان التنافس يجرى بين انجلترا وألمانيا.

فى إفريقيا الشرقية حصل الإنجليز على ما كانوا يطمعون فيه، وكان الساحل الإفريقى الشرقى قد اكتسب بعض أهميته بلانجليز نظرًا لنفوذهم فى المحيط الهندى، وبالنسبة لألمانيا كان التقسيم الذى تم بينهم وبين الإنجليز مصدر ارتياح لهم إذ أصبحت إفريقيا الشرقية الألمانية إحدى أكبر وأهم المستعمرات التى كانت تمتلكها ألمانيا[1].

والمقصود بإفريقيا الشرقية المنطقة الممتدة من الصومال شمالًا إلى موزمبيق جنوبًا. كانت هذه المنطقة قبل الاستعمار جزءًا من منطقة النفوذ التابعة لزنجبار وهى تتكون حاليًا من كينيا وتانزانيا ورواندا وبورندى.

فى القرن الذى نتحدث عنه كان هناك فاصل شبه كلى بين الساحل والداخل، فالشعوب فى الداخل كانوا يقررون مصيرهم، أما الساحل فكان معرضًا للغزاة الأجانب وفى طليعتهم البرتغال ثم الإنجليز والألمان. وفى الواقع كان الساحل ينتمى إلى المحيط الهندى أكثر مما ينتمى إلى القارة الإفريقية، والتأثير العربى فيه كبير يعود إلى الماضى السحيق.

كانت منطقة إفريقيا الشرقية حتى منتصف القرن التاسع عشر تخضع لإمارة زنجبار التى كانت تشمل جزيرة زنجبار الحالية وشريطًا من الساحل الإفريقى يمتدْ إلىْ عمق عشرة أميال. وضع السلطان سعيد يده على زنجبار التى كانت تتمتع بمرفأ جيد وموقع ممتاز لحركة التجارة، فقد كان سعيد ملكًا وتاجرًا بكل ما للكلمة من معنى، شجع على زراعة القرنفل واحتكر من خلالها الأسواق العالمية وأصدر عملة لها وأعاد تنظيم الجمارك وعقد معاهدات تجارية مع أمريكا والدول الاوروبية وأقام الأسواق التجارية مما جعلها منطقة تجارية ومركزًا لسوق العبيد والعاج، وامتدت سلطته إلى كل الساحل الشرقى حتى منطقته البحيرات. أما الوجه السياسى لسلطة سعيد فكان شأنًا آخر، فقد كانت المدن الساحلية تخضع لحكام يمثلون سعيد رسميًا ولكنهم كانوا فى الواقع مستقلين. وكانت الطرق التجارية الممتدة فى الداخل مكتظة بمنشآت عربية تعترف بسلطة سعيد.

بعد موت سعيد تولى ابنه برغش حكم زنجبار الذى تعاون مع إنجلترا لتضمن له المنطقة

---

(١) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص٢٨٦.

بأكملها حتى البحيرات الكبرى. لم يكن برغش هو الوحيد الذى يطالب بالحصول على المنطقة بأكملها، كان التدخل الأوروبى فى هذه المنطقة تتجاذبه إنجلترا وفرنسا ثم ظهرت ألمانيا على الساحل.

ظهرت نزعة امتلاك مستعمرات ألمانية فيما وراء البحار بعد أن تمت الوحدة الألمانية عام ١٨٧١ وبعد هزيمة فرنسا فى حرب السبعين، وتأيدت هذه النزعة رغم أنه لم تكن لدى المستشار الألمانى بسمارك اتجاهات استعمارية، وزكّى النزعة الاستعمارية المستكشفون الألمان الذين ساهموا بمجهود ضخم فى اكتشافات إفريقيا. وعلى سبيل المثال لا الحصر فردريك هورنمان الذى عبر الصحراء الكبرى من طرابلس إلى النيجر، وهنريش الذى طوّف بالسودان الغربى (وكلاهما كانا فى خدمة بريطانيا) وجورج شفاينفورت وجوستاف نافتيجال اللذان طوفّا منفردين السودان الأوسط، وكارل فون دردكين فى شرق إفريقيا وإدوارمور وكارل ماوش فى حوض الزمبيزى[١].

وزاد من إلحاح أنصار الاستعمار نحو الانتاج الصناعى فى ألمانيا وما حظيت به صناعة السفن من تطور كبير، فلو ظل الألمان بدون مستعمرات لتعرضت مصنوعاتهم للرسوم الجمركيه المرتفعة التى تفرضها الدول على المصنوعات الأجنبية من أجل حماية صناعتها ومن ثمّ اتجه التفكير إلى المستعمرات لحل أزمة إيجاد أسواق للمصنوعات الألمانية وحل لأزمة الأسطول الألمانى الذى لا يجد ما يحمله. وكان بسمارك فى أول الأمر معارضًا لهذه النزعة ويرى فى المستعمرات عبئًا لا تتحمله طاقة الشعب الألمانى، ولكنه لم يلبث أن اتجه إلى الناحية الأخرى. وفى عام ١٨٨٣ وجه بسمارك إلى جمعيات التجار رجاء التقدم بمقترحاتهم بالحلول المقترحة من أجل صالح التجارة الألمانية وأصدر عام ١٨٨٤ كتابًا أبيض عن سوء معاملة القناصل البريطانيين للتجارة الألمانية فيما نشط أنصار الاستعمار فى تأسيس جمعية المستعمرات الألمانية برئاسة كارل بيتزر للعمل فى شرق إفريقيا، فقام بعقد معاهدات مع المشايخ والسلاطين من أجل الحصول على حق استغلال هذه الأجزاء ووضع بلادهم تحت الحماية الألمانية.

والحقيقة أن ألمانيا لم تكن غائبة كليًا عن إفريقيا الشرقية، كان فيها وفى زنجبار بالذات تجار ألمان، وفى سنوات ١٨٧٠ كانوا يسيطرون على أكثر من نصف صادرات زنجبار أى أكثر مرتين من صادرات إنجلترا. أما المشروع الأول لغزو أراضى إفريقيا الشرقية لصالح ألمانيا فقد أنشأته جمعية المستعمرات الألمانية التى ولدت فى برلين عام ١٨٨٤ قبل مؤتمر برلين بأشهر معدودة.

---

(١) الاستعمار الأوروبى لإفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص٢٧١.

كان كارل بيترز الذى اضطلع بإدارة الجمعية أهم الشخصيات فى تاريخ الإمبريالية فى إفريقيا، حاول أن يقنع الخارجية الألمانية والمستشار الألمانى بمواهبه الاستعمارية ولكن دون جدوى فقرر أن يغامر وحده عن طريق الجمعية، كان هدفه من قوله «الحصول على إمبراطورية له شخصيًا» فذهب إلى منطقة فى مواجهة زنجبار هو وثلاثة من معاونيه رغم أن القنصل الألمانى فى الجزيرة أبلغهم أن حكومة الرايخ(حكومة ألمانيا) لا تمنحهم أى شكل من الحماية، وكتب بيترز عن رحلته واستطاع أن يوقع إحدى عشرة اتفاقية مع زعماء القبائل. وبالطبع كانت معاهدات وهمية تتم فى حفلات مع القبائل الإفريقية يحصل بعدها بيترز على خربشة من أحدهم على ورقة معدة لهذا الغرض. وتجول بيترز حسب قوله فى كل إفريقيا الشرقية ثم عاد إلى برلين حيث كان مؤتمر برلين منعقدًا ووضع وثائق لدى وزارة الخارجية الألمانية موضحًا أن هذه الأراضى يمكن أن تشكل نواة «هند ألمانية» فى إفريقيا[١].

وبالطبع لم يكن من المعقول أن يفاجىء الألمان المؤتمرين فى اللحظة الأخيرة بمطالبهم فى هذه الأراضى، فانتظروا إلى انتهاء المؤتمر وطلبت وزارة الخارجية الألمانية أن توضع كل هذه الأراضى تحت الوصاية الألمانية، ونظمت البحرية الألمانية عرضًا أمام ساحل زنجبار لإجبار سلطانها على التخلى عن مطالبه فى الأراضى التى حصل عليها بيترز والقبول بالوصاية الألمانية.

احتج سلطان زنجبار على هذه الحماية الألمانية فتألفت لجنة ألمانية إنجليزية فرنسية من أجل دراسة مدى ما يدعيه سلطان زنجبار من سلطة على الأراضى الداخلية وهى تنجانيقا (تنزانيا) وكينيا وجنوب الصومال. وبعد القيام بالتحريات قدمت اللجنة مذكرة إلى الحكومات الثلاث ذكرت فيها أن السلطان ليس له حقوق مشروعة إلا على جزر زنجبار وبمبا وارخبيل ولامو وشريط ساحلى لا يبلغ عمقه أكثر من عشرة أميال، واعتبرت الدول الثلاث ما جاء فى المذكرة أساسًا لنشاطها.

كان بسمارك يعلم أن مفتاح إفريقيا الشرقية هو زنجبار التى تقع فى حوزة بريطانيا؛ فى حين كانت الآراء فى بريطانيا منقسمة حول هذه الأراضى فلم يكن رئيس الوزراء البريطانى يهتم بهذه المنطقة وكان يطلق عليها« البلاد الجبلية الواقعة خلف زنجبار ذات الاسم الذى يصعب تذكره»، إلا أن بعض المسئولين السياسيين البريطانيين كانوا يخططون لاستراتيجية جديدة فى

---

(١) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص٢٣٩.

إفريقيا ، وقد صيغت هذه الاستراتيجية للمرة الأولى فى مذكرة المكتب الخارجى فى الخارجية البريطانية وظهرت فى ديسمبر ١٨٨٤ تقول الوثيقة«نظرًا للسباق الذى بدأه الاوروبيون للسيطرة على أراضى الساحل الشرقى الإفريقى، وأخذًا فى الاعتبار أن المحيط الهندى الذى يحيط بالهند وأستراليا قد سبق أن احتلهما البريطانيون إذا أضفنا لهما الساحل الشرقى الإفريقى فيصبح المحيط الهندى بحرًا داخليًا إنجليزيًا ـ أو بحرًا متوسطًا بريطانيًا.

وفى ذلك الوقت كانت كل من بريطانيا وألمانيا تعملان لصد النفوذ الفرنسى، فأبرمتا اتفاقية على شكل تبادل ملاحظات بين ألمانيا وإنجلترا عام ١٨٨٦ كرست سيادة سلطان زنجبار على جزر زنجبار وبمبا ومافيا ولامو وكذلك منطقة الساحل المواجة لهما، أما المنطقة الخلفية فقسمت إلى منطقة نفوذ المانية فى الجنوب ومنطقة نفوذ انجليزية فى الشمال، وبهذا تحقق أول تقسيم إنجليزى ـ ألمانى لإفريقيا الشرقية.

تطورت الوقائع بشكل مختلف فى منطقة النفوذ البريطانى فى شرق إفريقيا، كانت الخارجية البريطانية تطمح فى المنطقة الواقعة شمال بحيرة فكتوريا وأوغندا تحديدًا استكمالًا لاستراتيجيتها بشأن النيل، ولكن كان الألمان قد سبقوهم إلى أوغندا حيث أقاموا فيها نظام الحماية بفضل جهود كارل بيترز الذى أعاد عرش الملك المحلى«موانجا» فكافأه بعقد معاهدة معه سميت «المعاهدة التمهيدية» فى فبراير ١٨٩٠، وبهذا استولت ألمانيا على أوغندا ولكن بريطانيا لم تقبل به وأعد سالسبورى رئيس وزرائها خطة للسيطرة على وادى النيل كله الذى يحتل المركز الأول لاهتمامات إنجلترا.

مثلت المعاهدة التى عقدها بيترز فى أوغندا بالإضافة إلى المطالب الألمانية التى تقوم على هذه المعاهدات تهديدًا للطموحات البريطانية، وكان لا بد من منع ألمانيا من الاستقرار فى أوغندا، وفى حال وجودها يجب طردها. لم يؤد ذلك إلى مواجهة بين بريطانيا وألمانيا، إذ نجح سالسبورى بشكل مؤثر وفعال فى تقسيم إفريقيا دون أن ينتج عن هذا التقسيم صراعات، فقد توصل مع ألمانيا أن تترك أوغندا نظير أن تعترف بريطانيا لألمانيا بحيازة تنجانيقا وروواندا وبوروندى.

* * *

وعلى الشاطئ الغربى الإفريقى كانت إفريقيا الجنوبية الغربية (ناميبيا) سببًا فى عداء بسمارك لإنجلترا نتيجة للسلوك الاستفزازى المتمثل فى رد الفعل غير الودى من جانب بريطانيا

لطلبه (المتواضع) للحصول على مجال نفوذ فى منطقة جنوب غرب إفريقيا. وحقيقة الأمر أن البريطانيين حاولوا منذ عام ١٨٨٣ استبعاد ألمانيا من مجال الاستعمار فى تلك المنطقة، وعندما طلب بسمارك مساندة بريطانيا للاستحواذ على منطقة جنوب غرب إفريقيا لاذت بريطانيا بالصمت. وكان تاجر ألمانى يدعى لودريز Lu deritz قد استقر فى المنطقة وتملك عن طريق المعاهدات مع الزعماء المحليين ما يقرب من ٢١٥ ميلًا ورفع العلم الألمانى عليها، فما كان من ألمانيا إلا إعلانها فى يناير ١٨٨٤ وضع هذه الاجزاء تحت الحماية الألمانية ووضعت بريطانيا تحت الأمر الواقع فرضخت بريطانيا واعترفت بها لألمانيا فى اغسطس ١٨٨٤.

وحدث مثل هذا فى توجو والكمرون ففى إبريل عام ١٨٨٤ اعلنت الخارجية الالمانية ان قنصلا المانيا سيزور غرب إفريقيا ليستعلم عن حالة التجارة الألمانية وليقوم بمفاوضات بشأن مسائل مختلفة، وعندما وصل رفع العلم الألمانى على مدينتى باجيدا ولومى وأعلن قيام محمية توجولاند، ثم اتجه إلى الكمرون وكان التجار الألمان نجحوا فى عقد مفاوضات مع الزعماء الذين رضوا أن يضعوا أنفسهم تحت الحماية الألمانية، فأعلنت ألمانيا حمايتها على المنطقة فى يوليو ١٨٨٤ بينما كانت فرنسا تحاول الزحف إلى الكمرون عن طريق الجابون، وكانت بريطانيا فى صراع محتدم مع فرنسا لذا تركت الأسبقية للألمان فى المنطقة نكاية فى فرنسا. فى ذلك الوقت كانت فرنسا تريد أن تفرض حمايتها على مراكش لقاء إطلاق يد ألمانيا فى الكمرون[١].

وهكذا يمكن تأريخ ولادة الإمبراطورية الاستعمارية الالمانية عشية نهاية مؤتمر برلين فتملكت ألمانيا جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) والتوجو والكمرون ورواندا وبورندى فى وسط القارة. (وقد فقدت المانيا كل هذه المستعمرات بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى، التوجو والكمرون ضمتا إلى فرنسا، ورواندا وبورندى ضمت إلى بلجيكا، وجنوب غرب إفريقيا ضمت إلى جنوب إفريقيا، وتنجانيقا كانت من نصيب بريطانيا).

٦ـ الاستعمار الإيطالى

كانت إيطاليا من أضعف الدول الأوروبية فى مستهل القرن التاسع عشر، وبالتالى كانت أقلها نصيبًا فى حيازة المستعمرات فى إفريقيا، كما أنها لم تكن لديها القوة العسكرية التى يخشى بأسها فكانت كل من بريطانيا وفرنسا تعامل إيطاليا فى إفريقيا بمثابة مخلب قط أو بالأصح أداة للمساواة فى عملية المطامع الاستعمارية. وظلت إيطاليا قانعة بما يفيض عن

(١) الاستعمار الاوروبى لإفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص٢٨٦.

حاجة الدول الكبرى. ولكن مع نجاح الوحدة الإيطالية خاصة بقوة السلاح أوجد ذلك لدى الشعب الإيطالى شعورًا بالعظمة والفخر بالسلف وبأنهم أحفاد وورثة الرومان الأقدمين والإمبراطورية الرومانية، وتطلع الإيطاليون شأنهم شأن الشعوب الأوروبية الأخرى التى اصابتها حمى الاستعمار إلى حيازة مستعمرات.

بدأت الحكومة الإيطالية تحركها الاستعمارى عام ١٨٨٢ بشراء منطقة خليج عصب بالقرب من خليج عدن، إذ كانت إيطاليا تطمح أن تجد مدخلًا للبحر المتوسط من خلال سيطرتها على البحر الأحمر، وكان فى مخيلة دعاة الاستعمار فيها السعى لإقامة إمبراطورية استعمارية تضم كلًا من إثيوبيا ومنابع النيل. ثم خطت نحو تحقيق حلمها عندما انتهى الحكم المصرى فى السودان واعتبر أرضًا خلاء. أقدمت إيطاليا تساندها بريطانيا لاحتلال مصوع ونجحت تدريجيًا فى وصل عصب بمصوع بشريط من الأرض الصحراوية يمتد بمحاذاة الساحل فأصبحت هذه الأجزاء تكون مستعمرة واحدة حملت اسم أريتريا[1].

ثم رنت ايطاليا ببصرها نحو أراضى الصومال، وكانت تحت سيادة سلطان زنجبار، ونجحت شركة إيطالية فى الحصول على عقد من السلطان باستئجار مناطق معينة على ساحل إفريقيا الشرقية. والواقع أن تنازل سلطان زنجبار لم يكن مباشرًا بل لصالح شركة إفريقيا البريطانية التى تنازل عنها للشركة الإيطالية، وكانت بريطانيا ذلك الوقت تحابى إيطاليا لتقف فى صفها فى التنافس الإنجليزى الفرنسى، فأيدت هذا التنازل بمحضر وقع عليه السلطان ١٨٩٢، ومن ثمّ كانت المساعدة البريطانية هى العامل الوحيد الذى مكن إيطاليا من الوجود فى المحيط الهندى[2] وساحل البحر الأحمر.

ثم رنت إيطاليا ببصرها نحو إثيوبيا، وبدأ التغلغل الإيطالى فى إثيوبيا عام ١٨٨٩ عندما أبرمت معاهدة أوتشالى Ucciali تضمنت منح إثيوبيا قرضًا من إيطاليا مقابل منح إيطاليا مدخلًا على البحر الأحمر عند ميناء مصوع. وطبقًا لتفسير المعاهدة المكتوبة باللغة الإيطالية تكون إثيوبيا تحت الحماية الإيطالية، ولكن الملك منليك إمبراطور الحبشة تنصل من المعاهدة ١٨٩٣ فكان الرد الإيطالى غزو إثيوبيا عام ١٨٩٦، ولكن الإثيوبيين هزموا الإيطاليين هزيمة ساحقة فى موقعة «عدوة»، وعقدت معاهدة صلح فى أديس أبابا حُددت فيها الحدود نهائيًا بين

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ص٦٤.

(٢) فى عام ١٩٠٨ تحددت الحدود النهائية بين الصومال الإيطالى والصومال الكينى البريطانى، وكذلك الصومال الفرنسى بسيطرة فرنسا على ميناء جيبوتى.

مستعمره أريتريا وولاية تيجرى فى إثيوبيا؛ علاوة على الفدية الكبيرة التى دفعتها إيطاليا من أجل إطلاق سراح المعتقلين، وبذلك أصيبت سياسة التوسع الإيطالى بضربة قاضية وطويت صفحة من صفحات الاستعمار الايطالى الحزين فى إفريقيا.

وعملت كل من بريطانيا وفرنسا على ملء هذا الفراغ فى إثيوبيا بتأييد الإمبراطور الإثيوبى الذى أصبح يشعر بحاجته إلى الحماية الأوروبية فاعترف بوجود مصالح بريطانية فى النيل الأزرق ، ومنح فرنسا عقد امتياز يتيح لها مد خط حديدى من الصومال الفرنسى (جيبوتى) إلى أديس أبابا. وهذه الترتيبات لم تأخذ شكلها الرسمى إلا فى عام ١٩٠٦ .

٧ـ الاستعمار البرتغالى

كان الاستعمار البرتغالى أقدم استعمار وطئ أرض إفريقيا، فالبرتغاليون هم أول الأوروبيين الذين نزلوا إلى إفريقيا مع قيامهم بالحركة الكشفية فى القرن الخامس عشر، وبعدهم توالت الدول على طول السواحل الإفريقية.

بدأت خطط البرتغاليين بالالتفاف حول سواحل إفريقيا من الساحل الشمالى الغربى نزولًا إلى كل الساحل الغربى، فأبحروا إلى سيراليون ثم ليبيريا إلى ساحل العاج إلى بنين. وأقام البرتغاليون مراكز تجارية فى مملكة بنين وعلى ساحل غانا ثم نزلوا جنوبًا إلى الكونغو حتى وصلوا إلى أنجولا، وأسسوا نقاطًا ساحلية مؤقتة سرعان ما تحولت إلى وجود دائم، ولكنهم لم يستطيعوا فرض سيطرتهم فى الداخل.

وفى شرق القارة أدت الرغبة لدى البرتغاليين فى وجود محطات فى الطريق إلى الهند إلى الاستيلاء على مراكز فى الساحل الشرقى لإفريقيا ودخلوا فى معارك مع العرب الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق واستولوا على كلوه وزنجبار وبمبه وممبسه ومالندى ومقديشيو ووصلوا إلى موزمبيق عام ١٥٣٠ وأنشأوا حصونًا حربية ومراكز تجارية. وتوقفت الجهود الكشفية الاستعمارية البرتغالية فى شرق القارة بسبب ظهور الأسطول التركى فى مياه الساحل الشرقى الإفريقى[1]. ثم لم يلبث أن ظهر البريطانيون فى مياه المحيط الهندى وتبعهم الهولنديون الذين أسسوا مستعمرة جنوب إفريقيا، كما ظهر الفرنسيون فى جزيرة مدغشقر فكانت هذه كلها داعيًا إلى هبوط شأن البرتغال فى الساحل الشرقى.

---

(١) العبودية فى إفريقيا ـ المرجع السابق ص٤٥ .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عاد البرتغاليون إلى الاهتمام بشرق إفريقيا وحددت منطقة موزمبيق - وفقًا لمعاهدات عقدت مع إمام مسقط - لشركات برتغالية تحتكرها ومنع غير البرتغاليين من مزاولة أى تجارة هناك؛ فى حين أن البرتغاليين كانوا لا يملكون سوى بعض الحصون المأهولة بحفنة من الجنود والتجار الصغار وكان وجودهم محدودًا داخل البلاد،ولكن توسعت بعد ذلك دائرة نفوذها لتشمل موزمبيق كلها.

وفى الساحل الغربى الإفريقى فى منتصف القرن بدأت الدول الأوروبية تتطلع إلى منطقة الكونغو فبادرت البرتغال بإقامة حاميات على الشاطئ والتوغل فى الداخل، ولكن جاء عقد مؤتمر برلين كارثة للبرتغاليين، فقد اهتز مركز البرتغال هناك إذ أنكر المؤتمرون على البرتغال حقوقها فى مصب الكونغو ولم يعترفوا لها إلا بمنطقة كابندا وبمستعمرة أنجولا.

كذلك ظهر الوجود البرتغالى فى الساحل الغربى فى جزيرتى ساوتومى وبرنست منذ عام ١٥٧٠ فى خليج غينيا، وكانا يعتبران محطتان هامتان لتجارة ونقل الرقيق. وقد تأكد هذا الوجود عام ١٨٩٨ بعد توقيع البرتغال عددًا من الاتفاقيات بعد مؤتمر برلين[١]. وبالنسبة لغينيابيساو وجزر الرأس الأخضر الواقعة على الساحل الغربى الإفريقى المطل على المحيط الأطلسى فقد وصلها البحارة البرتغاليون عام ١٨٤٦ ومارس المبشرون نشاطًا كبيرًا لخدمة استقرار السيطرة البرتغالية على المنطقة، وكان الملوك البرتغاليون يعتبرونها ملكية خاصة بهم[٢].

٨- الاستعمار الإسبانى

بالرغم من أن إسبانيا كانت من أوائل الدول التى اندفعت إلى المجال الاستعمارى بل كانت الدولة الثانية بعد البرتغال إلا أن نصيبها فى المستعمرات الإفريقية كان ضئيلًا؛ ذلك أنها لم تقم بدور كبير فى استعمار إفريقيا بسبب انشغالها ببناء إمبراطوريتها فى أمريكا الوسطى والجنوبية، ولكن كثرة الإسبان فى جزر كناريا (الواقعة فى أقصى الشمال الغربى الإفريقى فى مواجهة المغرب) جعلها تكاد تكون إسبانية صرفة، وقد حاول البريطانيون فى بداية القرن التاسع عشر الاستيلاء عليها إلا أنهم فشلوا بسبب دفاع الأهالى ومعهم المهاجرون الإسبان. وفى عام ١٨٣٢ صارت الجزيرة جزءًا من إسبانيا.

اهتمت إسبانيا بالمنطقة الساحلية المواجهة لجزر كناريا ورفعت عليها علمها ١٨٨٥

(١) دليل الدول الإفريقية - المرجع السابق ص٢٩٦ - ٣٠٨.
(٢) دليل الدول الإفريقية - المرجع السابق ص٢٣٩.

وأطلقت عليه ديودورو، ثم قامت بضم الساحل الصحراوى الغربى بين رأس يوجادور حتى رأس بلانكو والساقية الحمراء وديودورو فى منطقة إدارية واحدة وأطلقت عليها الصحراء الإسبانية (الصحراء الغربية) ثم احتلت منطقتى سبتة ومليلة من الأراضى المغربية.

ومن الأملاك الإسبانية فى إفريقيا أيضًا مستعمرة صغيرة على الساحل الغربى للقارة هى جزيرة غانة الإسبانية التى احتلتها إسبانيا عام ١٧٨٨ ومعها جزيرة فرناندوبو.

******

الخلاصة

خريطة إفريقيا الاستعمارية

إن الصورة النهائية لخريطة إفريقيا السياسية بعد أن اكتمل غزوها فى نهاية القرن التاسع عشر اختلفت كليًا عما كانت عليه فى بداياته، رسمت حدود وظهرت دول مصطنعة واختفت كيانات وممالك وإمبراطوريات عظيمة وصمت بالتخلف والبربرية لتبرر القوى الاستعمارية اغتصاب القارة واحتلالها . ويمكن تلخيص ما سبق أن الفرنسيين كانوا أنشط الأوروبيين فى اتباع سياسة الغزو العسكرى، فقد زحفوا من أعالى نهر النيجر إلى أدناه، وبذلك قضوا على إمبراطورية السوننكى فى سنجامينا، وكذلك على إمبراطورية التكرور فى سيجو، وواصل الفرنسيون زحفهم فى سائر مناطق غرب إفريقيا فاستولوا على ساحل العاج وغزوا مملكة داهومى ثم الجابون وقضوا على المقاومة الإفريقية العتيدة فى الأراضى الواقعة بين منطقة الساحل وبين الصحراءالكبرى، كما عززوا مراكزهم فى شمال إفريقيا وغزوا مدغشقر.

وبالمثل كان الاستعمار العسكرى البريطانى حافلًا بالأحداث وسفك الدماء، كما كانت ردود الفعل الإفريقية عنيدة ومديدة فى أغلب الحالات. وقد استطاعت بريطانيا من خلال ممتلكاتها الساحلية فى ساحل الذهب ونيجيريا أن توقف كل توسع فرنسى فى اتجاه حوض النيجر الأدنى وفى أراضى الاشانتى الداخلية (غانا)، ثم ضمت لاجوس عام ١٨٩٨ وأعلنت حمايتها على الجزء الأكبر من بلاد اليوروبا. وبحلول عام ١٩٠٠ كانت بريطانيا قد ضمنت السيطرة على جنوب نيجيريا، ولكن الاحتلال الفعلى للمناطق الداخلية الشرقية لنيجيريا لم يتم إلا بعد عقدين من القرن العشرين، أما فى الشمال فقد تم الغزو البريطانى لها عام ١٩٠٢[(١)].

وفى شرق إفريقيا أعلنت بريطانيا الحماية على زنجبار ١٨٩٠ وأصبحت زنجبار هى

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ص٥٥.

القاعدة التى انطلق منها الغزو البريطانى للبقية الباقية من إفريقيا الشرقية، وكانت الغنيمة الكبرى لها أوغندا التى أعلنت عليها الحماية رسميًا ١٨٩٤، أما كينيا فقد قضت بريطانيا عشر سنوات قبل أن تتمكن من السيطرة عليها. وامتدت سطوتها إلى أريتريا فاحتلت جزءًا منها عام ١٨٨٣ . كما استولت على الساحل الشرقى للصومال فى أثناء تقسيم الإمبراطورية العثمانية ١٨٨٦، ثم أبرمت معاهدة عام ١٨٨٩ مع منليك الثانى إمبراطور الحبشة (إثيوبيا) التى عينت الحدود بين الحبشة وأريتريا.

وفى وسط القارة وجنوبها لم تسقط نهائيًا فى أيدى الغزاة البريطانيين إلا بعد القمع الدموى لشعبى النديبلى والماشونابين عامى ١٨٩٦ـ١٨٩٧ . ثم غزت بريطانيا زامبيا وتم احتلالها عام ١٩٠١ . ،كانت آخر حروب التقسيم التى خاضتها بريطانيا حربها ضد البوير فى جنوب إفريقيا (مع ملاحظة أن الحرب بين الإنجليز والبوير ١٨٩٩ـ١٩٠٢ كانت حربًا بين الأوروبيين أنفسهم أى بين الإحتلال الإنجليزى والمستوطنين الأوروبيين فى البلاد).

وبالنسبة لألمانيا فهى لم تتمكن من تثبيت حكمها الفعلى فى جنوب غرب إفريقيا إلا فى أواخر القرن التاسع عشر بعد أن أجرت حرب إبادة على شعب الهيريرو. وفى الكاميرون تم إخضاعها عام ١٩٠٢. على أن حروب غزو إفريقيا الشرقية الألمانية تنجانيقا(تانزانيا) كانت الاشد ضراوة وأطول أمدًا فقد استمرت من ١٨٨٨ إلى ١٩٠٧ وكانت أبرز حملاتها هى التى وجهتها ضد الزعيم بوشيرى قلب الاسد ١٨٨٨ـ١٨٨٩ وضد الواهيهى ١٨٩٨ وضد زعماء مقاومة الماجى ماجى ١٩٠٥ـ١٩٠٧.

وبالنسبة للاستعمار البلجيكى فقد واجهت دولة الكونغو الحرة صعوبات قبل أن تتمكن من الاحتلال العسكرى الكامل. فى البداية حاولت التحالف مع عرب الكونغو الذين كانوا يعادونها أشد العداء، وعندما أيقن ليوبولد عدم جدوى هذا التحالف شن حملة ضدهم ولم يتسن إخضاعهم إلا بعد ثلاث سنوات ١٨٩٢ـ١٨٩٥، كما لم يستكمل احتلال كاتنجا الذى بدأعام ١٨٩١ إلا بعد أوائل القرن العشرين.

أما الشمال الإفريقى فقد قسم بين بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وبذلك يمكن القول انه بحلول عام ١٩١٤ لم يكن قد بقى فى إفريقيا دولة مستقلة ـ اسما ـ سوى ليبيريا والحبشة (إثيوبيا).

والسؤال لماذا تمكنت القوى الأوربية من قهر إفريقيا؟

تمكنت القوى الأوروبية من قهر إفريقيا لعدة أسباب، أولا: كان الأوروبيون ـ يعرفون

إفريقيا وإصقاعها الداخلية تضاريسها وأرضها واقتصادها ومواردها ومواطن القوة والضعف فى دولها ومجتمعاتها أكثر مما كان الإفريقيون يعرفونه عن أوروبا بالطبع.

ثانيًا: كان الأوروبيون بفضل التطورات فى التقنيات الطبية لا سيما اكتشاف الكينين كدواء واقٍ من حمى المستنقعات (الملاريا) قد أصبحوا أقل تخوفًا من إفريقيا مما كانوا عليه قبل منتصف القرن التاسع عشر.

ثالثًا: كانت موارد أوروبا المادية والمالية أضخم بكثير من موارد إفريقيا؛ أدى ذلك إلى عدم التوازن التجارى بين هاتين القارتين حتى العقد الثامن من القرن التاسع عشر، بل وبعد ذلك تزايد مع سرعة الثورة الصناعية إذ كان بوسع القوى الأوروبية أن تنفق ملايين الجنيهات فى حملاتها وراء البحار، ولم تكن دول إفريقيا لتستطيع احتمال أية مواجهة عسكرية طويلة الأمد ضد هذه القوى.

رابعًا: اتسمت هذه الفترة فى إفريقيا بالتصارع والتطاحن بين دولها وفى داخلها، الماندنجو ضد التكرور،الأشانتى ضد الفانتى، الباغندا ضد البنيورو، الباتورو ضد البنيورو أيضًا، الماشونا ضد النديبلى، وفى حين كانت الاقطار الافريقيه مشتتة كانت الدول الأوروبية ـ طوال فترة التقسيم حتى عام ١٩١٤ ـ تحل مشاكلها فيما بينها دون اللجوء إلى الحرب، وهكذا أبدت الدول الأوروبية المشتركة فى التقسيم رغم حدة التنافس روحًا تضامنية حالت دون الحروب فيما بينها بل حالت أيضًا بين حكام إفريقيا ومجتمعاتها وبين الإيقاع بين دول أوروبية وأخرى حفظًا لمصالحها، فطوال هذه الفترة لم يحدث قط أن قامت دولة أوروبية بمساعدة دولة إفريقية ضد دولة أوروبية أخرى.

أما مسلك الدول الإفريقية فكان على العكس حيث انعدم التضامن والاتحاد والتعاون، بل إن البعض كان لا يتورع عن التحالف مع القوى الأوروبية الغازية ضد جيرانه مثل تحالف الباغندا مع البريطانيين ضد البنيورو، والباروتس مع البريطانيين ضد النديبلى، والبامبارا مع الفرنسيين ضد التكرور. ونتيجة لهذا كله بدت حركات المقاومة الإفريقية حركات معزولة غير منسقة حتى على الصعيد الإقليمى.

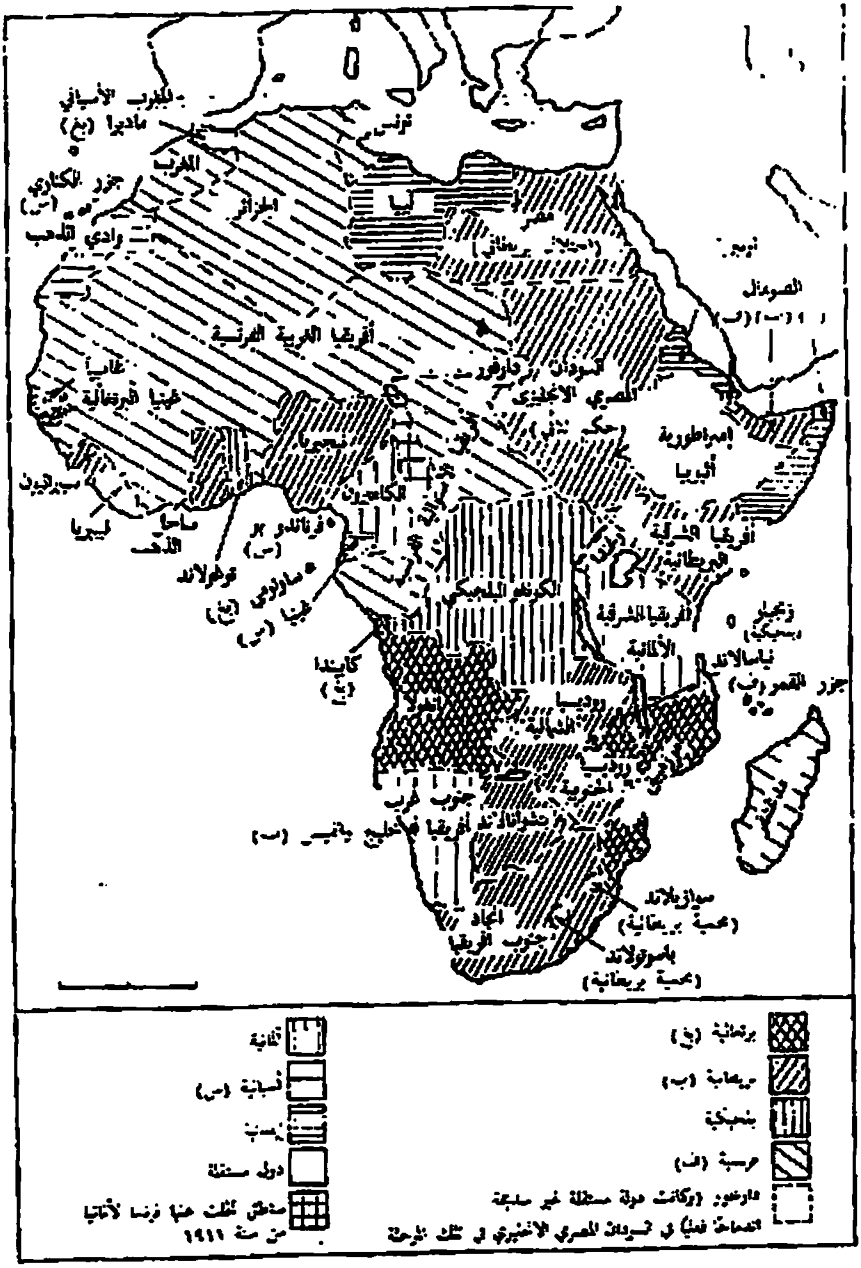
أما العامل الأخير وهو أكثر العوامل حسمًا فكان تفوق أوروبا العسكرى الساحق على إفريقيا، فبينما كانت أوروبا تستخدم جيوشًا منظمة مدربة محترفة كان عدد الدول الافريقية التى لديها جيوش دائمة قليلة جدًا وكانت تجند الأفراد وتعبئهم للهجوم أو الدفاع على أساس

ارتجالي حسبما تدعو الحاجة؛ في حين كانت تستطيع الدول الأوروبية أن تستعين بمرتزقة ومجندين أفارقة وغيرهم. وفضلًا عن ذلك كله كانت الدول الاستعمارية قد اتفقت بمقتضى اتفاقية بروكسل ١٨٩٠ ألا تبيع سلاحًا للإفريقيين، ومعنى ذلك أن معظم الجيوش الإفريقية كانت مسلحة ببنادق قديمة لا تصلح للاستخدام؛ بنادق بقداحة أو بنادق تحشى من الفوهة لتواجه بها الجيوش الأوروبية المسلحة بأحدث المدافع الثقيلة بنادق سريعة الطلقات ومدفعية ثقيلة لقواتها البحرية.

لكل هذه المزايا الاقتصادية والسياسية والعسكرية كان لا بد أن تتفوق دول أوروبا على الكيانات السياسية الإفريقية، فالمعركة لم تكن متكافئة مطلقًا؛ لذا لم يكن غريبًا أن تقهر دول أوروبا بلاد إفريقيا بسهولة، والواقع أن توقيت الغزو كان أفضل توقيت بالنسبة لأوروبا وأسوأ توقيت لإفريقيا[١].

وهكذا اختلفت تمامًا الخريطة السياسية لإفريقيا بعد تعيين الحدود والاحتلال العسكرى فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عما كانت عليه فى بدايات القرن التاسع عشر.. قسمت القارة نحو ٤٣ وحدة سياسية مصطنعة وتعسفية ومتعجلة وعشوائية شوهت النظام السياسى الوطنى الذى كان قائمًا قبل مجىء الأوروبيين. فنجد نحو ٣٠٪ من الطول الكلى للحدود مرسوم على شكل خطوط مستقيمة كثيرًا ما تخترق حدودًا إثنية ولغوية.. غزو إفريقيا وفى عام ١٩٠٢ اكتمل وكان غزوا أهدرت فيه دماء وأرواح لا تحصى، وإذا كان غزو أوروبا لإفريقيا ورسم حدودها تم بسهولة فإن احتلال القارة وإقامة الإدارة الأوروبية لم يكن هينًا فيما بعد، فقد واجه المستعمرون اضطرابات وتمردات من الأهالى الوطنيين واندلعت حركات المقاومة فى كل أجزاء القارة، وهذا الجانب من التاريخ الإفريقى المشرف الغنى بالدول والممالك والامبراطوريات الإفريقية أسدل عليه ستائر النسيان وحين يشار إليه يوصم بالتخلف والدونية. وهذا ما يحاول الجزء التالى من الكتاب التعرض له والكشف عنه. وفيما يلى جدول يبين خريطة ممتلكات الدول الأوروربية للأراضى الإفريقية وتاريخ احتلالها.

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص٦٣.



الشكل ٢-٣: افريقيا في عام ١٩١٤. (نقلاً عن ر. أوليفر وج. د. فاج، ١٩٦٢).

المنطقة الممتلكة	عدد سكانها	المساحة مقدرة بالأميال المربعة	الدولة التى تمتلكها	تاريخ التسوية النهائية أو الامتلاك
الساحل الشمالى				
الجزائر	٥,٦٠٠,٠٠٠	١,١٠٠,٠٠٠	فرنسا	اتفاق ٥ أغسطس سنة ١٨٩٠ بين فرنسا وإنجلترا
تونس	١,٨٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	فرنسا	ابتدأ الاحتلال سنة ١٨٨١
مصر	١١,٣٠٠,٠٠٠	٤٠٠,٠٠٠	بريطانيا	ابتدأ الاحتلال فى سنة ١٨٨٣
المجموع	١٨,٧٠٠,٠٠٠	١,٥٤٦,٠٠٠		
الساحل الغربى				
المنطقة من رأس بوجادور إلى الرأس الأبيض	٢٠٠,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	إسبانيا	إعلان الحماية فى ٩ يناير ١٨٨٥
السنغال	١,٢٥٠,٠٠٠	٧٤,٠٠٠	فرنسا	تسوية ١٠ أغسطس ١٨٨٩ بين فرنسا وإنجلترا
غينيا	١٤٦,٠٠٠	٤,٠٠٠	بريطانيا	تسوية ١٠ أغسطس ١٨٨٩ بين فرنسا وإنجلترا
غينيا البرتغالية	٤٠٠,٠٠٠	١٤,٠٠٠	البرتغال	اتفاق ١٢ مايو سنة ١٨٨٦ بين فرنسا والبرتغال
غينيا الفرنسية	١,٧٣٧,٣٥٠	٩٣,٠٠٠	فرنسا	اتفاق ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩
سيراليون	١,٠٠٠,٠٠٠	٣٤,٠٠٠	بريطانيا	اتفاق ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩

الممتلكات الأوروبيه فى إفريقية نقلًا عن كتاب «المنافسة الدولية فى أعالى النيل ١٨٨٠ ـ ١٩٠٦ تأليف الدكتور على إبراهيم عبده/ مطبعة الأنجلو المصرية ١٩٥٨.

المنطقة الممتلكة	عدد سكانها	المساحة مقدرة بالأميال المربعة	الدولة التى تمتلكها	تاريخ التسوية النهائية أو الامتلاك
ساحل العاج	١,٢١٦,٠٠	١٢٠,٠٠٠	فرنسا	اتفاق ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩
ساحل الذهب	٨٥٧,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	بريطانيا	اتفاق ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩
توجولاند	١,٠٠٠,٠٠٠	٣٣,٠٠٠	ألمانيا	اتفاق أول يولية ١٨٩٠ بين بريطانيا وألمانيا
بورتونوفو	؟	؟	فرنسا	تسوية ٣ أكتوبر ١٨٩٠ بين فرنسا وداهومى
لاجوس	؟	؟	بريطانيا	تسوية ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٩ إعلان الحماية فى ٥ يونية ١٨٨٥
نيجيريا	؟	غير محددة	بريطانيا	اتفاق ٥ أغسطس ١٨٩٠ بين فرنسا وبريطانيا وأول يولية من السنة نفسها بين ألمانيا وبريطانيا إعلان الحمايه فى ١٥ أكتوبر ١٨٨٤
الكمرون	٣,٥٠٠,٠٠٠	٢٩٥,٠٠٠	ألمانيا	تسوية إبريل - يونية ١٨٨٥ بين ألمانيا وبريطانيا بروتوكول ٢٤ ديسمبر ١٨٨٥ بين ألمانيا وفرنسا بروتوكول ٢٤ ديسمبر ١٨٨٥ بين ألمانيا وفرنسا
الكنغو الفرنسية	؟	؟	فرنسا	اتفاق ١٢ مايو ١٨٨٦ بين البرتغال وفرنسا
دولة الكنغو الحرة	١٥,٠٠٠,٠٠٠	٨٠٢,٠٠٠	بلجيكا	معاهدات اعتراف ١٨٨٤/ ١٨٨٥
المجموع الكل بالتقريب	٧٤,٧٠٠,٠٠٠	٥,٩٩٦,٠٠٠		

المنطقة الممتلكة	عدد سكانها	المساحة مقدرة بالأميال المربعة	الدولة التى تمتلكها	تاريخ التسوية النهائية أو الامتلاك
أنجولا	٥,٠٠٠,٠٠٠	٤٨٠,٠٠٠	البرتغال	اتفاق ١٢ مايو ١٨٨٦ بين فرنسا والبرتغال التصريح البرتغالى الألمانى فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨٦
جنوب غرب إفريقيا الألمانيه	١٢٠,٠٠٠	٣٢٢,٠٠٠	ألمانيا	تصريح بالحماية ١٠ أغسطس ١٨٨٤ اتفاق ٣٠ ديسمبر ١٨٨٦ بين ألمانيا والبرتغال
المجموع بالتقريب	٣٣,٠٠٠,٠٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠		
الجنوب				
مستعمره الرأس	٢,٤٦٠,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠	بريطانيا	بريطانيا قبل سنة ١٨٨٠
ناتال	٢,٤٩٠,٠٠٠	٣٥,٠٠٠	بريطانيا	اتحاد مع بريطانيا
باسوتولاند	٣٥٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	بريطانيا	اتحاد مع بريطانيا
بتسوانالاند البريطانية	٩٩,٠٠٠٠	٥١,٠٠٠	بريطانيا	أمر مجلس وإعلان ٢٩و٣٠ سبتمبر ١٨٨٥
شركة جنوب إفريقيا البريطانية	؟	؟	بريطانيا	ميثاق مع الشركة فى أكتوبر ١٨٨٩
المجموع بالتقريب	٤,٠٠٠,٠٠٠	٥٠٠,٠٠٠		
الساحل الشرقى				
إفريقيا الشرقية البرتغالية	٣,٢٠٠,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠	البرتغال	التصريح البرتغالى الألمانى فى سنة ١٨٨٦

المنطقة الممتلكة	عدد سكانها	المساحة مقدرة بالاميال المربعه	الدولة التى تمتلكها	تاريخ التسوية النهائية أو الامتلاك
مدغشقر..إلخ	٣,١٥٣,٠٠٠	٢٢٦,٠٠٠	فرنسا	التصريح الفرنسى البريطانى فى ٥ أغسطس ١٨٩٠ والفرنسى الألمانى فى أول يوليه سنه ١٨٩٠
إفريقيا الشرقية الالمانية	٧,٦٤٥,٠٠٠	٣٨٤,٠٠٠	ألمانيا	إعلان الحماية فى ٦ مارس ١٨٨٥ والتصريح الألمانى البرتغالى فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨٦ الاتفاق الألمانى البريطانى فى أول يولية ١٨٩٠
إفريقيا الشرقية البريطانية	٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٤٦,٠٠٠	بريطانيا	ميثاق مع الشركة البريطانية لشرق إفريقيا فى ١٨٨٨ الاتفاق البريطاني الألماني فى سنة ١٨٩٠
الصومال الإيطالى	٣٠٠,٠٠٠	١٣١,٠٠٠	إيطاليا	إعلان الحماية فى سنة ١٨٨٩ إعلان الحماية فى سنة ١٨٨٤
الصومال البريطانى	٣٠٠,٠٠٠	٦٨,٠٠٠	بريطانيا	مذكرات متبادلة بين فرنسا وبريطانيا فى ٢و٩ فبراير سنة ١٨٨٨ وأمر مجلس سنة ١٨٨٩
الصومال الفرنسي	٢٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	فرنسا	مذكرات متبادلة بين فرنسا وبريطانيا فى سنة ١٨٨٨
إريتريا	٢٨٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠	إيطاليا	محالفات مع السلاطين المحليين فى سنة ١٨٨٨
المجموع بالتقريب	١٩,٠٠٠,٠٠٠	١,٤٥٠,٠٠٠		٠
المجموع الكلى بالتقريب	٧٤,٧٠٠,٠٠٠	٥,٩٩٦,٠٠٠		

الجزء الثانى

المقاومة الإفريقية ضد الغزو

- تمهيد.
- الخلفية التاريخية لإفريقيا الغربية:

١ـ الاسلام.

٢ـ الطرق الصوفية.

- الفصل الأول:

أولًا: السودان الغربى.

ثانيًا: السودان الاوسط.

- الفصل الثانى: المقاومة فى السودان الغربى والأوسط.
- الفصل الثالث: السودان الشرقى ـ سودان وادى النيل.

المقاومة الوطنية والثورة المهدية.

- الفصل الرابع: دول الساحل وممالك الغابات الإستوائية.

مقاومة الممالك الزنجية ضد الغزو.

تمهيد

هذا الجزء الثانى من الكتاب يركز على المقاومة الإفريقية ضد المستعمرين وكيف قاومت الشعوب الإفريقية غزواتهم من أجل الاحتفاظ بأرضهم وسيادتهم، ثاروا وتمردوا وحاربوا وقتلوا وأبيدو ومحيت قبائل وتغيرت الخريطة البشرية وهجِّرت شعوب قسرًا ودمرت حضارات، ولكن لم تُسجل هذه المقاومة عن عمد وتجاهل معًا.

إن إفريقيا قبل أن يغتصبها ويلتهمها الاستعمار لم يكن أهلها وزعاماتهم كما وصفهم السياسى البريطانى الشهير«ونستون تشرشل» فى كتابه «حرب النهر»: «إن الإفريقين عقولهم بسيطة شرسون يعيشون عيشة إنسان ما قبل التاريخ يتزوجون ويموتون وأقصى طموحهم هو إشباع رغباتهم الجسدية، يعيشون أجواء تملؤها الأشباح والإيمان بقوة السحر وعبادات الإسلام، يحملون فضائل بربرية جهلاء وجهلهم مصدر براءتهم، تاريخهم جميعًا هو خليط من الشقاء وأسطورة من البؤس».

لم تكن إفريقيا ابدًا عندما دنسها الاستعمار مثلما وصفها البريطانى الشهير، أقوام بسطاء سذج هللوا بالمستعمرين وباعوا أرضهم من أجل حفنة من الخرز الملون وكأس نبيذ، ووقعوا على معاهدات ساذجة كالتى تنص«أن تبقى هذه المعاهدات سارية إلى أن يبيد التراب ويشيب الغراب، كما يشيعه الغرب عنهم.

لنسترجع وصف أحد ملوكها لوبنقولا ملك قبائل الماتا بيلى (زيمبابوى) لأحد المبشرين كيف استعمرت مملكته عام ١٨٨٩ قال« أرأيت كيف تقبض الحرباء على الذبابة؟ إنها تزحف خلفها حتى إذا اقتربت منها كفت عن الزحف والتنفس فترة ثم تستأنف زحفها بطيئًا تقدم رجلًا أولًا وأخرى بعد حين وعندما تكاد تلامس الذبابة تنقض عليها بلسانها وتختفى الذبابة.. إن إنجلترا هى الحرباء وأنا الذبابة». إن هذا الفهم والتلخيص المذهل لأساليب الاستعمار ينم

عن ذكاء ووعى وإدراك كامل يدحض أكاذيب أن الإفريقين كانوا من الهمج الشرسون بلا عقول يأكلون لحم البشر، وهى الأكاذيب التى روجها المستعمرون لكى يشعروا الإفريقى بالخجل من ماضيه ويبرروا سرقتهم له.

إفريقيا قبل أن يطأها الاستعمار بقرون كانت قارة ثرية بحضارات عظيمة وزعامات رائعة، قامت فيها ممالك كبيرة وروابط حضارية ومسالك تصل أطرافها بعضها ببعض، وعلاقات تجارية بالعالم الخارجي تمتد حتى الصين، ولكن لم يشهد المستعمرون بشيء من هذا ولزموا الصمت وأصروا على ازدرائهم ونظرتهم الدونية للإفريقيين.

إن كتب التاريخ مليئة بالأحداث والوقائع ولكن نادرًا ماتشير إلى المقاومة الإفريقية ونادرًا ما نجد أبحاثًا تبين هذا الجانب الهام، والسبب أن اغلب تاريخ إفريقيا كتب من منظور استعمارى وقليل جدًّا ما كتبه إفريقيون بأقلامهم، وحتى ما كتب فيها استمدت هذه الأقلام معارفها ومصادرها من الكتابات الغربية. إن التاريخ الإفريقى لم يكتب بعد؛ لذلك طمست المواجهات الصامدة ضد المستعمرين ومحيت انتفاضات وحروب دامية، وأهيل النسيان على بطولات وشخصيات عظيمة دافعت عن استقلال أرضها حتى الموت.

إن القارة الإفريقية من الاتساع بما يصعب معه حصر تاريخ حركات المقاومة جميعها. لذلك آثرت أن أحصر بحثى فى المنطقة التى تشمل شمال خط الاستواء الممتدة من المحيط الأطلسى غربًا إلى البحر الأحمر شرقًا ، ليس لأن هذه المنطقة كانت مقاومتها أكثر فاعلية من غيرها فى بقاع أخرى أفريقية ، ولا لانها تميزت بكتابات أوفى، وليس لان شعوبها كانوا اكثر وعيًا وإحساسًا بضياع سيادتهم على أراضيهم، وإنما لأنها أقرب إلينا جغرافيًا وتاريخيًا، وهذا لا يقلل من كفاح شعوب إفريقيا جنوب خط الاستواء ومقاومتهم الفذة وثوراتهم ضد جحافل البرابرة المستعمرين، ولعل ثورة الهيريرو[1] فى جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) فى أواخر القرن التاسع عشر التى كبدت الألمان خسائر فى الأرواح بلغت خمسة آلاف جندى ومستوطن ألمانى ونفقة تبلغ ١٥ مليون جنيه استرلينى خير شاهد على ذلك.

لم تكن الحرب المأساوية التى شنها المستعمرون الألمان على شعب الهيريرو والهدف منها إخضاع الأهالى فقط بل إبادتهم إبادة كاملة، وأدت ثورتهم التى عرفت بانتفاضة الهيريرو ضد الحكم الألمانى إلى حرب ضروس استمرت أربع سنوات صار بعدها الهيريرو الذين كانوا يبلغون ٨٠ ألفًا من الأهالى الأشداء لا يزيد عددهم عن ١٥ ألف من البشر المشردين.

---

(١) العبودية فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص١٠٠.

كان من أسباب ثورة الهيريرو هو احتلال الألمان لأراضيهم، والوسائل الوحشية التى مارس بها الغزاة سيطرتهم، فقد كان قرار احتلال جنوب غرب إفريقيا يعنى لألمانيا شيئًا واحدًا هو أن تقوم القبائل بتسليم الأرض التى كانت يرعى فيها أصحاب الأرض ماشيتهم ليتاح للرجل الأبيض امتلاك الأرض والماشية، وأيضًا الحصول على الماس الذى اكتشف بكميات وفيرة على سطح تربتها الرملية.

استبد الحكم الألمانى بالأهالى الضعفاء واستولى على ماشيتهم وأرضهم التى كانوا يتجولون فى أنحائها وعيون المياه التى كانوا يستخدمونها. وأدت مصادرة السلطة الألمانية لعدد كبير من الماشية إلى غضب الهيريرو ورغبة جامحة فى القتال. يصف ذلك الكتاب الأزرق الذى أصدرته الحكومة البريطانية عن فظائع الاحتلال الألمانى ضد الإفريقين بعنوان «اتحاد جنوب إفريقيا تقرير عن أهالى جنوب غرب إفريقيا وتعامل الألمان معهم». وقد اصدرت بريطانيا هذا الكتاب بعد الحرب العالمية الأولى. لم يكن اصداره عملًا شريفًا منزهًا من جانب بريطانيا لإظهار الحق وإنما لتبرير انتزاع هذه المنطقة من الألمان ليأخذوها هم ويحلوا محلهم، كان هدفهم هو اقتلاع جذور الاستعمار الألمانى وتثبيت الوجود البريطانى. يكشف الكتاب الفظائع التى ارتكبت وأمر الإبادة الذى أصدرته الإدارة الألمانية: «يحتم قتل كل رجل وكل امرأة وكل طفل من الهيريرو». ويحوى الكتاب أوصافًا تفصيلية وصورًا فوتوغرافية عن قتل المساجين من الجرحى وغير الجرحى ومن الرجال والأطفال الصغار والنساء، وحتى من استسلم منهم وهم فى الرمق الأخير كان الجند الألمان يضربونهم بالسياط حتى الموت جزاء لهم على مقاومتهم، ومن استطاع الهرب أبادتهم الصحراء إذ من نجا من أبناء القبيلة هاموا فى الصحارى وهلكوا من الجوع والعطش، وذلك بعد أن فقدوا أرضهم وقطعانهم وحريتهم وحياتهم العائلية وتمزقت وحدتهم القبلية.

يصف الكتاب مشهد إعدام اثنين من زعماء الهيريرو طالبوا باسترداد أرضهم «بأنهما حُملًا حملًا من عربة النقل وبكبرياء وبرأس مرفوعة مشيا نحو الشجرة التى ربطا فيها وبدون تغطية عيونهما أطلقت النار عليهما ودوت طلقات البنادق فى وقت واحد عبر الجبال المجاورة كأنها الرعد وانتهت حياة المتمردين».

أشعل هذا الحادث الثورة فى النفوس، وبدأت الحرب. كان جميع زعماء الهيريرو فى ميدان القتال يحيط بهم زوجاتهم وأطفالهم ومواشيهم مما أعاق حركة قتالهم؛ فى حين استدعت قوة إضافية من القوات الألمانية العسكرية وصدرت لها الأوامر أن يضرب كل هيريرو بالرصاص

سواء كان معه سلاح ام لم يكن، وسواء كانت لديه ماشية أو لم تكن، وأن لا يقبض على النساء والأطفال ولكن يبعدون إلى الصحراء حيث يموتون جوعًا وعطشًا أو يرمون بالرصاص. ولما كانت بنادق الألمان سريعة الطلقات فقد أجهضت الثورة وولت الجماعة كلها الأدبار إلى المناطق الجبلية النائية وهى أراضى رملية لا ماء فيها. وهكذا حُكم على الهيريرو بالموت وتبعثروا بلا حول ولا قوة وقد تحطمت أطرافهم وخارت قواهم وصار بعضهم جثثًا هامدة.

لقد أشرت إلى ثورة الهيريرو كمثال لأثبت أن إفريقيا كلها شمالها وجنوبها شرقها وغربها كانت طوال القرن التاسع عشر تنتفض بالثورات ضد المستعمرين.

* * *

إن واحدًا من الحقائق البارزة عن الدول الإفريقية القديمة هو أنهم لم يغزوا قط من خارج القارة، وإن كان حدث ذلك فقد كان من النادر جدًّا. لقد قاوموا الغزو وبقوا بعيدين عن أن تنتهك أراضيهم. كان فقط على طول الساحل يمكن للمسلحين الأوروبيين أن يكسبوا موضع قدم ولكن أخفقوا أن يكسبوا المزيد، حتى الدول العربية الموجودة فى شمال إفريقيا كان حظها قليلًا فى غزواتها البرية إلى الجنوب وقد فشلوا فى النهاية وأجبروا على الرحيل.

إن كتاب المرحلة الاستعمارية يميلون إلى تفسير هذه الحقيقة الخاصة بنجاح المقاومة الإفريقية بإرجاعها إلى المناخ والناموس، وفعلًا كانت الملاريا والشمس كانا مما يثبط عزائم الغزو الأجنبى، ومع ذلك فإن التقارير المبكرة تشير إلى أسباب أخرى وحصانات أخرى وجدت ضد الغزو وهى قوة الجيوش الإفريقية وأن العنصر العسكرى كان بين وقت وآخر يثبت أنه العنصر الحاسم(١).

كان اهتمام الأوروبيين الأوائل مقصورًا على المناطق الساحلية، ولم يتوغلوا فى الداخل إذ كان هدفهم التجارة لذلك اكتفوا بالمناطق الساحلية، واعتمدوا على الحكام ورؤساء القبائل المحليين لتزويدهم بمنتجات المناطق الداخلية، كانت سياسة الأوروبيين تنحصر فى بناء قلعة أو حصن ساحلى. وقد أدرك الإفريقيون منذ اللحظة الأولى أخطار السماح للأجانب بامتلاك مكان حصين، فلم يسمح الرؤساء الإفريقيون للتجار الأجانب ببناء القلاع بل إنهم حينما سمحوا بها كما فى حالة قلعة المينا (على الساحل الغربى الإفريقى) التى كانت مكانًا لإقامة العبيد المقتنصين إلى حين ترحيلهم إلى الأمريكات وأوروبا، ادعى الإفريقيون السيادة عليها

(١) The African Slave Trate _ Basil Davidson P27

وطالبوا أن تكون الموانى مفتوحة وبأن يكون باستطاعة اى شخص زيارتها. كما لم يكن يسمح للأوروبيين بالقيام بغارات لاقتناص العبيد وإنما كانوا يستطيعون شراءهم فقط حيث كانت السلطة فى يد دول الساحل. ومع إدخال الأسلحة الأوربية وما جاءفى أعقاب التجارة من رخاء مادى نمت قوة الدول الساحلية التى كانت تعتمد على التجارة وتوريد العبيد، لذلك لم يستطع الأوروبيون مد سلطاتهم فى الداخل.

إذن لم يكن الزنوج الذين واجههم الأوروربيون همجًا أو يعيشون فى أحوال بدائية بل كانوا تجارًا ممتازين ولديهم دول حسنة التنظيم ومدن مسورة فيها حكام وملوك أقوياء حتى صغار رؤساء القبائل كانت لديهم رغبة كاملة فى استخدام القوة ضد الأوروبيين، وهذا يناقض الفكرة التاريخية القائلة بأنه قبل القرن التاسع عشر كان الأوروبييون فى غرب إفريقيا يعتبرون سادة وبأن الإفريقين يرهبونهم.

إن النظرة الأوروبية فى التاريخ هى من روجت بأن الإفريقين اعتبروا مجىء المستعمرين نعمة وخلاصًا لهم من الحروب الداخلية بينهم، ومن طغيان القبائل المجاورة بعضهم ببعض، ووصفت غير المقاومين بأنهم محبون للسلام وكل من قاوم بأنه متعطش للدماء.

كان المستعمرون على غير دراية بتفاصيل الأوضاع فى إفريقيا وكانوا ينتهجون استراتيجية الزحف والتقدم بشكل عشوائى وغير منسق فاصطدموا بالعديد من حركات المقاومة والتمرد والثورات وحروب العصابات. وما إن انتصروا حتى حاولوا أن يبينوا أن معظم الإفريقين تقبلوا «السلام الاستعمارى» شاكرين، وتم تجاهل وقائع المقاومة الإفريقية الباسلة. وبالرغم من هزيمة الإفريقين فإن انتصار أوروبا لا يعنى أن المقاومة الإفريقية كانت هزيلة فى ذلك الوقت، فالمقاومة الإفريقية أثبتت أن الإفريقين لم يتقبلوا عملية الغزو الأوروبى فى هدوء ودعة، وأن مقاومتهم لم تكن يائسة ولا رعناء بل كانت رشيدة ومحددة، وأن حركات المقاومة هذه لم تذهب سدى وأتت بنتائج هامة وقتها ولم تزل لها أصداء حتى اليوم.

لقد قاومت المجتمعات الإفريقية بكل أشكالها تقريبًا، والشعوب غير المنظمة مركزيًا تمتعت بنفس قدرة الشعوب الأخرى المنظمة مركزيًا على المقاومة العتيدة ضد البيض. ولكن شدة المقاومة كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، فالمقاومة المسلحة فى روديسيا الشمالية (زامبيا) مثلًا لا تقارن فى اتساعها ولا فى مدتها بالمقاومة التى قامت فى روديسيا الجنوبية (زيمبابوى) ولا بمقارنة وادى الزمبيزى ضد البرتغاليين[1].

---

(١) تاريخ إفريقيا العام ص٦٥ ـ ٦٧.

كما أن الصراعات بين حكام الدول الإفريقية جعلت الطبقة الحاكمة منعزلة وفى حالة انفصال عن الشعب لأن نتائج الحروب الأهلية لم تكن تؤدى إلى تغيير فى النظام أو تغيير كيفى فى مكانه، وظروف الناس ككل لم تكن نتيجتها أكثر من تغيير طبقة حاكمة مكان أخرى جديدة، وهذا أحدث عزلة بين الحاكم والمحكومين، لذلك ينبغى تفسير هزيمة المقاومة الإفريقية أمام الغزو الأوروبى ليس فقط من منطق ضعف التقنية للشعوب الإفريقية ولكن أيضًا من منطق الضعف الفطرى للتكوينات الاجتماعية الإفريقية خلال تلك الفترة[1].

وقبل الحديث عن مقاومة الشعوب الإفريقية لغزاتهم لا بد من الإشارة إلى الممالك الإفريقية التى كانت قائمة قبل قدوم المستعمرين، ولكى يسهل فهم الموضوع قسمت القارة إلى عدة مناطق: غرب إفريقيا، شرق إفريقيا، وسط إفريقيا، جنوب إفريقيا إذ تختلف ظروف وآليات المقاومة فى كل منطقة عن الأخرى.

ومنطقة مجال البحث فى هذا الفصل هى شمال خط الاستواء وهى الحزام الممتد من المحيط الأطلسى حتى البحر الأحمر أو ما يطلق عليه السودان الكبير وهو ينقسم إلى ثلاث مناطق: السودان الغربى أو إفريقيا الغربية والسودان الأوسط والسودان الشرقى سودان وادى النيل الذى يمتد إلى الشرق الإفريقى حتى البحر الأحمر.

*****

(١) السياسة والحكم فى إفريقيا الجزء الأول ـ المشروع القومى للترجمة ـ المجلس الأعلى للثقافة ص٥٧.

- الخلفية التاريخية لإفريقيا الغربية.
- الإسلام.
- الطرق الصوفية.

الخلفية التاريخية لغرب إفريقيا

المقصود بمنطقة غرب إفريقيا ليس المعنى الجغرافى للمنطقة التى تمتد من سبتة المغربية فى الشمال حتى الكاب فى جنوب إفريقيا، فالمغرب والصحراء يعتبران قسمًا من إفريقيا الشمالية، كما أن أنجولا وناميبيا يشكلان قسمًا من إفريقيا الجنوبية، وتعد زائير والجابون والكاميرون جزءًا من إفريقيا الوسطى، يبقى ما أقصده بغرب إفريقيا مجال البحث هى مناطق السافانا التى تمتد حتى مشارف الشمال الإفريقى وجنوبًا إلى ساحل المحيط، أى المنطقة التى تضم حاليًا خمسة عشرة دولة مستقلة: موريتانيا والسنغال وجامبيا ومالى وغينيا بيساو والنيجر وساحل العاج(كوت ديفوار) وبوركينا فاسو(فولتا العليا) وبنين وتوجو ونيجيريا وغانا وسيراليون وليبيريا.

قبل أن تقسم هذه المنطقة إلى مستعمرات ومحميات كان يشار إليها بعبارة دول الساحل ودول ما وراء الساحل، وقد منح النهران الكبيران اللذان يجريان فيها نهر النيجر ونهر السنغال بعض الوحدة والتماسك لهذه الأراضى، وأيضًا جعلًا أكبر قوتين استعماريتين أوروبيتين تتبعان مجرى هذين النهرين للولوج إلى إفريقيا فكان الفرنسيون يتبعون نهر السنغال والإنجليز نهر النيجر.

وتاريخ إفريقيا الغربية فى العصور الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحكم فيه ظاهرة الهجرات أو الغارات المتصلة لبعض قبائل المغرب العربى عند أطراف الصحراء وطرقها المستمر للوطن الزنجى فى الجنوب؛ هذا فضلًا عن الاتصال التجارى الحتمى الذى كان يتم بين المغرب العربى فى الشمال الإفريقى وبين أسواق إفريقيا، هذه القبائل المهاجرة كان ينتهى أمرهم بأن يفرضوا نفوذهم بالقوة على طوائف مسالمة من الزنوج المستقرين ثم ينتشر نفوذهم انتشارًا سريعًا فى إقليم السافانا المكشوف وتكتفى بإخضاع الشعوب الزنجية

بقوة السلاح وتفرض ضريبة عليهم ثم يتم الاختلاط التدريجى بين الغالب والمغلوب عن طريق التزاوج وتنشأ طبقة جديدة من المولدين تغتصب الحكم وتقيم الإمبراطوريات والممالك الكبيرة التى شيدت فى غرب إفريقيا[١].

١ـ انتشار الإسلام

كان انتصار الإسلام المبكر فى الشمال الإفريقى وكسبه الصحراء وامتداده إلى منطقة السافانا وأجزاء واسعة من شريط الغابات قد أحدث ثورة تاريخية فى هذا الفضاء الإفريقى وسرعان ما تحول من كونه ـ فى البداية ـ ديانه ملوكية إلى ديانة شعبية، ومن دعوة دينية إلى سلطة حاكمة أى من دين إلى دولة، ومن ديانة مركزية فى المدن إلى عقيدة تنتشر فى الريف. وقد حملت لواء نشره شعوب متعددة، فبعد المور(الموريتانيون) فى الصحراء نهض بالدعوة التكرور ثم السوننكة فالفلانى والماندنجو، وبعد ذلك الكانمبو والكانورى ثم الديولا والهوسا والولوف. وتغيرت حواضره الإسلامية من كومبى صالح فى غانا إلى فوتا فى السنغال إلى نيانى فى مالى ونجمى فى كانم وبرنو ثم جاو فى صنغى ومن بعدهم سكوتو وحمد الله. ولم تكن حواضر هذه الدول تأتى واحدة تلو الاخرى على نحو آلى، ولكنها كانت نتاجًا لحركة القوى المتنافسة فى الإقليم تحت مظلة الإسلام[٢].

ومن الصعب تحديد متى بدأ الإسلام ينتشر فى غرب إفريقيا. تذكر بعض المصادر أن تجارًا من شمال إفريقيا والمغرب ومصر كانوا يترددون على الأسواق الرئيسية فى غرب إفريقيا، ومن الطبيعى أن يكون بدايات الاسلام انتقل إلى المنطقة عن طريق هؤلاء.

هناك ثلاثة احتمالات لدخول الاسلام غرب إفريقيا

الاحتمال الأول على يد عقبة بن نافع ٦٦٦ حين توغل فى الصحراء الكبرى حتى وصل إلى كوار Kawar الواقعة فى الشمال الشرقى لجمهورية النيجر.

الاحتمال الثانى عن طريق التجار حيث كان للعرب علاقات تجارية مع سكان السودان الغربى قبل ظهور الإسلام، ثم استقر بعضهم وكان لهذا الاستقرار اسهام فى نشر الاسلام إذ كانوا هم الوسطاء فى حركة التجارة بين بلاد غرب إفريقيا والبلدان الأخرى. وكانت هناك عدة طرق تربط غرب إفريقيا بشمالها وهى طريق الواحات من بلاد كانم إلى بلاد السودان

(١) الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا د.حسن أحمد محمود ـ دار النهضة العربية ص٢١٩.
(٢) الإسلام وتداخل الثقافات فى السنغال (جامعة إفريقيا العالمية) د.مهدى ساتى ص٣٦.

الغربى، وطريق الصحراء من مصر إلى ليبيا إلى أغاديس فى النيجر حيث كانت مركزًا تجاريًا كبيرًا وموضع تقاطع الطرق التجارية بين شمال إفريقيا وبحيرة تشاد، وطريق فى المغرب من سلجمانة إلى أودغشت ثم نهر النيجر.

والاحتمال الثالث على يد المرابطين ١٠٧٦ بعد إسقاطهم مملكة غانا القديمة، وقد أسهم هؤلاء إسهامًا فعالًا فى نشر الإسلام ودفع حركة المد الإسلامى إلى مساحات واسعة فى السودان الغربى[(١)].

ويمكن تقسيم توغل النفوذ الاسلامى إلى غرب إفريقيا وأواسط السودان فى ثلاث مراحل، الأولى يغلب عليها الاحتكاك السلمى وكان التجار العرب والبربر دعامته، والمرحلة الثانية يغلب عليها جهاد المرابطين الذين أعطوا النفوذ الإسلامى بعدًا اقتصاديًا وثقافيًا وسندًا سياسيًا، وتجمع المرحلة الثالثة بين السلم والحرب، وفى هذه المرحلة انتقلت الزعامة الدينية والقيادة السياسية والاقتصادية والريادة الثقافية إلى السكان الوطنيين من السود بعد أن تشبعوا بروح الإسلام، واقترنت المرحلة الأخيرة أيضًا بقيام عدد من الممالك الإسلامية السودانية الزنجية تعاقبت على حكم المنطقة(مالى وصنغى وإمارات الهوسا)[(٢)].

هذه الدول الإسلامية كان ملوكها من أهل البلاد الاصيلين ذوى الدم الزنجى الخالص أو الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر مثل دولة مالى التى أسسها شعب الماندنجو ودولة الصنغى(صنغاى) التى أسسها أسرة من شعب صنغى اختلطت أيضًا بدماء البربر[(٣)].

وقد لعبت هذه الدول الإسلامية دورًا غطت به أجزاء واسعة فى بلاد غرب إفريقيا فى تاريخها الوسيط والحديث بدءًا بدولة غانا القديمة ثم مالى ثم صنغى وكانم وبرنو فى العصور الوسطى ودولة الشيخ عثمان بن فودى فى العصر الحديث، ثم لعبت دورًا عظيمًا فى تاريخ المنطقة فهذه الدول والممالك التى أنشأها الإفريقيون المسلمون ساهمت إسهامًا إيجابيًا فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى داخل القارة فى هذا الجزء البعيد عن العالم الإسلامى ، ونقلت أصول ومعالم الحضارة الإسلامية إلى بلاد السودان الأوسط والغربى وهى تشمل مجموعة من

---

(١) مجله التواصل ـ المرجع السابق ـ ص١٢٦.
(٢) العرب والدائرة الإفريقية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ سلسلة كتب المستقبل العربى العدد ٤٥ ص٣٩.
(٣) المؤتمر الدولى الإسلام فى إفريقيا (الكتاب الخامس ـ الإسلام فى بلاد التكرور فى غرب إفريقيا فى القرن التاسع عشر د. حندوقة إبراهيم فرج.

النظم والقوانين والمبادئ والتعاليم التى قام عليها الحكم الإسلامى فى تلك البلاد التى تمتد من تشاد شرقًا إلى السنغال على شاطئ المحيط الأطلسى غربًا[1].

وقد تسابقت الجماهير فى إفريقيا الغربية إلى اعتناق الدين الجديد تحت ضغوطات مختلفة، كانت فى الأساس حسب المفهوم الإفريقى زيادة القوى الروحية لحماية الشخص وأسرته فى نطاق واسع، وكان هؤلاء الأفارقة الوثنيون لا يجدون تناقضًا فى أن يؤمن المرء بالله إله الإسلام وهو فى نفس الوقت يؤمن بآلهة قومه، وأن يحرم محرمات الإسلام كالخمر والخنازير، وفى ذات الوقت يلتزم بمحرمات طوطمة كالامتناع عن أكل اليمامة بل حتى لمسها[2].

وينبغى أن نشير إلى أن الصحراء الكبرى لم تكن حائلًا دون انتشار الإسلام وانتقال المؤثرات العربية إلى غرب إفريقيا. وقد حاول كثير من ملوك تلك البلاد أن يحاكوا المظاهر الإسلامية فى حياتهم ونظمهم، وظلت ممالك تلك البلاد ودولها مزدهرة منذ نشأتها فى القرن الحادى عشر حتى مطلع القرن العشرين[3].

وينبغى أن نشير أيضًا إلى أن العلاقات الإسلامية العربية الإفريقية لم تؤد إلى ما أحدثته الثقافة الأوروبية عندما وصلت إفريقيا، ولم تظل العربية مغتربة مثلما ظلت الفرنسية والإنجليزية ومختلف اللغات الأوروبية فى مستعمراتها، بل إن الثقافة الإفريقية ظهرت بإنتاج العلماء والفقهاء فى كتب باللغة والأحرف العربية، وكتب التاريخ تزخر بها خزائن كانو وتمبكتو ولادو وزنجبار وغيرها من مراكز الثقافة الإفريقية. ومن الناحية السياسية فإن علاقة العرب والمسلمين بإفريقيا أو الحضور العربى فى إفريقيا لم يؤد إلى سقوط السياسة التقليدية فى المجتمعات الإفريقية كما حدث مع الاستعمار الأوروبى[4].

مما تقدم نجد أن إفريقيا الغربية تعرضت منذ العصور الوسطى لظهور إسلامى أو فتوحات إسلامية أو حركات جهادية كما يطلق عليها أدى إلى ظهور عدة ممالك إسلامية

---

(١) المؤتمر الدولى الإسلام فى إفريقيا الكتاب الثامن بحث «بلاد غرب إفريقيا عبر التاريخ السر سيد أحمد العراقى ص٤٣.

(٢) المؤتمر الدولى ـ الاسلام فى إفريقيا المرجع السابق الكتاب الخامس/ موضوع فى إفريقيا نهاية أم بداية لمرحلة أخرى. الحسن سعيد جالو ص٣٣٨.

(٣) المرجع السابق ص٤٤.

(٤) سمنار العرب فى إفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر. دار الثقافة العربية/ المغتربون العرب فى إفريقيا حلمى شعراوى ص٣٠٩.

عاصرت بعضها البعض، وتبودلت بين هذه الممالك السيادة والشهرة والنفوذ. ولكن كتب على ممالك هذه المنطقة أن تتعرض لغزوين مدمرين رغم النضال البطولى الذى أبداه شعوبها. الغزو الأول هو الغزو المراكشى فى القرن السادس عشر الذى كان من أشد المحن على السودان الغربى (وسنعرض له فيما بعد)، والثانى هو الغزو الأوروبى فى القرن التاسع عشر.

وبالطبع هناك فرق بين الغزوين، فالمسلمون الذين جاءوا أصلًا من مراكش وانتقلوا إلى ربوع إفريقيا الغربية التحموا بشعوب المنطقة الذين دخلوا فى الإسلام إما عن اقتناع أو بالفتح وتزاوجوا منهم وأصبحوا من أهل البلاد، وهم من قاوموا وقادوا حركات الجهاد ضد الغزو الاستعمارى الأوروبى فى القرن التاسع عشر. أما الأوروبيون فقد كانوا غزاة أجانب جاءوا من أقاصى قارات أخرى ليحتلوا الأرض الإفريقية ويستعبدوا شعوبها بعدما سرقوا أبناءها ورحلّوهم إلى أمريكا وأوروبا.وظل هذا الاستنزاف البشرى الأوروبى لإفريقيا أربعة قرون، وعندما تشبعوا من الأيدى العاملة الإفريقية عندهم جاءوا إلى القارة مستعمرين مسلحين ليسرقوا مواردها الطبيعية. وأنا هنا لا أقارن بين الغزو باسم الإسلام أو الغزو باسم الاستعمار فالنتيجة أن شعوب المنطقة طحنت من الغزوين.

٢ـ الطرق الصوفية

لا يمكن فهم تاريخ المقاومة الإفريقية دون الإشارة إلى الطرق الصوفية ودورها فى مقاومة الغزو الأوروبى. إن الطرق الصوفية هى بلا شك ذات أصول وتوجهات دينية، ولكنها بلا مراء كانت سياسية فى وظيفتها، وقد كانت هذه الطرق الصوفية دائمًا منظمات دفاعية تقف فى وجه الأخطار المحدقة من الخارج، وعندما كانت الدولة نفسها قوية كانت هذه الطرائق جزءًا من أجهزة الدولة، أما فى حالات ضعف الدولة نفسها وتفككها فإنها كانت تستقل بذاتها وتأخذ زمام المبادرة بيدها، وعلى هذا النسق نجد أنه عندما تخلت الأستانة(القسطنطينية) عن سيادتها صارت الطريقة السنوسية نواة مقاومة الإيطاليين فى برقة وفى صحراء ليبيا وعندما أصبحت الدولة المغربية عاجزة عن التصرف قامت الطريقة الكتانية باستنفار القوى المعادية للفرنسيين فى شنقيط وفى الشاوية. وكانت الطرق الصوفية ترفض كل اتصال بالسلطات الاستعمارية رغم كل المغريات، فإذا انتهى الامر باستسلامها لم يبق أمامها إلا سبيل واحد وهو أن تمارس رد الفعل إزاء السياسة الاستعمارية، وهذا ما كان يضفى عليها طابع القوة المستقلة [١].

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٠٥.

انتشر الاسلام فى إفريقيا الغربية وصار حقيقة واقعية فى أغلب دولها بفضل رجال الطرق الصوفية والزوايا التى انشأها زعماء هذه الطرق التى كانت بمثابة ركائز لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية فى غرب إفريقيا. فقد قاومت هذه الحركات الصوفية التوسع الأوروبى فى القارة، وقاومت حركات التبشير المسيحى وكان لها الفضل الاكبر فى نشر الدين الإسلامى بين الوثنيين والدفاع عنهم أمام التيار الأوروبى الجارف فى القرن التاسع عشر[١].

كان التصوف فى القارة الإفريقية جزء أساسى من البنية الإسلامية ومحور الحركات الإصلاحية ودعامة جهادها. وكان السبب الرئيسى لانضمام الناس إليها هو أن الطرق ظهرت فى الوقت الذى تعرض فيه المجتمع التقليدى للتفكك والانهيار بسبب الغزو الأجنبى، وكان أكثر هذه الطرق شمولاً ثلاث طرق هى: الطريقة القادرية المنسوبة للشيخ عبد القادر الجيلانى، يليها الطريقة التيجانية المنسوبة لأحمد التيجانى، ثم الطريقة المريدية ومؤسسها أحمد بمبا.

١ـ **الطريقة القادرية**: مؤسسها عبد القادر الجيلانى، تعد من أهم الطرق الصوفية فى غرب إفريقيا، انتقلت الطريقة من مراكش (المغرب) إلى جماعات الفولانى فى الهوسا (نيجريا) ثم إلى منطقة النيجر. وأيدت قبائل الطوارق هذه الحركة ثم امتدت تدريجيًا نحو حوض السنغال ثم إلى الجنوب الشرقى إلى بلاد الهوسا، ووصلت القادرية إلى إمبراطورية كانم عن طريق شمال إفريقيا[٢].

٢ـ **الطريقة التيجانية**: مؤسسها أحمد التيجانى، ويرجع انتشارها فى بلاد الهوسا وغرب إفريقيا إلى الحاج عمر الفوتى الذى ولد فى قرية على حدود السنغال ثم استقر فى فاس ومنها انتقلت الطريقة إلى موريتانيا، وحملها أبناؤه إلى بقية غرب إفريقيا حيث أعلن الجهاد ضد الوثنيين، وتصادف إعلانه الجهاد مواجهة القوات الفرنسية وملاحقتها له فاضطر أن يغير مجرى جهاده نحو النيجر الأوسط ومناطق البمبارا الوثنية، وقد انتشرت الطريقة التيجانية على نطاق واسع عبر السودان الغربى والأوسط من السنغال إلى برنو[٣].

٣ـ **الطريقة المريدية**: أسسها الشيخ أحمد بمبا عام ١٨٨٦ وانتشرت الحركة بين جماعات الولوف وقت أن كانت بلادهم تتعرض للاحتلال الفرنسى؛ لذا صار الشيخ بمبا فى نظر أعوانه

(١) د. عبد الرحمن بدوى ـ تاريخ التصوف الإسلامى ص١٢ نقلاً عن كتاب الطرق الصوفية فى إفريقيا ص٢٦.
(٢) الطرق الصوفية فى القارة الإفريقية د.عبد الله عبد الرازق إبراهيم ـ دار الثقافة والنشر والتوزيع ـ ص٣٨.
(٣) الطرق الصوفية فى القارة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص٦٦.

ومريدية المخلص من الاستعمار الأجنبى. وتصدت الطريقة لمحاولات الفرنسيين فى السيطرة على السنغال، ووجد الناس فى هذه الطريقة الوسيلة الشرعية التى تجمعهم لمقاومة هذا التوسع الاستعمارى الذى أدى إلى تدمير نظم الحياه المعيشية عند الولوف، وانقسم مجتمع الولوف إلى وحدات متغيرة وتحول عدد من الحكام المحليين إلى جانب السلطة الفرنسية، ومن كان يقاوم من الوطنيين يتعرض للهزيمة أو الفناء أو الهجرة، فكان الانضمام إلى الطرق الصوفية خير بديل للنظام التقليدى الذى سحق فى أماكن كثيرة من القارة. وكانت الطريقة المريدية من أسهل الطرق الصوفية التى وجد فيها المريدون بديلًا عن مجتمع الولوف الذى دمرته الإدارة الفرنسية، ولقيت هذه الطريقة تأييدًا فى المناطق الريفية يفوق سكان الحضر والمدن؛ ذلك لأن الطريقة كانت أكثر تسامحًا فى الملاءمة بين التقاليد الإسلامية والعادات المحلية الوطنية. وبالرغم من أن الشيخ أحمد بمبا أعلن مرارًا أنه لا يرغب فى الدخول فى المسائل السياسية، وأنه يهتم فقط بالأمور الدينية إلا أن السلطات الفرنسية اعتبرت نشاطه تهديدًا مباشرًا لسيادتها على السنغال ونفته مرتين الأولى إلى الجابون مدة سبع سنوات والثانية فى موريتانيا.

لا جدال أن الطرق الصوفية قامت بدور كبير فى المجال السياسى والعسكرى، وتصدت بعنف للموجة الاستعمارية التى اجتاحت العالم الإسلامى والعربى، وكانت القارة الإفريقية بعد طرد المسلمين من الأندلس ١٤٩٢ هدفًا للدول المسيحية لضرب المسلمين ونشر الثقافة المسيحية فى القارة. ومن يطالع تاريخ إفريقيا يجد أن رجال الطرق الصوفية تصدوا للاستعمار والمستعمرين ووقفوا لهم بالمرصاد فى كل مرحلة من مراحل كشف القارة، وكلما اكتشف الأوروبيون منطقة من القارة وحاولوا نشر الديانة المسيحية بها كان المسلمون من رجال الطرق الصوفية ينافسونهم ويتصدون لمحاولاتهم، بل فى كثير من المناطق أغلق المسلمون الباب أمام التحركات المسيحية، وقاموا بدور كبير فى تحويل السكان الوثنيين إلى الدين الإسلامى، وأقاموا دويلات إسلامية تعلن الجهاد الإسلامى، وصارت القارة الإفريقية فى القرن التاسع عشر خلية عمل متصل من الجهاد فى مواجهة جحافل المستعمرين الأوروبيين ورجال التبشير الأوروبى، وتاريخ إفريقيا حافل بالبطولات الإسلامية.

ولكن بالرغم من الدور المشهود للطرق الصوفية فى المجال الثقافى والدينى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى فى القارة الإفريقية إلا أن هذه الطرق بسبب اختلاف مداركها وتعدد انتماءاتها لم تحاول تكوين جبهة ضد العدو الأجنبى، ووصل التنافس بينها إلى حد التعاون مع القوى الوثنية ضد حركات الجهاد الإسلامى الأخرى، وتحالف بعض رجال الصوفية مع

القوى الأجنبية حفاظًا على مكانته أمام منافسة الطرق الأخرى. وقد أضعف هذا التنافس فيما بينها جهودها أمام التيارات الاستعمارية الأوروبية[1].

وموجز القول أن التصوف فى القارة الإفريقية كان أساس البنية الإسلامية ومحور حركاتها الإصلاحية ودعامة الجهاد الإسلامى، وقاد زعماء ومشايخ الصوفية حركات مقاومة عنيدة ولكن جهود هؤلاء لم تجد ما تستحقه من صفوة المؤرخين ووصفوا ايمان هؤلاء بالغيبيات؛ هذه الغيبيات جعلتهم لا يعيشون الواقع ولا يقدرون حقيقة توازن القوى بين الجيوش الاستعمارية والمحاربين المحليين، وظلوا يتوقعون المعجزات التى ترد زحف الغزاة، وكانوا متفرقين غير متحدين يفتقدون الثقة فى بعضهم البعض مما جعلهم يرفضون قبول ما بدا أنه أمر محتوم.

والسؤال هل يمكن أن نعتبر أن هذه الحركات كانت بالية التفكير وغير مجدية، وأن استسلامها أمام قوة عسكرية جارفة استسلامًا حقيقيًا.. إن الأمانة تقتضى أن نعتبر هذه المقاومة المشتتة والمحلية شكلًا من الأشكال المبكرة للوطنية وبداية ظهور الروح القومية.

*****

(١) الطرق الصوفية ـ المرجع السابق ـ ص٢٢٥ـ٢٣٠.

الفصل الأول

أولًا: السودان الغربى

المالك الإسلامية فى السودان الغربى:

١ـ مملكة غانا القديمة.

٢ـ سلطنة مالى.

٣ـ سلطنة صنغى.

٤ـ الغزو المراكشى.

ثانيًا: السودان الأوسط

١ـ مملكة كانم وبرنو.

٢ـ سلطنة البُلالة الإسلامية فى حوض بحيرة تشاد.

٣ـ بلاد الهوسا.

٤ـ دولة رابح.

أولًا: الممالك الاسلامية فى السودان الغربى

قامت الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا (السودان الغربى) بدور مشهود لا يمكن نكرانه أو تجاهله فى مقاومة المستعمرين الغربيين عندما غزوا القارة فى القرن التاسع عشر، وأقدم هذه الممالك مملكه غانا القديمة.

١ـ مملكة غانا القديمة (١٠٧٦ـ١٢٠٧م):

وهى غير غانا الحالية التى تقع على الساحل، وتعد أقدم ممالك إفريقيا الغربية شمال نطاق الغابات، قيل إنها كانت إمبراطورية خضع لها معظم بلاد السودان الغربى، مدى اتساعها ليس معروفًا بالضبط. يصفها د. إبراهيم طرخان فى كتابه «إمبراطورية غانا الإسلامية»[١]. إنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ فى الأراضى الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى، وإنها امتدت من ناحية الشمال وخضعت لها غالبية القبائل الصحراوية وامتدت شرقًا إلى جنوب تمبكتو وجنوبًا بغرب أعالى السنغال وأعالى النيجر، وتقع أطلالها اليوم بقرب الحدود الموريتانية ضمن أراضى جمهورية مالى الحديثة. كان بها جيش كبير قواته مائتى ألف محارب، ٤٠ ألفًا منهم مسلحون بالأقواس والسهام، كانت مملكة صحراوية يستخرج منها الذهب لذلك كان رخاؤها رهنًا ببقاء طريق الصحراء مفتوحًا، ومع توالى الغزو العربى من شمال إفريقيا ظهر خطر اضطراب هذا الطريق، فعندما أحكم بنو أمية قبضتهم على مراكش قاموا بشن هجوم على المنطقة المسماة غانة، وكان هذا الهجوم أول حملة مراكشية ضد أحدى دول إفريقيا الغربية، ولم تكلل الحملة بنجاح[٢]. ومع تزايد قوة القبائل الصحراوية أطاحت بهذه الإمبراطورية وبالممالك المستقرة حولها. وفى القرن الحادى عشر تمكن المرابطون بقياده ابن ياسين (القادم من جزيرة فى نهر السنغال حيث أسس رباطًا) من إخضاعها، واستمرت

(١) إمبراطورية غانا الإسلامية د. إبراهيم طرخان ص٣٠.

(٢) الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجية فى غرب إفريقيا (طبعة ثانية) كمادهو بانكار ترجمة فؤاد بليغ ص٨٠.

غانة تقاوم غزو المرابطين حتى سقطت عام ١٠٧٦م بعد حرب تواصلت دون انقطاع وبسقوط الحكومه الغانية الوثنية أصبح يؤرخ لها بغانة الإسلامية حتى اختفت من الوجود كقوة عظيمة وأخذت المقاطعات التابعة لها تستقل عنها واحدة تلو الأخرى.

٢ـ سلطنة مالى ١٢٠٠ ـ ١٤٩٦م

مالى من أعظم ممالك السودان الإسلامية أسسها شعب الماندنجو فى القرن الثالث عشر واشتهرت باسم بلاد التكرور، تقع جنوب المغرب متصلة غربًا بالمحيط الأطلسى وشرقًا ببلاد برنو وشمالًا بالصحراء وجنوبًا بالممالك الوثنية، اشتملت على خمس أقاليم كل منها كانت مملكة مستقل هى: ١ـ مالى واتخذت الإمبراطورية هذا الاسم، ٢ـ صوصو إلى الغرب من إقليم مالى، ٣ـ بلاد غانه غرب اقليم صوصو وتجاور المحيط، ٤ـ بلاد كوكو شرق اقليم مالى، ٥ـ بلاد التكرور، وهكذا تجد أن مالى قامت فى قلب السودان وفى حوض النيجر وأصبحت غانه بعد ضعفها أحد اقاليم امبراطوريه مالى الإسلامية[1]. وجمهوريه مالى الحديثة هى جزء من دولة مالى الإسلامية التى كانت تعرف قبل استقلالها بإسم السودان الفرنسى لذلك عندما تظهر مالى فى التاريخ فإنما تظهر كجزء من غانة القديمة وكبلد وثنى اعتاد الشماليون الإغارة عليه.

لا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة مالى، وكل ما ذكر عنها أنه فى منتصف القرن الحادى عشر اعتنق ملوك الماندنجو الإسلام، ولكن أهل المملكة ظلوا على وثنيتهم. وفى القرن الرابع عشر فاقت شهرتها دولة غانة القديمة من حيث القوة والثراء والاتساع، وضمت داخل حدودها مناجم الذهب والملح وتحكمت فى طريق القوافل بين هذه المناجم شمالًا وجنوبًا[2].

وبدون الدخول فى التفاصيل الكثيرة غير المؤكدة يعتبر سنديانا هو مؤسس مالى وإن اعتبر المؤرخون ابنه منسى موسى هو البطل العظيم الذى حرر مالى من سيطرة جيرانها وبخاصة شعب الصوصو، وكان منسى شديد التمسك بدينه الإسلامى شديد البذخ والسخاء. يقال إنه عندما ذهب إلى الحج عام ١٣٢٤م دخل مصر ومعه ثمانين حملًا من تبر الذهب زنة كل منها ثلاثمائة رطل، وحاشية تراوح عددها بين ستين ألفًا حسب تقدير المؤرخ السعدى

(١) الوثنية والاسلام ـ المرجع السابق ـ ص٨٧.
(٢) الموسوعة الإفريقية ـ تاريخ إفريقيا ـ المجلد الثانى ص١٧٧.

وعشرة آلاف حسب تقدير المقريزي. ومات منسى عام ١٣٣٧م، وخلفه ابنه الذى لم يستمر حكمه سوى أربع سنوات ثم خلفه أحد إخوة منسى موسى الذى حكم تسع عشرة سنة، وفى عهده تمزقت الإمبراطورية من جراء الخلافات الداخلية، واندلعت حرب أهلية ثم استولى على السلطة مارى جاطه الذى كان رقًا ثم أصبح رئيسًا للرقيق وقائدًا للجيوش، وكان قائدًا قديرًا تمكن من أن يعيد نفوذ الإمبراطورية، وكان هذا آخر حاكم قوى لمالى، وظلت مالى بعده لمدة قرن آخر دولة قوية ولكن الاضطرابات وتمرد شعبى الموسى والصنغى أدى إلى إضعافها وفقدت مالى مقاطعتها الشرقية وقامت دولة الصنغى ١٣٧٥، ومع ذلك ظلت مالى إمبراطورية حربية كبرى فى الغرب ودولة حربية قوية قادرة على الصمود فى وجه الغزوات الأجنبيه.ثم قام حاكم الصنغى بمهاجمة مالى وعجزت مالى عن مقاومة النهب الذى تعرضت له حاضرتها تمبوكتو، وكانت تمبوكتو تأسست فى أواخر القرن الثانى عشر حاضرة الثقافة العربية فى غرب إفريقيا لا تقل عن القيروان أو فاس فى المغرب الأقصى وقرطبة فى الأندلس أو القاهرة فى مصر. وبسقوط تمبوكتو فى أيدى الطوارق انتهى وجود مالى كإمبراطورية بيد أنها استمرت تمارس السيادة كسلطة إمبراطورية على المناطق الغربيه،وإن كانت فقدت الروح العسكرية وبدأت الأقاليم الخاضعة لها تستقل الواحدة تلو الأخرى. وفى عام ١٤٨٠ استنجد ملوكها بالعثمانيين الذين كانوا قد استقروا فى المغرب وطلبوا حمايتهم، ثم استنجدوا بالبرتغاليين، ولكن لا العثمانيين ولا البرتغاليين أسعفوهم من سلاطين مملكة صنغى الذين توغلوا فى ديار مالى، وأصبحت فى القرن السابع عشر مجرد دولة صغيرة حتى ابتلعها الفرنسيون عام ١٨٩٨.

٣ـ سلطنة صنغى الإسلامية ٧٧٧ ـ ١٠٠٠هـ/ ١٣٧٥ ـ ١٥٩١

قامت إمبراطورية صنغى الإسلامية بالتدريج منذ ١٣٧٥ على أنقاض البعض من إمبراطورية مالى، كانت جزءًا من سلطنة مالى حتى عام ١٣٧٥م عندما تحرك ملوك الصنغى منتهزين فرصة الضعف الذى أخذ يظهر فى دولة مالى واستردوا استقلالهم وأصبحت بلاد الصنغى من أوسع الدول التى قامت فى غرب إفريقيا ووحدت كل ما يعرف اليوم بغرب إفريقيا.

بدأت سلطنة صنغى دويلة صغيرة لا تختلف فى قيامها عن سلطنة مالى وغانة، فقد سبق أن تدفقت بعض قبائل مغربية فى حوالى منتصف القرن السابع الميلادى على الضفة اليسرى لنهر النيجر وسيطروا على الزراع من أهل صنغى، ورحب بهم هؤلاء الزراع ليحموهم من

الصيادين الذين كانوا يعتدون عليهم، وكونوا أسرة حاكمة استفادت من العلاقات التجارية مع غانه وتونس وبرقة ومصر. كانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر كبير فى تحول ملوك صنغى إلى الإسلام فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى إبان الحركة الضخمة التى اضطلع بها المرابطون فى ذلك الوقت لنشر الإسلام فى غرب إفريقيا.

رأى ملوك الصنغى أن ينقلوا حاضرة ملكهم إلى جاو، وهى مدينة تقع على نهر النيجر كانت تعد من أفضل مدن السودان الغربى وأكبرها وأخصبها، وكانت جزءًا من سلطنة مالى حتى عام ١٣٧٥ حينما سيطروا عليها وتوسعوا أكثر حتى امتدت حدود بلادهم وشملت المسافة الواقعة إلى منحنى النيجر وجاورهم الطوارق من الشمال، ومن الغرب الماندنجو وهم جماعات وثنية من أهل السودان ، كما امتدت بلادهم شرقًا حتى اتصلت ببلاد كانم وبرنو وتشاد وشملت مدينه تمبكتو وخضعت لهم مملكه الموسى الوثنية، وتسرب نفوذهم إلى شمال نيجيريا.

ويعد أول ملوكها سنى على أو السنى على (١٤٦٤ـ١٤٩٢) من أعظم ملوك الصنغى ومؤسس إمبراطوريتها الإسلامية، واتسم عهده الذى استمر ٢٧ عامًا بالحروب المتواصلة التى أسفرت عن توسيع إمبراطوريته فى كل اتجاه من بلاد الماندنجو والفولانى ومعظم ممتلكات مالى الإسلامية حتى مواطن الطوارق، وبذلك فإن سنى على كوّن إمبراطورية صنغى الإسلامية.

كانت قوة الصنغى شديدة الوطأة على جارتها الدولة الزنجية دولة الموسى الذين ربما كانوا الشعب الوحيد الذى قارب أن يكوّن قومية فى غرب إفريقيا، كانوا شعبًا أكثر اتحادًا ويتمتع بتماسك تفتقر إليه الشعوب الأخرى فى غرب إفريقيا، وظلت هذه الدولة تمارس التهديد على دولة الصنغى حتى أن سنى على فكر فى شق قناه على إحدى مجارى النيجر ليوقف غارات الموسى، ولكن لم يخرج هذا المشروع إلى التنفيذ إذمات سنى على فجأة فى ظروف غامضة.

خلف سنى على أحد قواده اسكيا محمد(واسكيا تعنى لقب القاهر) الذى قاد حركة جهاد لتوسيع رقعة بلاده ونشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه الماندنجو والفولانى فى الغرب والطوارق والبربر فى الشمال وقبائل الموسى الزنجية فى الجنوب والهوسا فى الشرق ومدن كاتسينا وغوبير وكانووزنفر وزاريا، وقد خضعت له هذه المدن عام ١٥١٣، وكان خضوعها بداية ظهور الثقافة الإسلامية فى مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة الإسلامية فى هذا الجزء من شمال نيجيريا.

وبعد موت اسكيا محمد نشبت الصراعات بين ملوك الصنغي مما أضعف الدولة وطمع فيها سلاطين مراكش (المغرب) الذين كانوا يتطلعون إلى مناجم الملح في تغازه والسيطرة على تجارة الذهب، وظل ملوك الصنغي يصدون سلاطين مراكش حتى عام ١٥٨٥ حينما انقسمت البلاد على نفسها فاستغل سلطان المغرب أحمد المنصور الذهبي هذا الظرف وسير جيشًا عام ١٥٩٠ وأستولى على العاصمة جاو. ولكن نصر المغرب لم يحقق أغراضه التي قاتل من أجلها وهو السيطرة على مناجم الذهب في غرب إفريقيا لأن ثروة صنغي لم تكن نتيجة امتلاكها الذهب بقدر ما كانت نتيجة سيطرتها على تجارته القادمة من جنوب مملكة صنغي، وهي تجارة لا تزدهر إلا في ظل الأمن والسلام الذي قضى عليه سلاطين مراكش الذين لم يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية. ولما أدرك السلاطين المغاربة ضعف المزايا التي عادت عليهم من وراء هذا الفتح الذي كلفهم الكثير كفوا عن إرسال الجند والمؤونة اللازمة لقواتهم هناك وتركوا هذه القوات تقرر مصيرها بنفسها فنشأت أسر محلية من الباشوات تدين بالتبعية الاسمية لسلطان مراكش وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد.

هؤلاء الباشوات كان همهم منصرفًا إلى جمع المال وحمل الزعماء المحليين على دفع الإتاوة، وبالتدريج ضعفت قوة بقايا الجيش المغربي مما اضطر الباشوات أنفسهم إلى دفع الجزية إلى الحكام الوثنيين من ملوك البمبارا (جنوب حوض النيجر). وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء الفرنسيون والتهموا المنطقة بأسرها وسموها إفريقيا الاستوائية الفرنسية[١].

الغزو المراكشي

كان الغزو المراكشي من أشد المحن على السودان الغربي، كان بداية النهاية لدول النيجر ومقدمة لانهيار القانون والنظام فيها بل واندثار نظام الدولة في بلاد السودان الذي ظل قائمًا منذ تأسيس دولة غانة.

وتعد علاقه الشمال الإفريقي بالسودان الغربي الذي اشتهر بذهبه علاقات وثيقة وقديمة، وكان غزو هذه المنطقة منذ وقت طويل موضع تفكير حكام مراكش، ولكن كان عبور الصحراء يشكل أول العقبات، كما كانت تقديرات قوة إمبراطوريات السودان كبيرة بدرجة

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص١٨٢ ـ ١٨٨ .

تكفى للتغلب على أية حملة تتمكن من عبور الصحراء. وإذا أخفقت الحملة كان معنى ذلك أن تقطع العلاقات التجارية مع السودان، ويتحول تدفق الذهب عبر مسالك أخرى.

لذلك كانت سياسة المراكشيين هى الإبقاء على الصحراء فى حالة اضطراب، وكانوا يوجهون البربر مثيرى الفتن إلى الاغارة على الصحراء فقد كانوا يقدرون أن خط عبور الصحراء يشكل حاجزًا لا يمكن التغلب عليه، وأن أرباح التجارة مع السودان تتدفق على خزائنهم دون غزو. ومن جهة الإفريقيين لم يكن الصنغى يتوقعون الغزو المراكشى وغامرهم احساس بأن الصحراء الكبرى يمكن أن تحمى ظهورهم مما اعطاهم شعورًا زائفًا بالامن فلم يتخذوا الاحتياطات اللازمة من قبيل تسميم آبار الطريق مثلًا.

وعندما تولى السلطان أحمد المنصور الملقب بالذهبى سلطانًا على مراكش ١٥٧٨ عقد العزم على غزو السودان للفوز بذهبه الكثير، وكانت فكرة غير موفقه من ذلك السلطان الطموح لأن بلاد السودان كانت تقوم فيها دولة الصنغى وهى دولة قويه وبها رجال أقوياء أشداء يعيشون فى صراع دائم مع الوثنيين فى حين أن المغرب الأقصى كان يجنى الثمرات من تجارته مع السودان دون مشقة. وكان على السلطان المنصور الذهبى أن يقدر أن حملة تعبر الصحراء وتقطع ألوف الكيلومترات فى الصحراء لا بد أن تكلف مالًا طائلًا ولا تعود بما يساوى ذلك العناء والتكلفة.

جهز السلطان حملة ١٥٨١ سارت فى فوضى شاملة وهلك فى رمال الصحراء من رجاله المئات، كان هدفها الأول مناجم الملح فى تغرة إذ كانت مصدرًا كبيرًا من مصادر الإيراد لسلطان الصنغى.وبعد خمسة أشهر من رحلة مهلكة فى الصحراء وصلت الحملة إلى بلاد الصنغى، ودارت معارك بين الطرفين ما بين انتصار وهزائم حتى دخل الجيش المراكشى عاصمتها جاو فوجدها خاوية وقد غادرها أهلها، وشعر رجالها بخيبة أمل كبيرة عندما علموا أن مناجم الذهب مازالت بعيدة جدًّا عنهم وأنهم لا بد أن يسيروا قدر ما ساروا فى أرض صحراوية حتى يدخلوا الغابة حيث مناجم الذهب.

يئس سلطان المغرب من بلاد السودان واكتفى بمقادير الذهب الكبيرة التى أرسلتها إليه الحملة الأولى، وترك أمر السودان للجند المغاربة فعاثوا فى البلاد فسادًا ودمروا مدينتى تمبكتو وجاو مركز حضارة الصنغى، وظهرت عصابات المأجورين التى أخذت فى تخريب القرى ونهبها، وكان ذلك أشد البلاء لعامة الشعب من محاربة الدول بعضها ببعض. وقد

اغتنى السلطان أحمد المنصور من وراء هذه المغامرة التى قضى فيها على دولة إسلامية مجيدة فى فجر عصر الاستعمار، وذلك بمقادير الذهب التى كان معظمها ليس من مناجم الذهب وإنما من نهب المدن ومصادرة أموال التجار والناس وأصبحت الثلاثمائة سنة التالية فى تاريخ السودان فترة ممالك سريعة الزوال وحروب مستمرة وغارات من جانب المراكشيين والطوارق، ولم يعرف السودان الغربى عند منحنى النيجر طعم السلم مرة أخرى حتى احتلها الفرنسيون فى القرن التاسع عشر[1].

كان غزو المراكشيين للسودان هو المقدمة لانهيار القانون والنظام فى بلاد السودان الذى ظل قائمًا منذ تأسيس دولة غانة، وكانت الفترة ما بين الغزو وبداية القرن التاسع عشر فترة فراغ كبيرة فى تاريخ هذه البلاد؛ فترة حاول فيها كل من الموسى والبمبرة والفولانى والطوارق والبربر الاستيلاء على العاصمة جاو، ومع ذلك لم تتوقف المقاومة الإفريقية على الإطلاق.

لم تتوقف المقاومة الإفريقية، وأبدى الصنغى مقاومة مشهودة، وعلى الرغم من أن النصر لم يكن حليفهم فإنهم لم يتيحوا للمراكشين فرصة لتدعيم قوتهم بل زادت من تصميمهم على النضال. وفى عام ١٥٩٣ أوقع الصنغى هزيمة بالمراكشيين، وكان للمراكشيين متاعبهم فى الأراضى التى سيطروا عليها، ولكنهم انتصروا مرة ثانية واستولوا على تمبكتو وأنزل المراكشيون بأهلها وعلمائها مظالم وإجراءات بالغة القسوة واستولوا على ثروات البلاد. على أن الإفادة الكبرى لمراكش هى أسر العدد الكبير من الزنوج الذين شكلوا منذ ذلك الوقت جزءًا هامًا من جيشها.

لم يكن بإستطاعة مراكش أن تحتفظ فى السودان بقوات تكفى لإقرار السلام فى منطقة الصنغى. وفى عام ١٦١١ زحف جيش الصنغى نحو الغرب وأخذ المراكشيين على غرة وأوقع بهم هزيمة، وبحلول عام ١٦٢٠ كان المراكشيون قد طفح بهم الكيل تمامًا من السودان.

وبالرغم من أن تمبكتو استمرت تحت حكم المراكشيين فإن نفوذ السلطان المراكشى صار موضع هزء وسخرية، وعمد الفولانى والطوارق والبمبارا إلى تخريب القرى ونهبها.

ولم يحاول المراكشيون التغلغل فى البلاد حتى عام ١٦٣٥ عندما هزموا الصنغى

(١) أطلس التاريخ الإسلامى/ الزهراء للإعلام العربى ص٣٧٦.

مرة أخرى، ومع ذلك بحلول عام ١٦٦٠ كان الحكم المراكشى قد انتهى حتى من الناحية الاسمية(١).

أدى الغزو المراكشى إلى انكماش دولة الصنغى ثم القضاء عليها، وظلت مراكش تحتفظ بنفوذها فى هذه البلاد ترسل منها الامدادات حتى أرهقتها، وأصبح هذا الاحتلال الذى لم يحقق أحلام المراكشيين أو أهدافهم عبئًا ثقيلًا حتى توفى السلطان منصور صاحب الفكرة ووئدت بوفاته فتخلى المراكشيون عن أحلامهم وتركوا السودان يواجه مصيره. وقد أساء الغزو المراكشى بما أعقبة من احتلال وما صاحبه من فوضى ليس إلى الناحية الاقتصادية فحسب بل أيضًا إلى الناحية الثقافية، فإحتلال المراكشيين لتمبكتو ولغيرها من المراكز الثقافية لا يكاد يختلف من حيث آثاره ونتائجه عن غزو المغول لبغداد(٢).

كما أتاح الغزو المراكشى فرصة تاريخية لسيادة الوثنية القديمة من جديد حيث تسبب هذا الغزو غير المبرر فى سقوط صنغى آخر أكبر الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى فى العصور الوسطى إثر موقعة شارك فيها عدد من اليهود والمرتزقة المسيحيين، وكان من آثار هذا الغزو أن وقعت المجتمعات الإسلامية فى ظل السيادة الوثنية التى استعادت قوتها سريعًا، واختفى المسلمون فى المجتمعات التقليدية بثقافتهم التى فقدت الريادة بفقدانها السلطان السياسى، وتقلص النفوذ الإسلامى وهجر العلماء والمصلحون المنطقة وبهجرتهم تلاشت جهود التأصيل وأصبح المجال مفتوحًا للتخليط، وبذلك تم تحييد الإسلام وإفراغه من كل مقومات التحدى لنمط الحياة التقليدية وبدأ المسلمون يكيفون حياتهم على النمط السائد فى المجتمعات الزنجية.

وسعى الاستعمار إلى تطوير هذا الإسلام المشوب ببعض شوائب الوثنية الإفريقية، وعكف لتمكنه فى السنغال وسائر الغرب الإفريقى على العمل بصورة مباشرة وغير مباشرة، لذلك سيظل الخليط أو الاسلام الأسود كما يسميه الغرب صنيعه استعماريه، فعملت على اضعاف اللغه العربيه وصادرت المطبوعات العربية وفرضت حصارًا على حركة اتصال المسلمين فى تلك البلاد بإخوانهم فى مصر وشمال إفريقيا والحجاز، وبعد ذلك بدأت فى محاولات إكساب الممارسات الوثنية التخليطية وزنًا تاريخيًا باعتبارها إرثًا ينبغى الحفاظ عليه(٣).

---

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق ـ ص١٧٦.

(٢) الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص٣٨٠.

(٣) الإسلام وتداخل الثقافات فى السنغال/ جامعه إفريقيا العالمية. د. مهدى ساتى ص١٦٥ ـ ١٦٦.

ثانيًا: الممالك الإسلامية فى السودان الأوسط

١ - مملكة كانم وبرنو الاسلامية ١٠٨٦-١٨٤٦ :

هذا ما كان من أمر السودان الغربى فى العصر الوسيط، أما بالنسبة للسودان الأوسط الذى يتكون من حوض بحيرة تشاد وما حولها من بلدان تمتد من نهر النيجر غربًا إلى دارفور فقد قامت فيه دول إسلامية كان أهمها وأعظمها سلطنة كانم وبرنو الإسلامية وكذلك سلطنة البلالة وإمارات الهوسا الإسلامية. وكانت منطقة تشاد مهد سلطنة كانم وبرنو التى قامت حول البحيرة مما جعلها مركزًا هامًا لالتقاء طرق القوافل المارة إلى أنحاء القارة.

إن دوله كانم وبرنو التاريخية لم يعد لها وجود فى العصر الحاضر، فقد تم تقسيمها فى عام ١٨٩٤ بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا فى غمرة التوغل الاستعمارى الأوروبى، وكان مهد هذه الإمبراطورية منطقة تشاد شرق ممالك الهوسا أى شمال شرق النيجر ونيجيريا. ومن الدول التى تقوم الآن على أنقاضها أو تضم أجزاء منها: ١ـ جمهوريه تشاد وقد شملت أغلب الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية وإقليم كانم بأكمله، ٢ـ جمهورية إفريقيا الوسطى التى تقع جنوب تشاد وتضم الأطراف الجنوبية من إمبراطورية البرنو، ٣ـ جمهورية النيجر وتضم أغلب الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من إمبراطورية البرنو، ٤ـ جمهورية نيجيريا وتضم البرنو الاصلية غرب تشاد، كما تضم جميع ممالك الهوسا، ٥ـ جمهورية الكمرون وتضم الاجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من برنو[١] .

ضمت دولة كانم وبرنو الإسلامية عددًا كبيرًا من القبائل، قبائل الصو والبربر المنحدرين من الصحراء الكبرى التى تقع شمالها، وقبائل الكانورى التى تتكوّن من خليط من العرب والبربر والزنوج وهم يكونون اغلب سكان هذه السلطنة، وكذلك بربر الطوارق العرب الذين يعرفون باسم الشوا، وأدى اختلاط هؤلاء إلى ظهور عناصر جديدة هم البلالة والتنجور والسالمان وغيرهم[٢] .

وينقسم تاريخ هذه السلطنة إلى عصرين، عصر سيادة الكانم ثم عصر برنو، ويقع إقليم كانم فى الشمال الشرقى للبحيرة وإقليم برنو غرب البحيرة. وقد قامت هذه الدولة فى القرن التاسع الميلادى فى إقليم كانم، واستطاعت أن تسيطر على حوض بحيرة تشاد. ومنذ عام

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق ـ ص١٧٧ .

(٢) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص١٩١ .

١٠٨٩ أصبح الدين الإسلامى هو الدين الرسمى للدولة ولم يتولَ حكم كانم بعد هذا التاريخ أى ملك وثنى وأصبحت دولة اسلامية.

اتسعت دولة كانم حتى وصلت إلى مشارف وادى النيل وغربًا قرب نهر النيجر، ولم يكن لدولة كانم حدود واضحة فهى تقع بين منحنى النيجر ودارفور؛ لذلك كانت حدودها المفتوحة فى كل الجهات هى التى أدت إلى ظهور كانم كقوة حربية كبيرة فكان عليها لكى تعيش فى أمان أن تخضع الآخرين الطوارق وغيرهم من قبائل الصحراء الذين كانوا دائمًا ما يفتكون بالسكان المستقرين، كان على كانم إما أن تخضع هؤلاء أو يتمكنوا هم من إخضاعها، لذلك بذلت ما فى وسعها لغزو الآخرين.

وشهد القرنان التاليان توسعًا سريعًا لدولة كانم إذ دعمت قبضتها على حوض تشاد والصحراء الجنوبية، وفى القرن الثالث عشر ظهرت كانم كدولة عظمى وامتدت فى القرن الرابع عشر إلى النيجر غربًا.. وكان اتساع المملكة يحمل فى طياته بذور التفتت والانقسام فمن الشرق تدفق البدو والتجار العرب، وترتب على إغاراتهم أن أخذ الضعف يدب فى أركان الدولة، كما واجهت كانم أعداء آخرين فى مقدمتهم وثنيو الجنوب الاقوياء الذين شكلوا اتحادًا اكتسب درجة كبيرة من القوة فى بداية القرن الرابع عشر.

دب الوهن فى هذه المملكة نتيجة الخلافات والانقسامات بين الأسرة الحاكمة وقيام قبائل الصو التى كانت تسكن إقليم برنو الذين هاجموا عاصمتها، وانتهى الصراع إلى طرد الأسرة الحاكمة فى كانم ففرت إلى إقليم برنو الذى يقع غرب بحيرة تشاد.وكانت مملكة برنو أكثر الممالك شهرة فى غرب إفريقيا ووسطها؛ أسستها أسرة سيفى التى تنسبها الأساطير إلى سيف بن ذى يزن، وظلت هذه الأسرة تحكم حتى القرن التاسع عشر.

وشعب الصو هم السكان الأصليون لحوض تشاد، وحتى بداية القرن الثالث عشر كانت جارتها دولة كانم هى السائدة وبرنو مجرد إقليم فى الأطراف، وكان مركز الإمبراطورية هو حوض تشاد. ويعد القرن السادس عشر فترة عظمة برنو فقد امتدت سيادتها من دارفور إلى الحدود الغربية لبلاد الهوسا، وكان لدى برنو جيش لا يضارعه جيش آخر فى إفريقيا الزنجية كلها. ثم ما لبث أن ظهرت فى حوض البحيرة سلطنة صغيرة هى البُلالة بدأت تناوئ البرنو، وجرت بين البرنو والبُلالة حروب كثيرة انتهت بانتصار برنو حيث وصلت إلى أقصى اتساعها وقوتها وازدهارها على مدى قرنين من الزمان، ثم دب الوهن فيها بتوالى حكام

ضعاف، وحدوث عدد من المجاعات المتلاحقة بلغت خمس مجاعات استمر إحداها أربع سنوات وأخرى سبع سنوات، وأدى تكرار حدوث هذه المجاعات إلى تدهور وضعف عام ونقص الغذاء وأهملت الزراعة وكثرت الفتن والاضطرابات؛ فضلًا عن ظهور قبائل وثنية اجتاحت برنو الغربية.

٢ـ سلطنة البُلالة الإسلامية فى حوض بحيرة تشاد

٧٦٦ـ ١٣٨١هـ/ ١٣٦٥ـ ١٩٠٠م

قامت هذه السلطنة فى بلاد السودان الأوسط فى حوض بحيرة تشاد، وظهرت كدولة منذ عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م، واستمرت حتى بداية القرن العشرين عندما سقطت المنطقة كلها فى يد الاستعمار الفرنسى. ورغم طول مدة بقاء هذه السلطنة إلا أنها كانت تابعة لسلطنة كانم وبرنو فى كثير من فترات حياتها، ويعنى اسمها بُولالا أو بُلالة الأمراء النبلاء. وأصل البُلالة جاء من تصاهر عناصر من البربر والسودان والزنج، وظل البُلالة وثنيين حتى القرن الثانى عشر عندما تحولوا إلى الإسلام.

ظهر خطر البُلالة على سلاطين دولة كانم الإسلامية، وظلوا يتقلبون بين التبعية والتحرر من كانم حتى عام ١٣٦٥م عندما حققوا الاستقلال التام واتخذوا «ماسيو» عاصمة لهم. ونتيجة لعوامل كثيرة أدت إلى ضعف سلطنة كانم وقع إقليم كانم بأسره فى قبضة البُلالة مما جعلهم يحكمون دولة واسعة تمتد من حدود دارفور الغربية وبلاد النوبة السودانية حتى شواطئ بحيرة تشاد الشرقية.

حكم البُلالة إقليم كانم، ثم بدأ الضعف يدب فى أوصالها وبدأت الفتن والاضطرابات والحروب القبلية والصراع الطويل الذى كان بينهما وبين حكام برنو فأخذت تسير فى طريق الانهيار، خاصة أن سلطنات أخرى ظهرت مثل سلطنة واداى التى تقع فى الشمال الشرقى لدولة البُلالة وسلطنة باجرمى التى تقع جنوبها وأخذت هاتان السلطنتان تغيران عليها، ورغم ذلك ظلت البُلالة قائمة حتى بداية القرن العشرين حينما سقطت عام ١٩٠٠ فى قبضة الاستعمار الفرنسى مثلما وقعت بقية السلطنات الأخرى التى كانت قائمة فى حوض بحيرة تشاد، ومع ذلك استمر بعض سلاطين البُلالة يحكمون تحت راية هذا الاستعمار وظلوا كذلك حتى نالت البلاد استقلالها عام ١٩٦٠، ودخلت بلاد البُلالة ضمن حدود جمهورية تشاد الحديثة[١].

---

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص٢١٦ـ ٢٢١.

٣ـ بلاد الهوسا

بلاد الهوسا دولة إسلامية تتكون من عدة دول اشتهرت فى التاريخ باسم دول الهوسا السبع التى أصبحت الآن نيجيريا. وشهدت اغلب هذه الدول الإسلامية حركة الكشوف الجغرافية وحركة الاستعمار الأوروبى. التى طوت صفحة التاريخ القومى لتلك البلاد، ومن هذه الدول ما اصطدم بالاستعمار اصطدامًا طويلًا مريرًا[١].

تشمل بلاد الهوسا ما يعرف الآن بشمال نيجيريا وجزء من جمهورية النيجر. كانت فى العصور الوسطى تقع فى المنطقة المحصورة بين سلطنتى مالى وصنغى غربًا وسلطنة البرنو شرقًا، وقد أعطى لها موقعها امتيازًا خاصًا فإمبراطوريات السودان تحمى مشارفها الشمالية وتقف برنو حائلًا لها من بلاد الشرق، ولم يكن من المستطاع التغلغل فى بلاد الهوسا دون الإطاحة بالممالك البالغة القوة فى بلاد السودان الغربية. ولم يمارس الهوسا قط سيطرة سياسية على جيرانهم بل كانوا دائمًا خاضعين لهم ولكن كان لهم تاريخ حضارى متميز خاص بهم.

ينحدر شعب الهوسا من امتزاج جماعات قبلية وعرقية كثيرة أهمها السودانيون أصحاب البلاد الأصليين والطوارق والبربر والفولا وبعض العرب المهاجرين. وقد منحها موقعها الجغرافى موقعًا تجاريًا فريدًا عوّضها عن افتقارها إلى قوة سياسية فعالة، وزادت سيطرتها على التجارة فى بلاد السودان بعد انهيار سلطنة صنغى أمام الغزو المراكشى عام ١٥٩١م مما أدى إلى تحول المجرى الرئيسى للحركة التجارية مع شمال إفريقيا إلى بلاد الهوسا.

وممالك الهوسا كانت أربع عشرة مملكة، سبعة ممالك أصلية شكلت النواة الأساسية لبلاد الهوسا، وإلى جوارها ممالك سبع أخرى تعرف بأنها أشباه الهوسا[٢]، والهوسا مجموعة لغوية أكثر منها مجموعة قبلية، وهى المنطقة التى التقى فيها السودان بثقافة بنين الخصبة ونقطة التقاء التأثيرات الشرقية والشمالية، كما كانت حدودًا عرقية بين القبائل الشمالية التى تختلف عن القبائل الجنوبية الشرقية، وظل كل صراع يقوم بين هذه القبائل يدفع بأعداد

---

(١) المؤتمر الدولى الإسلامى فى إفريقيا / الكتاب الثامن/ بحث بلاد غرب إفريقيا الاسلامية عبر التاريخ/ السر سيد أحمد العراقى ص٣٦.

(٢) مجموعة ممالك الهوسا الأصلية عرفت باسم هوسا باكواى(أى ممالك الهوسا السبع) هى غربر، زكزك،دورا، كانو، كاتسينا، جاراف جابا، رانو. والمجموعة الفرعية وتعرف باسم بانزا باكواى(أى الممالك السبعة الفرعية) هى زنفرا، كب، ياور،نوبى، يرب أو ايلورين، بزغ، غرم. وكانت كل إمارة مستقلة، وكانت الحروب تندلع فيها بينها نتيجة لأطماع حكامها فى فرض سيطرتهم كل على الآخر.

كبيرة من الناس إلى بلاد الهوسا، وكان عامل التوحيد الرئيسى هو لغة الشعب وثقافته اللتان مكنتاه من امتصاص القادمين الجدد، وبرغم أن الهوسا لم يمارسوا قط سيطرة سياسية على جيرانهم وأنهم كانوا دائمًا خاضعين لهم فإن لهم تاريخًا ممتعًا يفسر حالة الحضارة فى غرب إفريقيا. وكانت ثقافة الهوسا تقف جنبًا إلى جنب مع ثقافة اليوروبا والبرنو وهى الثقافات التى تواصلت على الرغم من الهزائم والفتوحات العسكرية، وعند حلول القرن الثانى عشر اعتنق ملوكها والطبقات العليا فيها الإسلام فى حين ظل الشعب على عقيدته الوثنية.

وقد تميزت بلاد الهوسا على مدن منحنى النيجر بوقوعها فى قلب أكثر مناطق السودان إنتاجية، وبقربها الشديد من المناطق الاستوائية، ورغم أن الحروب العديدة التى قامت بين الهوسا إلا أنها كانت حروبًا لا تعدو كونها وسيلة لمنع ظهور أية قوة منافسة، كانت ممالك الهوسا أشبه بالمدن الدولة فى إيطاليا خلال عصر النهضة هدفها الرئيسى هو الرخاء التجارى.

٤ـ دولة رابح فضل الله

رابح فضل الله من زعماء المسلمين الذين قاموا بدور هام فى نشر الإسلام فى وسط إفريقيا وغربها، واستطاع أن يؤسس مملكة إسلامية واسعة وأن يقف أمام التوسع الأوروبى وخصوصًا الفرنسى فى تلك المنطقة حتى سقطت دولته بعد سبع سنوات من النضال المستمر والكفاح المتواصل ضد القبائل الوثنية تارة والممالك المحلية تارة أخرى والفرنسيين وأعوانهم من الحكام المحليين الذين تآمروا عليه، واستطاع أن يتنقل من سودان وادى النيل إلى وسط القارة وغربها حيث كان مقره حول بحيرة تشاد التى صارت مقرًا لدولته الإسلامية التى لم تعمر طويلًا، وكان من الممكن لهذه الدولة أن تعيش أطول لولا تصادف قيامها مع التوسع الأوروبى وابتلاع المنطقة بأسرها[١].

ولد رابح عام ١٨٤٦ فى إحدى قرى بحر الغزال، وكان ابنًا لأحد ملوك القبائل التى استوطنت حوض بحر الغزال، ونشأ على التربية العسكرية حيث كان والده قد انضم إلى السلك العسكرى المصرى، ثم انضم رابح إلى جيش الزبير باشا رحمت صاحب السلطة الحقيقية فى منطقة (بحر الغزال) والتى أجبرت مصر على الاعتراف بوضع المنطقة تحت حكم الزبير. استفاد رابح كثيرًا من انضمامه إلى الزبير واكتسب منه الخبرة التى جعلت منه

---

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ص١٨٦.

القائد الذى سيلعب دورًا كبيرًا فى ممالك غرب إفريقيا فى كل من البرنو ووداى وعلى شاطئ بحيرة تشاد، وقد حاول الخليفة محمد أحمد المهدى فى السودان أن يعترف رابح بسلطته ولكنه لم يرد على خطاب الخليفة واتجه إلى الجنوب الغربى من دارفور. انطلقت من دارفور وبحر الغزال حركة رابح فضل الله بعد أن رفض الانصياع للمهدى واختار المقاومة، وتحرك بجنوده إلى أن وصل إلى كانم وبرنو، وحينما قرر الإنجليز التخلص من المهدى فى السودان كان رابح قد ملك كل ما كان يعرف بدارفور التى اصبحت تضم مساحة كبيرة من النيجر ومعظم تشاد وأجزاء من الكاميرون؛إذ استطاع رابح بجيشه الصغير أن يهزم سلطان وداى وأصبح الطريق إلى بحيرة تشاد ممهدة أمامه، وفى عام ١٨٨٩ أقام رابح فى المنطقة حكومة على درجة عالية من الاستقرار وامتد نفوذه إلى نهر شارى[(١)]، ثم اتجه إلى مملكة وداى وتوالت انتصاراته وتوسعاته فى المنطقة حتى دانت له كل بلاد برنو وبلغت دولته حوالى ١٥٠ ألف كيلو متر مربع وتضم أكثر من خمسة ملايين نسمة، وكان من الممكن أن يتوسع رابح أكثر إلا أنه اضطر لمواجهة قوه فرنسية تقدمت نحو برنو من الجنوب، وكان هذا بداية الصراع مع الفرنسيين.

رابح والصراع مع القوى الأوروبية:

صارت دولة رابح العقبة الأولى أمام توسعات الدولتين الاستعماريتين فرنسا وبريطانيا اللتان تتنافسان على المنطقة، وكان رابح يمثل مشكلة كبرى أمام لجان تحديد الحدود بين الممتلكات الأوروبية فى غرب إفريقيا، فكان التفكير فى القضاء عليه من أهم أسس الاستراتيجية الأوروبية بشكل عام والفرنسية بشكل خاص، ومن هنا بدأ الصراع بين رابح والقوات الفرنسية، وفرنسا التى كانت قد خططت لضم المنطقة والاتجاه شرقًا نحو بحيرة تشاد والقضاء على قوه رابح. أرسلت عدة حملات ضد رابح استمرت سبع سنوات. كانت المعركة الأخيرة أن أصاب رابح القائد الفرنسى «لامى» بطلقه أردته قتيلًا وأصيب هو الآخر بجرح مميت، وانتهت المعركة بأن لفظ كل من «رابح»و«لامى» أنفاسهما الأخيرة.

واصل ابن رابح «فضل الله» النضال بجيش منهك وسلاح يكاد يكون معدومًا وكان الصراع حينذاك بين الفرنسيين والبريطانيين على أشده فى كل بقاع غرب إفريقيا،فحاول فضل الله أن يتصل بالبريطانيين لعله يجد منهم عونًا وجرت بينهما سلسلة من المراسلات.

---

(١) الوثنية والإسلام ص٣١٧.

أدركت فرنسا أن هذه العلاقة قد تقوض جهودها من أجل السيطرة على دولة رابح، فجدّت فى تعقب فضل الله واشتبكت معه فى معركة عنيفة أسفرت عن مقتله مع عدد كبير من الضحايا.

سقطت مملكة رابح بعد نضال بطولى استمر سبع سنوات من مايو ١٨٩٣إلى إبريل ١٩٠٠ بعد صراع دموى على أراضيه وتكالب محموم بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا، كان جهاد رابح هو وابنه فضل الله ـ الذى حمل لواء النضال من بعده ـ صورة من صور جهاد المسلمين ضد الأوروبيين؛ تلك الصورة التى طمستها الكتابات الأوروبية وأشارت إليها فى عبارات ثانوية على أنها تمرد انتهى مع أول هجمة أوروبية، ولكن تاريخ الرجل سجلته وثائق عديدة ومعارك مدونة فى تقارير رسمية محفوظة فى دور الوثائق الأوروبية تنبض بروح الجهاد وحركات مقاومة إسلامية قادها زعماء أفارقة مسلمون وأفارقة ضد الهجمة الأوروبية الشرسة على القارة الإفريقية فى أواخر القرن التاسع عشر[1].

*****

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ص٢١٧.

الفصل الثانى

المقاومة فى السودان الغربى والأوسط

مقاومة الممالك الإسلامية فى القرن ١٩

١ـ مقاومة إمبراطورية الفولانى.

٢ـ مقاومة اليوروبا.

٣ـ مقاومة إمبراطورية التكرور والبمبارا.

٤ـ مقاومة ساموري تورى للغزو الفرنسى.

٥ـ ثورة الشيخ المحارب محمد الأمين.

مقاومة الممالك الاسلامية فى القرن ١٩

كانت الفترة الممتدة من ١٨٠٠- ١٩٠٠ هى الفترة التى بلغ فيها الغزو والاحتلال الاوروبى لغرب إفريقيا مداه، فلم يحدث من قبل على مر التاريخ المعروف للقارة أن شهدت مثل هذا النشاط العسكرى من الغزوات والحملات ضد الدول والمجتمعات الإفريقية، وفى هذه الفترة كان الإفريقيون جميعًا يتوخون نفس الهدف ألا وهو الدفاع عن سيادتهم وأسلوبهم التقليدى فى الحياة. كانت المقاومة الإفريقية أطول أمدًا، ويرجع السبب إلى الإسلام الذى كان منتشرًا بين شعوب تلك المنطقة، فإن تلك الشعوب عمدت إلى مقاومة الأوروبيين بحماس وإصرار كان يفتقد إليهما معظم من لا يدينون بالإسلام.

وهذا الفصل يتعرض لمقاومة الممالك الاسلامية للغزو الأوروبى فى القرن التاسع عشر، وهو يشمل ممالك السودان الغربى والأوسط أى المساحة الواسعة الممتدة من الساحل الغربى الإفريقى حتى السودان الشرقى سودان وادى النيل؛ لذلك لا يمكن تجزئة المقاومة أو تحديدها بين غرب السودان ووسطه إذ كانت تلك مساحة واحدة ليست محددة الحدود كما هو الحال الآن، دخل شعوبها الإسلام وشيدوا ممالك إسلامية عظيمة كما سبق البيان فى الفصل السابق، وهؤلاء هم من قاوموا الغزو الاستعمارى ببطولة وروح استشهاد سجلها لهم التاريخ.

* * *

دخل الإسلام إقليم غرب إفريقيا عن طريق موجتين إسلاميتين، فى الموجة الأولى انتشر بطيئًا وامتد إلى سبعة قرون ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى، وكانت طلائع الموجة الأولى من الملثمين (الطوارق) الذين نشروا الإسلام سلميًا، أما الموجة الإسلامية الثانية فكانت على أيدى قبيلة الفولانى، وفاقت هذه الموجة خلال قرن واحد ـ القرن التاسع عشر ـ ما حققته الموجة الأولى فى سبعة قرون .

كان انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا فى البداية بفضل هجرات القبائل العربية وقبائل البربر التى أخذت تهاجر إلى غرب إفريقيا باحثة عن ظروف تتشابه مع الحياة السائدة فى بيئتها الأصلية، وترتب على هذا التحرك والهجرات أن اضطرت القبائل المحلية من البربر والزنوج إلى التوسع جنوبًا، وكانت هذه القبائل حلقة الاتصال بين المغرب بشعوبه وثقافته والمحيط الزنجي الذى يمتد إلى بحيرة تشاد. ولما قامت دولة المرابطين فى المغرب زحف دعاتها جنوبًا إلى السنغال حيث تمكن زعيمها الروحى عبد الله بن ياسين من تكوين نواة المرابطين فى جزيرة صغيرة عند نهر السنغال على مقربة من ساحل المحيط الأطلسى، كانت هذه الجزيرة حجر الأساس لقيام دولة المرابطين التى امتدت من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر ودخلوا إمبراطورية غانة الوثنية وفتحوها وصارت إمبراطورية إسلامية. ويعزى إلى دولة المرابطين تأسيس مدينة تمبكتو عند منحنى نهر النيجر (فى دولة مالى الحالية) التى أصبحت حاضرة عربية إسلامية على درجة كبيرة من الأهمية العلمية والدينية والاقتصادية فى إفريقيا الغربية[١].

لم يكن دخول الإسلام فى جنوب الصحراء على يد المرابطين بغرض نشر الاسلام فى المنطقة فحسب وإنما إنشاء كيان إسلامى فيها يعينهم على بسط سيطرتهم على المنطقة بكاملها. مكنتهم الجزيرة الصغيرة النائية على نهر السنغال أن يجمعوا أتباعًا كثر من جنسهم الصهناجة وجيرانهم الولوف والسونكى والفلانيين وغيرهم من شعوب المنطقة ولولا هذا التجاوب من الأهالى لما تمكنوا من إنجاز مهمتهم[٢].

انتشر دعاة المرابطين من السنغال إلى غينيا حتى ساحل العاج والنيجر ودخلوا إمبراطورية غانة الوثنية القديمة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر وفتحوها وصارت إمبراطورية إسلامية حتى انتهت فى القرن الثالث عشر، وقامت على آثارها إمبراطورية مالى الإسلامية ثم دولة صنغى الإسلامية التى توسعت جنوبًا، ولولا الغزو المغربى فى أواخر القرن السادس عشر لكان لهذه الدولة شأن كبير فى بلاد الزنج[٣].

---

(١) مركز دراسات الوحدة العربية- الجماعات العربية فى إفريقيا - دراسة فى أوضاع الجاليات والأقليات العربية فى إفريقيا/ د. عبد السلام بغدادى ص٢٠٧.

(٢) المؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» - المرجع السابق - الكتاب الخامس سعيد جالو ص٢٣٢.

(٣) Islam's Blaok Slaves Ronald Segal.P164.

١ـ مقاومة إمبراطورية الفولانى

بعد تفكك دولة صنغى ساد منطقة السودان الغربى فترة من الفوضى استمرت حوالى قرنين من الزمان حتى نهض الفولانى وقاموا بثورتهم الكبرى مع إشراقة القرن التاسع عشر.

أخذت قبائل الفولانى تنتشر بالتدريج فى السودان الغربى وأعالى السنغال وشقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا فى نهاية القرن الثالث عشر، وصاروا قوة مسيطرة بعد نجاح حركة الجهاد الفولانى بزعامة الشيخ عثمان بن فودى.

والفولانى شعب من الرعاة وبقوا شعبًا رعويًا بعد أن استقروا فى الإقليم الشمالى لنيجيريا وعاشوا حياة المدن وصاروا مسلمين وبعضهم تعمق فى الثقافة الإسلامية ومن هؤلاء كان الشيخ عثمان بن فودى الذى قاد ثورة ضد ملوك الهوسا رغم إعلان هؤلاء انتماءهم للإسلام ولكن أنكر ذلك عليهم واعتبرهم وثنيين، وقاد حركة التجديد الإسلامى لتصحيح الإسلام الذى كان قد امتزج بالتقاليد الوثنية. وفى بداية القرن التاسع عشر صارت ثورته جهادًا وانتشرت فى كل أنحاء بلاد الهوسا.

ولد الشيخ عثمان بن فودى عام ١٧٥٤ فى ولاية سكوتو (شمال نيجيريا) من قبيلة الفولانى. أقام فى النيجر وهو يعتبر أول داعية فى إفريقيا قام بتغير المنكر بالسلاح وأقام دولة تحكم بكتاب الله والسنة على نمط الحكومات الإسلامية الأولى فى صدر الإسلام، ورفض أن يكون المهدى المنتظر على الرغم من استعداد الناس لتقبل ذلك منه لو ادعاه، وظل يلقب أمير المؤمنين حتى توفى عام ١٨١٧، واستمرت دولته التى خلفه فيها أبناؤه تحكم بلاد الهوسا قرنًا من الزمان من ١٨٠٤ـ١٩٠٤[١].

فى مطلع القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٠٤ بدأت الثورة الفودية تحت قيادة الشيخ عثمان فى سكوتو، وكان مجتمع الهوسا يتكون من المسلمين والوثنيين والمخلطين بين العادات الجاهلية والإسلام.وبدأ الشيخ فى استنفار الطاقات الإسلامية ومهاجمة النظام السياسى فى بلاد الهوسا والحكم بعدم إسلاميته ونادى بضرورة الإطاحة به.وتُوجت ثورته بإقامة الخلافة الفودية الإسلامية فى سكوتو وألقت بظلالها على معظم الغرب الإفريقى حتى السودان الشرقى الذى شهد ثورة المهدية فيما بعد.

---

(١) الشيخ عثمان بن فودى ـ إصدار جامعة إفريقيا العالمية ومنظمة اليونسكو ص٤١.

وفى عام ١٨١٢ تأسست إمبراطورية الفولانى على النهج الإسلامى وعلى مبدأ الخلافة، وصار الشيخ عثمان خليفة ولكنه ابتعد عن الحكم من أجل التفرغ للدرس والوعظ وتأليف الكتب الدينية. وانقسمت الإمبراطورية بين شقيقه عبد الله الذى حكم النصف الغربى وابنه محمد الذى حكم النصف الشرقى، ومع وفاة الشيخ عام ١٨١٧ خلفه ابنه وشرع فى دعم الإمبراطورية كخليفة لكل البلاد، ولم يكن الطموح للتوسع مما يمكن وقفه فتحركت جيوش الفولانى فى اتجاه الغرب إلى يوروبا لاند (أرض اليوروبا) حيث سيطروا على الأقاليم الشمالية من الإمارة الجنوبية «أويو» وأخضعوها وأسسوا إمارة ايلورين Ilorin وكانت هذه القاعدة التى انتشر فيها الإسلام بين اليوروبا، وتاريخيًا فإن جيوش الفولانى تحركت شرقًا وصارت إمبراطوريتهم فى حالة حرب مع مملكة بورنو، وانتشرت فى المناطق الشاسعة التى تصل إلى أنهار النيجر والسنغال[١].

وعاشت إمارات الدولة الفولانية (نيجيريا الشمالية) طوال القرن التاسع عشر فى حملات جهاد مستمرة ضد الوثنيين، وكانت على دراسية بخطط المناطق التى يعلنون فيها حروب الجهاد، وبعبارة أخرى عرف المسلمون نظم الحرب لدى القبائل التى يشنون عليها حروبهم.

وضعت قرارات مؤتمر برلين مناطق نيجيريا الشمالية والجنوبية ضمن مناطق النفوذ البريطانى، وبدأت بريطانيا تعمل على بسط نفوذها على المناطق الشمالية الإسلامية التى كانت الشركة البريطانية «شركة النيجر الملكية»[٢] عقدت مسبقًا سلسلة من المعاهدات مع حكام نيجيريا الشمالية.

---

(١) تجارة العبيد فى إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص١١٨.

(٢) الشركات التجارية الأوروبية تلخص قصة الاستعمار الغربى كله الذى بسط سيطرته على العالم فى القرون الماضية، أعملت هذه الشركات أسوأ أشكال النهب الاستعمارى والعنف العنصرى الهمجى الممنهج بهدف استنزاف خيرات الشعوب واسترقاقها وتدمير مقومات الإنسانية. كانت الشركات تأتى فى العلن بهدف التجارة ولكنها بقيت من أجل الحكم، وقد وقفت الاستراتيجية البريطانية خلف هذه الشركات ومنحتها امتيازات شبه سيادية من بينها حق سك العملة فى فروعها الخارجية والاضطلاع بالسلطة القضائية فى المستعمرات وحق تكوين الجيوش المسلحة بل وحقها فى شن الحروب.
كانت الشركات التجارية الضخمة تقوم بالاستحواذ على ثروات شعب بأكمله لمصلحة شركة وحيدة تصب فى النهاية فى الدولة الاستعمارية. وكانت الشركات على استعداد لارتكاب جرائم مروعة لأنها كانت تعلم جيدًا أنه لا يوجد من القوانين فى بريطانيا ولا فى العالم ما يمنعها أو يحاسبها على ارتكاب تلك الجرائم. ويذكر أن شبه القارة الهندية فى عام ١٧٥٠ كانت تنتج ربع الإنتاج الصناعى من الأقطان فى العالم فى حين كانت بريطانيا تنتج فقط ٩ , ١٪ من الإنتاج العالمى. وكانت هذه الأقطان الهندية بضاعة حيوية تتم مقايضتها بالحمولات البشرية من العبيد. لقد استخدم مبدأ تحرير التجارة والتجارة الحرة لتبرير السياسات الاستعمارية غير الإنسانية.
[مقتطفات من كتاب «الشركة التى غيرت العالم» نك روبينز/ مطبوعات مكتبة الشروق الدولية].

قامت بريطانيا بحملات مسلحة بالبنادق سريعة الطلقات ورشاشات مكسيم على ممالك الشمال، وتمكنت بعد مقاومة عنيفة من إخضاع الإفريقين الثائرين سلالة الشيخ عثمان بن فودى، ومما أدهش البريطانيين أن سائر حكام الشمال لم ترهبهم هذه الأسلحة بل قرروا بدافع من كراهيتهم الشديدة للغزاة الكفار أن يقاتلوا حتى الموت دفاعًا عن أرضهم ودينهم.. كان الحكام على مستوى التحدى ولكن لم يكن لديهم ردّ فعّال على رشاشات مكسيم والبنادق والمدافع وغيرها من أسلحة العدو المتطورة. ومع ذلك قاوموها بمواجهات بطولية شهد بها المستعمر نفسه.

دارت المعارك بين طرفين غير متكافئين؛ طرف يحمل أحدث الاسلحة وأحدث ما وصل إليه العلم من وسائل حربية متطورة وتنظيمات عسكرية وجيوش مدربة على أحدث نظم القتال، وطرف سلاحهم الإيمان بالله والدين الإسلامى هدفهم الصمود حتى النهاية دفاعًا عن الدين وحماية لأرض المسلمين ضد الغزاة الأوروبيين حتى سقطت الخلافة الإسلامية فى أيدى البريطانيين ١٩٠٤.

ولما سقطت الدولة ودخلت فى ظل الحكم البريطانى عجز البريطانيون عن تغيير النظم الإسلامية التى ترسخت فى النفوذ ومارسها الشعب طوال قرن.ولم يجد البريطانيون بديلًا أفضل من تلك النظم الإفريقية القائمة فتركوها وأبقوا عليها، ومازال المسلمون فى نيجيريا يشكلون أغلبية السكان، ومازالت نيجيريا حتى الآن أكبر دولة إسلامية فى غرب إفريقيا بل فى القارة الإفريقية كلها، وذلك بفضل جهود خلفاء دولة الفولانى الإسلامية، وبفضل روح النضال والكفاح الذى بذلوه طوال قرن من الزمان، وبفضل حملات الجهاد وإنشاء مدن المرابطين الإسلامية التى كانت ركائز لنشر الدين الإسلامى فى أعماق الصحراء وعلى حواف الغابات الاستوائية.

٢ـ مقاومة اليوروبا ضد الغزو الإسلامى والبريطانى

كان اليوروبا أكثر الشعوب الوثنية مقاومة للفولانى بالرغم من أن أحوال اليوروبا فى ذلك الوقت كانت مضطربة للغاية بسبب الحروب المهلكة فيما بينهم والتى أنهكتهم، وغزوات جارتهم داهومى لهم من ناحية وهجمات الفولانى عليهم من ناحية أخرى. وظن الفولانى الذين أسكرتهم انتصاراتهم على ممالك الهوسا فى الشمال أن بلاد اليوروبا فى الجنوب قد دان قطوفها وأن بإمكانهم محاربة اليوروبا بسهولة، ولكن كان هذا الاعتقاد وهمًا فلم

تكن قوة الفولانى ترتكز على أساس صلب إذ كانوا مشتتين على امتداد منطقةفسيحة للغاية وكان إحكام قبضتهم عليها هزيلًا، وكل ما فعلوه باجتياحهم هذه الأراضى هو إدخال بعض الأهالى فى الإسلام فى حين كان اليوروبا رغم الحروب فيما بينهم قد وقفوا متحدين فى جبهة واحدة أمام الغزو الفولانى واعتبروهم غزاة أجانب، وأصبحت حرب اليوروبا ضد الفولانى نضالًا من أجل صيانة الوجود القومى[1]، ويعد ذلك بداية ظهور وعى قومى إذ عُدّ القتال من أجل طرد الفولانى التزامًا قوميًا ووقفوا فى وجههم جبهة واحدة بالرغم من أنهم استمروا فى ذات الوقت يحاربون بعضهم بعضًا، وهكذا كانت نتيجة عدوان الفولانى نهوض قومية اليوروبا وظهور فكرة القومية إلى الوجود فى غرب إفريقيا.

توغل النفوذ البريطانى إلى معظم بقاع اليوروبا بفضل نشاط المبشرين، وكان عدد من المعاهدات التجارية ومعاهدات الحماية قد أبرم بين البريطانيين وكثير من حكام اليوروبا، ذلك أن شعب اليوروبا كان قد ملّ من حروبه الداخلية، ومن ثم قبل تدخل البريطانيين ماعدا الايجيبو فهى الدولة الوحيدة من دول اليوروبا التى قاومت المبشرين والتجار البريطانيين ورفضت الخضوع للنفوذ البريطانى.

ولكن البريطانيين الذين كانوا قد عقدوا العزم على احتلال بلاد اليوروبا قرروا أن يلقنوا الايجيبو درسًا قاسيًا يُظهر لسائر دول اليوروبا عدم جدوى الوقوف فى وجة أطماعهم، فشنت بريطانيا حملة ضخمة مسلحة بالبنادق والمدافع الرشاشة وألحقوا هزيمة قاسية بالايجيبو. ويبدو أن دول اليوروبا وعت الدرس من هذا الغزو؛ لذلك لم يكن غريبًا أن توافق شعوب اليوروبا على إبرام المعاهدات مع البريطانيين وقبولهم مقيمين فى بلادهم، وما إن حلّ عام ١٩٠٠ حتى كانت جهود الإفريقين للحفاظ على سيادتهم واستقلالهم قد أحبطت[2].

٣ـ مقاومة إمبراطورية التكرور والبمبارا

انتشر الإسلام فى غرب إفريقيا عندما ظهرت طلائع المرابطين الذين جاءوا من المغرب الأقصى ودخلوا عن طريق سهل المحيط الأطلسى واتجهوا جنوبًا حتى حوض السنغال، ولكنهم لم يتوسعوا أكثر جنوبًا بسبب الغابات الاستوائية وبسبب مقاومة أهالى البلاد الوثنيين وخصوصًا شعب البمبارا.

---

(١) الوثنيه والإسلام ـ المرجع السابق ـ ص٣٤٧.

(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٤٦.

كوّن المرابطون ممالك ومدن إسلامية عديدة في السودان الغربي، ونجحوا في إرساء أسس العقيدة الإسلامية على أسس صحيحة بعد أن اختلط فيها الإسلام بالعادات الوثنية فكان من الضروري قيام حركات إصلاحية لتصحيح العقيدة، وتصادف قيام هذه الحركات الإصلاحية مع بدايات التوسع والتكالب الأوروبي على مناطق القارة فصار جهادها في جبهتين: جبهة ضد الأهالي الوثنيين وجبهة ثانية ضد الغزاة الأوروبيين، وهذا ما أعطى المسلمين صفة دوافع جهادية ضد ما اعتبروه من الحروب الصليبية والتي سجل فيها زعماء الإسلام بطولات فائقة ووقفوا سدًا منيعًا ضد محاولات التوسع الأوروبي[١]. ومن أبرز هذه الزعامات الحاج عمر الفوتي التكروري الذي أعلن عام ١٨٥٢ الجهاد ضد الوثنيين في السودان الغربي، واستطاع خلال عشر سنوات أن يسيطر على مناطق السودان من حدود تمبكتو حتى حدود السنغال، واعتبر رسالته المقدسة هي تنقية الإسلام في السودان الغربي مما علق به من شوائب، ووضع حد للوثنية وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومن هنا وضع نفسه على رأس دولة إسلامية[٢]، واتبع أسلوب العنف في تحويل الأهالي الوثنيين إلى الإسلام. بدأ الجهاد بالزحف بقواته تجاه الشمال ودخل عاصمة البمبارا ثم اتجه بقواته نحو الشرق وحقق انتصارات بعيدة المدى ضد الشعوب الوثنية، ونجح نجاحًا ملحوظًا في تحويل الوثنيين إلى الإسلام.

وعمر الفوتي عالم سياسي مجاهد من قبيلة التكرور في منطقة فوتاتورو في غرب إفريقيا، اشتهر بعلمه الواسع وتقواه وكان من أشهر دعاة الطريقة الصوفية التيجانية في غرب إفريقيا. وفي عام ١٨٤٥ استقر في منطقة على حدود الفولانيين المتاخمة لفوتاتورو وبدأ في تأسيس الدولة التيجانية وذلك بتجنيد الفولانيين والتكرور، ثم جذب إليه الرجال الطموحين بأعداد كبيرة من الجماعات المختلفة وسلّحهم بأسلحة حديثة حصل عليها من التجار من الساحل[٣].

وفي عام ١٨٥٤ سيطر الحاج عمر الفوتي على معظم أعالي نهر السنغال، وحاول تحسين علاقاته مع الفرنسيين مقابل الحصول على أسلحة وذخيرة فرفض الفرنسيون وبدأ العداء

---

(١) المسلمون والاستعمار الأوروبي في إفريقيا - المرجع السابق - ص٨٠.

(٢) امتدت دولة عمر الفوبي من غينيا إلى سيجو في مالي، وكانت الثقافة الإسلامية هي السائدة واللغة العربية لغة التكامل والعلم حتى جاء الاستعمار الفرنسي الذي قضى عليها.

(٣) الموسوعة العربية الإسلامية/ العدد ١٧ الطبعة الثانية ١٩٩٩/ مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع فهرسة مكتبه الملك فهد الوطنية ص٥٨٥/ المملكة العربية السعودية.

صريحًا بينهما، قام الحاج عمر بمصادرة بضائع الفرنسيين على طول نهر السنغال وهاجمت قواته القلعة الفرنسية، أدرك الفرنسيون أنهم يواجهون حربًا مثلما حدث فى الجزائر، وأن الحاج عمر ينظم لثورة عامة ضدهم، فاشتبكوا معه فى عده معارك شعر بعدها الحاج عمر أنه لا يستطيع مواجهة الأوروبيين فى هذه المنطقة واتخذ قراره بإنشاء دولة متكاملة فى الشرق بعيدًا عن النفوذ الفرنسى.

حاول تحسين العلاقات مع الفرنسيين حتى يتفرغ لدولته الجديدة، ولكن الفرنسيين كانوا قد خططوا على تقوية مكانتهم على حساب إمبراطورية الحاج عمر وبدأت السياسة التوسعية الفرنسية للقضاء على هذا الزعيم المسلم، وأدرك هو أن أطماع الفرنسيين لا حدود لها وأن محاولات الصلح ما هى إلا مرحلة مؤقتة فى خطط الفرنسيين لا بتلاع ممتلكاته وضمها للسيطرة الفرنسية؛ لذا قرر الاتجاه إلى منطقة النيجر على أمل التحالف مع زعماء المسلمين هناك فى محاولة لتوحيد صفوف المجاهدين ضد عدو أجنبى يطمع فى السيطرة على بلادهم، ولكن هؤلاء الحكام المسلمين خافوا منه وتصوروا أنه جاء لغزوهم والقضاء عليهم فتحالفوا ضده واضطر للدخول فى حرب ضدهم. وفى عام ١٨٦٣ قامت ثورة ضده اشترك فيها البمبارا الوثنيون والفولانى المسلمون، ولم يعد للحاج عمر أى حلفاء فى المنطقة وتعقبوه حتى استشهد فى فبراير ١٨٦٤ وهو يناضل من أجل دولته الإسلامية وضد التوسع الفرنسى، وعلى الرغم من أن موته لم يحدث فى معركة مع الفرنسيين فقد عده المؤرخون أول زعيم أفريقى يقاوم الاستعمار الفرنسى فى غرب إفريقيا[١].

حارب الحاج عمر فى ثلاث جبهات: حرب ضد الوثنيين فى الغرب، وحرب ضد المسلمين فى الشرق، وحرب ضد الاستعمار الفرنسى. ونشر الطريقة التيجانية فى المنطقة التى دانت لسيطرته ما بين نهر السنغال ونهر النيجر، ورغم سقوط امبراطوريته للسيطرة الاستعمارية إلا انها استمرت تقاوم التبشير المسيحى، وتمارس حياتها الدينية وحافظت على تراث الإسلام أمام موجات الغزو والتوسع الاوروبى والتبشير المسيحى[٢].

استشهد مؤسس إمبراطورية التكرور عمر الفوتى عن عمر يناهز السبعين عامًا وخلفه ابنه أحمدو. كان أحمدو شأنه شأن معظم الحكام الإفريقين مصممًا على إنقاذ إمبراطورية

---

(١) الإسلام وتداخل الثقافات فى السنغال/ جامعة إفريقيا العالمية، د. مهدى ساتى ص١٨٤.
(٢) المسلمون والاستعمار الأوروبى لإفريقيا ص١١٧.

والحفاظ على استقلالها وسيادتها، وفى سبيل ذلك اتبع استراتيجية التحالف وسياسة الجابهة أيضًا، وهو وإن كان اعتمد على الاستراتيجية الأولى أكثر من اعتماده على الثانية، فقد ظل منذ اعتلائه الحكم وحتى عام ١٨٩٠ ملتزمًا بسياسة التحالف مع الفرنسيين، ولم يلجأ إلى الحرب الا فى السنتين الأخيرتين، وقد اضطر إلى ذلك لأنه فى بداية حكمة فرض عليه القتال فى ثلاث جبهات: ضد إخوته الذين كانوا لا يعترفون بسلطته، وضد رعاياه (البمبارا والماندنجو والفولانيين وغيرهم) ممن كانوا يمقتون حكامهم الجدد من التكرور، وضد الفرنسيين. ومما زاد من محنته أن الجيش الذى استعان به أبوه فى بناء إمبراطوريته كان قد ضعف عدديًا، كما حاول إخوته الإطاحة به ١٨٧٢، واندلعت ثورات البمبارا فاحتاج إلى السلاح واضطر إلى التفاوض مع الفرنسيين وسمح للتجار الفرنسيين بمزاولة التجارة فى إمبراطوريته مقابل تزويده بالمدافع والاعتراف بسلطته، ولكن الإدارة الفرنسية لم تصدق على هذا الاتفاق، ولم يتلق أحمدو أى سلاح بل ظل الفرنسيون يساعدون المتمردين وبالذات البمبارا الذين كانوا أعظم قوة حربية فى السودان الغربى بعد سقوط الصنغى.

وفى عام ١٨٨١ بدأ الفرنسيون غزو الإمبراطورية تحت القيادة العسكرية الفرنسية الجديدة لأعالى السنغال، واحتلوا مدينة ماباكو على ضفاف النيجر دون أية مقاومة. وكان رد فعل أحمدو أنه حظر بيع أى شيء للفرنسيين فى بلاده. وفى عام ١٨٨٩ شن الفرنسيون هجومًا عليه، وعندئذ فقط تخلى أحمدو عن سلاح الدبلوماسية ليمسك بسلاح المقاومة العسكرية، ولكن الفرنسيين أنزلوا هزيمة ساحقة بجيشه مستخدمين مدافعهم وأسلحتهم الحديثة فهزم جيش التكرور ونفى أحمدوا فى بلاد الهوسا ولكنه ظل حتى وهو فى منفاه مصممًا على موقف «الاستقلال دون تنازلات إزاء الفرنسيين».

قارب نضال التكرور ضد الفرنسيين مدة نصف قرن أرهق فيها المسلمون الفرنسيين الذين اضطروا إلى تغيير القيادة أكثر من مرة، وتحملت الميزانية الفرنسية نفقات كثيرة وتكبدت القوات الفرنسية أعدادًا كبيرة من القتلى والجرحى. ورغم سقوط الإمبراطورية سياسيًا إلا أن أتباع الحاج عمر واصلوا الجهاد الإسلامى من امثال ساموري تورى والشيخ محمد الأمين فى أعالى النيجر والسنغال.

مقاومة البمبارا:

كان البمبارا أعظم قوة حربية فى بلاد السودان وأكثر القبائل الوثنية أهمية. ولفظ البمبارا يُطلق على كل القبائل الوثنية فى المقاطعات الغربية من بلاد السودان. وكانوا أصلًا خاضعين

لإمبراطورية مالى، ومع انهيار تلك الإمبراطورية سنحت الفرصة لهم بالتوسع فشرعوا يبسطون نفوذهم على بلاد السودان منذ منتصف القرن السابع عشر.

لم يكن البمبارا شعبًا متحدًا بل كانوا منغمسين فى حروب مستمرة، ولم تفلح محاولات جمع شملهم فى مملكة واحدة، ومع ذلك استطاع البمبارا مد سلطتهم إلى تمبكتو ،غزوها وأرغموا حكامها على الاعتراف بهم أسيادًا لهم.

كان عام ١٨٠٨ بداية فترة جديدة فى بلاد السودان إذ بدأ جهاد الفولانى فى بلاد الهوسا وأصبح ازدهار الاسلام ملموسًا فى بلاد السودان الأخرى، وواجه البمبارا الوطأة الشديدة من هذا الازدهار. وكان أحمدو الفولانى أول المنادين بالجهاد فى بلاد السودان حيث التحم بجيش البمبارا ١٨٨١ وأوقع هزيمة به،واستمرت الحروب بين الفولانى والبمبارا سجال بين انتصار وهزائم، وظل البمبارا يقاتلون على الرغم من هزائمهم المتكررة. فى ذلك الوقت كان تغلغل الفرنسيين فى بلاد السودان يمضى سريعًا فى طريقه. وقد رحب البمبارا بالفرنسيين كمخلصين لهم ولكن سرعان ما ثاروا عليهم بعد فوات الأوان وسحقهم الغزو الفرنسى.

٤ـ مقاومة ساموری توری للغزو الفرنسى:

يعتبر ساموری توری من الزعماء الأفارقة الذين لعبوا دورًا هامًا فى القارة الإفريقية واستمر فى مقاومة الغزاة الأوروبيين حوالى عشرين عامًا من ١٨٨٠ حتى القبض عليه عام ١٨٩٨ بعد أن كان أسس دولة إسلامية فى منطقة أعالى النيجر.

وساموری توری واحد من الشخصيات الأسطورية فى غرب إفريقيا يُعرف بالبطل الكبير المناضل من أجل حرية غرب إفريقيا وتشخيصًا للمقاومة الإفريقية. كان زعيمًا ثوريًا على غرار معظم زعماء السودان الغربى فى القرن التاسع عشر ـ زعيمًا دينيًا وسياسيًا ـ والحقيقة أنه وجُد فى بلاد السودان فى خلال هذا القرن زعماء كثر يحملون القرآن بيسارهم والسيف بيمينهم ـ كان جنديًا على جانب كبير من المهارة، وظل يشن حرب عصابات على الفرنسيين ما يقرب من عشرين عامًا. مارس ساموری نشاطه على حدود سيراليون وساحل العاج وغينيا وليبيريا، كانت خططه غاية فى البساطة إذا ما ركز البريطانيون قواتهم ضده انتقل إلى أراضى الفرنسيين والعكس، وإذا ما قام الفرنسيون بغزو مناطقه سرعان ما يحشد جيوشًا جديدة ويغزو مناطق جديدة.

ولد ساموری ۱۸۳۳ من عائلة إسلامية مجاهدة من جماعة التوری، وعرف الكثير عن الجهاد الإسلامی الذی دار فی المناطق المجاورة، وتدرب علی فن قيادات جماعات الإغارة علی القبائل الأخری، واكتملت شخصيته بعد أن جمع حوله أعداداً كبيرة من الشباب الذين وجدوا فيه قائدًا يجمع شملهم.

بدأت معرفته بفنون الحرب عندما سجنت أمه من قبل عائلة خصمه، وبما أنه لم يكن يملك المال الكافی لشراء حريتها فقد دخل فی خدمة هذه العائلة علی أساس أن يكون جنديًا مقاتلًا لهم مقابل إطلاق سراحها، وكرّس نفسه لمهنته الجديدة وهی الحرب والقتال، وكوّن جيشًا دربه علی درجة من الجدية والقسوة بما لا مثيل لهما فی إفريقيا ثم شرع فی تشييد مملكته عام ١٨٧٠.

كوّن أول مملكة إسلامية صغيرة فی هذه المنطقة (منطقة أعالی النيجر) بعد انهيار الممالك الإسلامية الكبری مالی وصنغی. درب جيشًا وزوده بأسلحة حديثة حصل عليها من تجار الساحل ومن الأهالی ومن البريطانيين المقيمين هناك، وبعدما وصل هذا الجيش إلی ذروة استعداده بدأ ساموری بالإغارة علی القری والمراكز التابعة للفرنسيين، وأرسل إلی سلطان التكرور يطلب منه التحالف معه ضد هذا العدو الأوروبی. وكان عاما ١٨٨١-١٨٨٢ بداية مواجهة عنيفة بينه وبين الفرنسيين. كان ساموری انتهی من توحيد الشطر الجنوبی من مناطق السافانا علی طول غابات غرب إفريقيا الكبری فيما بين المناطق الشمالية من سيراليون حتی ساحل العاج بحيث أصبحت هذه المنطقة إمبراطورية واحدة لا ينازعة فيها منازع. وفی عام ١٨٨٢ حدث أول صدام بينه وبين الفرنسيين عندما أخطرته القيادة العليا الفرنسية لأعالی السنغال والنيجر بالانسحاب من مدينه كينيزان التی كانت مركزًا تجاريًا هامًا، ورفض ساموری هذا الأمر وعقد عزمه علی المواجهة الكبری بينه وبين الفرنسيين. وبالرغم من أن الفرنسيين كتب لهم التفوق إلا أنهم وجدوا أنفسهم بين الخراب والعزلة لأن الإمام ساموری أمر السكان المحليين بترك المناطق التی يقترب منها الفرنسيون مع أخذ كل المؤن والمواد الغذائية وتدمير القری، ثم انسحب من أمام الفرنسيين وواصل تقدمه شرقًا بعيدًا عن توغل الفرنسيين داخل إمبراطوريته، فاحتلت فرنسا الجزء الغربی من إمبراطوريته ووصلت إلی حدود سيراليون، واضطر ساموری إلی توقيع معاهدة مع فرنسا اعترف فيها بملكية الفرنسيين للضفة اليسری من النيجر.

لم يكن فشل ساموری مرجعه افتقاده إلی المهارة الحربية أو الفطنة السياسية وإنما

كان وجود الأوروبيين هو مصدر سوء حظه إذ كانت فرنسا تبسط نفوذها ببطء على الأجزاء الغربية من بلاد السودان، كما واجه ساموري متاعب من جانب آخر فقد كان يحصل على السلاح من البريطانيين الذين وجدوه أفضل طريقة تشغل الفرنسيين. وما إن وقف الفرنسيون والبريطانيون فى وجه بعضهم البعض متنافسين على الحدود فى منطقة ساحل الذهب حتى أخذ ساموري تساوره الرغبة فى الحصول على السلاح من البريطانيين فقرر التحرك صوب حدود ليبيريا، ولكن الفرنسيين واصلوا مطاردته بعنف وأخذوا يهاجمون جيشه بضراوة[1]. وهنا ارتكب ساموري غلطة كبرى عندما قرر التحرك ناحية الغرب عبر الغابات الاستوائية فى فصل الأمطار حيث واجه خطر المجاعة الكبرى، وكان هذا الخطأ قاتلًا وفادحًا كلف ساموري حياته وضياع دولته، وعندما قامت القوات الفرنسية بالهجوم على قواته رفض الاستسلام وقرر الصمود حتى النهاية وواصل الحرب حتى وقع أسيرًا، وباغته أحد عملاء الفرنسيين وهو يؤدى صلاة العشاء وقطع رأسه، ولكن حركة ساموري تورى لم يقض عليها بموته ١٩٠٠ إذ واصل حركة المقاومة بعده حفيده أحمد سيكوتورى الذى صار أول رئيس لجمهورية غينيا التى حصلت على استقلالها[2] ١٩٥٨.

وهكذا انتهت حركة مقاومة أفريقية إسلامية استمرت نحو عشرين عامًا ضد القوى الاستعمارية، وأصبح ساموري هو البطل القومى لغرب إفريقيا، وتحولت حملاته ضد الفرنسيين برغم عجزه أمامها أسطورة وطنية. وكانت محاولته بناء إمبراطورية تمتد من السنغال إلى «ماسنة» تشكل تهديدًا حقيقيًا لفرنسا، ولكن لسوء حظ ساموري أنه بدأ النضال من أجل نشر العقيدة وإخضاع القبائل الوثنية فى نفس الوقت الذى راحت القوى الاستعمارية تبسط نفوذها على القارة الإفريقية بعد قرارات التقسيم فى مؤتمر برلين.. كان ظهور ساموري ودعوته للجهاد وتكوين إمبراطورية إسلامية تلازمت وتواكبت مع التكالب الاستعمارى على إفريقيا.

٥ـ ثورة الشيخ المحارب محمد الأمين:

كانت السنغال فى نظر فرنسا أهم المناطق فى غرب إفريقيا، وتطورت فيها السياسة الفرنسية. فى البداية عملت فرنسا على مهادنة القوى الوطنية دون الإقدام على احتلالها أو

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق ـ ص٣٤٣.
(٢) المسلمون والغزو الأوروبى لإفريقيا ص١٧٧.

غزوها، ولكن بانتصارات القوى الوطنية تغيرت هذه السياسة كليًا واستخدمت فرنسا القوة العسكرية لإخضاع الأهالى واتخذت السنغال قاعدة للتوسع نحو المناطق الداخلية، وما استتبع ذلك لتدعيم سيطرتها والقضاء على المقاومة الوطنية فيها[١].

كان قد بدأ الغزو الفرنسى للسنغال عام ١٨٥٤، ولكن فرنسا لم تستطع فرض حمايتها على دول أعالى السنغال إلا عام ١٨٦٠ عندما نجحت فى الحصول على قواعد راسخة لعملياتها، ولم يحصل الفرنسيون على ذلك إلا بعد مشقة ومقاومة عنيدة من حاكمها الإفريقى لات ديور ديوب الذى اتبع استراتيجية المواجهة مع الفرنسيين وأصدار أوامره إلى كل رؤساء القبائل بإيقاع العقاب لكل فرد من رعاياهم يتعاون مع الفرنسيين أو يقبل العمل فى الخط الحديدى الذى كان يزمع الفرنسيون إنشاءه. وخرج لمحاربة الفرنسيين وهو عاقد العزم على أن يضحى بحياته فى سبيل ذلك اتخذاه موقعًا عند الخط فى تلك المعركة هو وولداه و ٨٠ من أنصاره، كان ذلك فى عام ١٨٨٢[٢].

ويعد الشيخ محمد الأمين من أهم الشخصيات الإفريقية التى لعبت دورًا مشهودًا فى مقاومة الفرنسيين، وكان قد التقى بالحاج عمر الفوتى التكرورى فتأثر به واقتفى أثره وخطاه فى تكوين إمبراطورية على غرار إمبراطورية التكرور التى أسسها الحاج عمر.

فيما بين أعوام ١٨٦٨ـ ١٨٦٩ أدى الأمين فريضة الحج وعند عودته إلى بلاده وقع أسيرًا فى يد قوات أحمدو شيخو زعيم التكرور فمكث حوالى سبع سنوات فى أراضيه مما كان له أكبر الأثر فى توتر العلاقات بين الطرفين، وهذا ما جعل الأمين يعلن فى بداية ثورته أن جهاده موجه إلى عدوه الأول السلطان أحمدو سلطان التكرور، وأنه لا يكنّ للفرنسيين عداء، ولكن سرعان ما اكتشف الفرنسيون أن جهاده موجه ضد الوجود الفرنسى الأجنبى وأن إعلانه الجهاد ضد القوى الوثنية فى المنطقة ما هو إلا حيله لتغطية هدفه.

بدأ الصدام الحقيقى بين محمد الأمين والفرنسيين عام ١٨٨٥ عندما بدأ الأمين مراسلة المدن المجاورة وأعلن عن برنامجه الذى تلخص فى إعلان الجهاد وتطوير الجيش وتزويده بأحدث الاسلحة وتحسين علاقاته بجيرانه.

والحقيقة أن ثوره الأمين فى إقليم السنغال الأعلى كانت موجهة ضد السيطرة الأجنبية،

---

(١) بحوث ودراسات وثائقية فى تاريخ إفريقيا الحديث (المرجع السابق) ص٦١.

(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٣١.

وكان شعب الإقليم بعضه خاضع لسلطة الفرنسيين والبعض الآخر للسلطان أحمدو، وكانت أشغال إقامة خطوط البرق والسكك الحديدية وظروف العمل المرهقة ومعيشتهم السيئة قد أدت إلى ارتفاع نسبة الوفيات بين العمال مما أثار حركة احتجاج لا على المذلة التى كانوا يخضعون لها فحسب بل على الوجود الأجنبى فى المنطقة. وقد ساعد ذلك الأمين على انتشار حركته وجمع حوله ضحايا هذا النظام القدامى والجدد ودعا إلى محاربة الفرنسيين، فثارت ثائرة الأهالى على الفرنسيين وحلفائهم من الإفريقيين.

وفى عام ١٨٨٦ هجم الأمين على «باكل» التى كانت رمزًا للوجود الفرنسى فى المنطقة وفرض حصارًا على المدينة واحتل بقواته كل الطرق الموصلة إليها وحاصر الحصن الفرنسى واستولى على القرى المحيطة به، كما قطع طريق المواصلات لمنع وصول الإمدادات إلى الحصن. وحقق الأمين انتصارات كبيرة وألحق عدة هزائم بالفرنسيين، وعندما كانت قواته قاب قوسين أو أدنى من النصر أصيب مقر قيادته بقذيفة مدفعية دمرته تمامًا، وأعقب ذلك اضطراب شديد وفر جنوده. أدرك محمد الأمين أنه لن يستطيع بما لديه من أسلحة هزيلة أن يستولى على مواقع الفرنسيين الحصينة ومن ثمّ لجأ إلى حرب العصابات[1]، ولكن التحالف الذى كان قائمًا بين الفرنسيين والعناصر الإفريقية الموالية لهم عجل بفشل جهوده واضطر فى نهاية الأمر إلى الفرار أمام كثافة الهجمات الفرنسية وقُبض عليه وقُتل. وبموته انتهت المقاومة العنيفة التى واجهت الفرنسيين فى السنغال مما أتاح لهم فرصة العمل على تقوية مراكزهم وإعادة مواصلاتهم واتخاذ السنغال قاعدة للتوسع نحو المناطق الداخلية لسحق المقاومة الوطنية فيها.

الحقيقة أن جهاد الشيخ الأمين كان قصيرًا فى مداه عميقًا فى مغزاه قويًا فى أثره عنيفًا فى تنفيذ أهدافه. اتسم جهاده بالعنف والصلابة وقوة الإصرار على متابعة جهاده رغم وقوف الأعداد له بالمرصاد؛ لذا كان جهاده من نوع خاص وفى فترة قصيرة لم تتجاوز العامين ووسط ظروف بالغة القسوة، العدو الأجنبى يتربص به والقوى المحلية تحيك حوله المؤامرات، لكنه وسط كل هذا قاوم وناضل وحمل السلاح وأعلن الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية رغم صعوبة الظروف، وتحدى كل من وقف فى طريقه من القوى المحلية والخارجية، وأجبر عددًا كبيرًا من الوثنيين على الدخول فى طاعته، كما انضمت إليه جماعات أخرى كثيرة وجدت فيه

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٥٢.

مجسدًا لآمالهم ومحققًا لأهدافهم وباعثًا لشعبه فكانت حركته قومية إسلامية جهادية وصار بطلًا قوميًا لشعبه. قاوم الحكم الفرنسى الأجنبى وقاوم القوى المحلية والتوسع الفرنسى حتى يتمكن من تحقيق الهدف الذى كرس له حياته إلى أن لقى الشهادة وهو يدافع عن الدين الإسلامى، وكان من أوائل من مارسوا حرب العصابات ضد الفرنسيين حتى اشتهر بالشيخ المحارب، ورغم أن نضاله وجهاده لم يستغرقا وقتًا طويلًا إلا أن الأثر الذى تركاه كان عميقًا ليس فقط فى تاريخ هذه المنطقة بل فى غرب إفريقيا بشكل عام [١].

إن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن زعماء حركات الجهاد الإسلامى رفضوا جميعًا الاستسلام للقوى الأوروبية رغم كل العروض المادية والمعنوية التى عرضها عليهم الأجانب المستعمرون وفضلوا القتال والصمود حتى النهاية. وكانت السمة الغالبة على كل الزعماء هى الصوفية وحركات الجهاد بالموت والاستشهاد الطاهر فى سبيل الله والمقاومة حتى آخر لحظة من العمر فاستشهد الخليفة محمد الطاهر فى دولة سوكوتو واستشهد الحاج عمر الفوتى ورابح فضل الله والحاج محمد الأمين.

وانتهت هذه الحركات الجهادية جميعًا بعد أن بسط الأوربيون نفوذهم على تلك المناطق الإسلامية، ولم يكن القضاء على هذه الحركات بسبب ضعف أو تقصير ولكن لأنها كانت تحارب على جبهتين جبهة محلية وثنية وجبهه خارجية أوروبية، كما كان العامل الحاسم فى القضاء على هذه الحركات نابعًا من استخدام الأسلحة الحديثة ضد القوى الإسلامية التى كانت تستخدم أسلحة تقليدية لا يمكنها أن تجارى هذه الأسلحة الأوروبية.

*****

(١) المسلمون والاستعمار الاوروبى لإفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص١١٩.

الفصل الثالث

السودان الشرقى «سودان وادى النيل»

- الخلفية التاريخية للسودان قبل القرن التاسع عشر
- السودان بعد الفتح الإسلامى:
- ١-دولة الكنوز الإسلامية
- ٢- سلطنة الفونج الإسلامية
- ٣- سلطنة دار فور الإسلامية
- السودان فى القرن التاسع عشر:
- ١-فتح السودان
- ٢- المقاومة الوطنية (الثورة المهدية)
- السياسة الاستعمارية فى السودان :
- ١-سياسة عدم التدخل
- ٢- إخلاء السودان
- ٣- اقتسام ما كان يتبع مصر فى السودان
- مقاومة المقاومة احتلال السودان والحكم الثنائى

الخلفية التاريخية للسودان النيلى قبل القرن التاسع عشر

سودان وادى النيل لم يختص وحده بهذا الاسم إلا فى السبعينيات من القرن التاسع عشر فكلمة السودان كانت تطلق على كل مايقع بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسى فالمغاربة مثلاً السودان بالنسبة لهم مالى والنيجر وماجاورها من البلاد،والسودان عند المصريين هو كل ماجاء جنوب مصر ،والسودان عند السواحيليين هو ما يضم الصومال واثيوبيا والدويلات التى قامت فى هذه المنطقة . ولم يأخذ السودان اسمه الحالى إلابعد الفتح المصرى عندما أطلقه الخديوى إسماعيل على الأرض التى ألحقت بمصر .وكما يقول د. حسن مكى إن اسم السودان كمصطلح هو بقاع لصناعة مصرية بعد عام ١٨٧٤[١]. لم يكن السودان الشرقى أو سودان وادى النيل مجهولاً للعرب قبل الإسلام. كانت التجارة بين الجزيرة العربية والشاطئ الشرقى الافريقى ومنه إلى السودان وطيدة.وكانت هناك مملكتان مسيحيتان هى «مملكة مقرة أو دنقله أو النوبة» فى شمال السودان ومملكة علوة فى وسطه.وقد استمرت هاتان المملكتان تحكمان السودان قرابة ألف عام من القرن السادس إلى القرن السادس عشر. ظلت هذه الممالك تقف فى وجه انتشار الاسلام،وأمام جهود العرب للدخول إلى السودان النيلى.بدأت المواجهة الأولى بين العرب والمسلمين وهذه الدول المسيحية فى وقت مبكر حين حاول عمرو بن العاص فتح بلاد النوبا عام ٢٠هـ -٦٤١م،ولكنه لم يتمكن من فتحها وانتهى الأمر بصلح مع أهلها كان أشبه بمعاهدة اقتصادية ولما نقض النوبيون هذا الصلح وأغاروا على صعيد مصر غزاهم عبد الله بن سعد بن أبى السرح عام ٣١ هـ - ٦٥٢ م ووصل حتى دنقله عاصمة «مقرة» المسيحية وعقد صلحاً عرف باسم معاهدة البقط.لم تكن المعاهدة تعكس تبعية (مقرة)لمصر وإنما كانت فى حقيقتها تأمينًا للنواحى الاقتصادية والتجارة والدينية وتشجيعًا للتبادل التجارى وإقرار السلام على الحدود المشتركة.وظلت المعاهدة سارية فى آثارها أكثر من ٦٠٠ سنة، فتحت معاهدة البقط

(١) ندوة عن دارفور بمعهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة ـ ورقة د. حسن مكى.

الباب أمام الهجرات العربية لاجتياز مملكة «مقرة» إلى وسط السودان النيلى وما عرف بإسم مملكة «علوة»، وأصبح الباب مفتوحًا للإسلام والثقافة العربية للتوغل وسط السودان وحتى حدود الحبشة الشمالية دون انتظار لسقوط مملكة «مقرة» المسيحية، وقد سمحت قبائل البجه فى شرق السودان للهجرات العربية بالاستقرار والإقامة فيها بعد حدود مصر الجنوبية وحتى مصوع. واستفاد العرب من نظام الوراثة عن طريق الأم فحرص رؤساؤهم على التزوج من بنات البجه والنوبة مما أدى إلى انتقال السلطة إلى العرب الذين استطاعوا أن يقيموا أول إمارة إسلامية عربية كان مقرها أسوان فى عهد الخلافة الفاطمية، ولقب أميرها بكنز الدولة وأهلها بنىْ كنز، وتصاهر هؤلاء مع البيت المالك النوبى فى «مقرة» وبذلك انتقل الحكم إلى بنى كنز وقامت أول دولة عربية إسلامية فى هذا الجزء من السودان النيلى عرفت باسم سلطنة الكنوز الإسلامية فى بلاد النوبة. كما قامت بعد ذلك سلطنات إسلامية أخرى فى وسط هذا السودان تعرف بسلطنة الفونج الإسلامية وسلطنة عربية ثالثة فى الغرب تعرف باسم سلطنة دارفور(١)

١-دولة الكنوز الإسلامية فى بلاد النوبة

٧٢٣-٩٢٦ هـ/ ١٣٢٣-١٥٢٠م

أقام هذه الدولة فى بلاد النوبة الشمالية التى تمتد إلى جنوب «دنقله» أو «مقرة» عرب الكنوز، واتسعت حدودها حتى أصبحت تضم صعيد مصر الجنوبى من قوص ألى اسوان، وكما ضمت جزءاً كبيراً من بلاد النوبة الشمالية حتى جنوب وادى حلفاً ووادى العلاقى فى الصحراء الشرقية. ورغم ازدياد نفوذ بنى كنز فإنهم لم يتمكنوا من تكوين دولة مستقلة عن مصر، وظلوا يناوئون حكام مصر حتى جاء صلاح الدين الأيوبى فأرسل إليهم حملة انتهت بمقتل أميرها كنز الدولة والقضاء على معظم جنده، قدر من قتل بثمانين ألف مما أدى إلى خراب هذه المنطقة من صعيد مصر، وقد حددت هذه الضربة مصير «بنى كنز» فتركوا إمارتهم فى أسوان ونزحوا جنوبًا وتوغلوا فى مملكة النوبة الشمالية. تمتع «بنوكنز» بفترة سلام طويلة عقب وفاة صلاح الدين الأيوبى حتى استطاعوا أن يقيموا إمارتهم الثانية فى بلاد النوبة وليس فى وادى العلاقى أو أسوان كما حدث من قبل. وبالطبع لم يقبل سلاطين المماليك الجدد قيام حكم عربى مجاور لهم فى بلاد النوبة، وثار بين الطرفين صراع كبير امتد من صعيد مصر إلى بلاد النوبة. أرسل المماليك جيشًا لغزو مملكة «مقرة» المسيحية عقابًا لها على اعتداءات ملوكها على

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص٢٢٣ـ٢٢٦.

صعيد مصر وقيامهم بالسلب والنهب والتدمير والقتل دعمًا للنشاط الصليبى المسيحى الذى كان يهدد مصر فى ذلك الحين.

أرسل المماليك الحملة تلو الحملة إلى مملكة «مقرة» وتمكنت الحملة الأخيرة من تعيين ملك نوبى مسلم على عرش دنقله عاصمة «مقرة» وأقسم الملك الجديد يمين الولاء لسلطان مصر، ولكن لم يقبل كنز الدولة بتعيين هذا الملك النوبى المسلم ورأى أنه أولى بهذا الكرسى، فأرسل حملة إلى النوبة واسترد عرشها ولم يجد الحاكم المصرى (الناصر محمد) مفرًّا من الاعتراف به ملكًا على دنقله،وكان ذلك نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد أدت إلى سقوط مملكة (مقرة)النوبية المسيحية وقيام دولة بنى كنز الاسلامية المستقلة. وقد ظل بنوكنز ملوكًا على بلاد النوبة وأصحاب السلطة الفعلية أيضًا على جزء كبير من أقاصى الصعيد حتى الفتح العثمانى لمصر ٩٢٣هـ -١٥١٧م . كان استقلال سلاطين بنى كنز فى دنقله عن سلاطين مصر تامًّا أو شبه تام،وأصبحت مملكة النوبة العربية الإسلامية مملكة مستقلة تمامًا، ولكن عوامل داخلية وخارجية أدت إلى ضعف بنى كنز والقضاء عليهم نهائيًا ومن هذه العوامل الصراع على السلطة الذى قام داخل الأسرة الكنزية الحاكمة، وأتاح هذا الصراع الفرصة لسلاطين المماليك كى يتدخلوا فى شئون دولة بنى كنز الداخلية ويعملوا على إضعافها؛ يضاف إلى ذلك منافسة القبائل العربية التى هاجرت إلى أسوان والنوبة ومنازعتهم لبنى كنز فى النفوذ والسلطان،وجاءت الضربة القاضية لدولة بنى كنز على يد الأتراك العثمانيين،فبعد أن فتح العثمانيون مصر أرادوا أن يدعموا نفوذهم فى بلاد الصعيد والنوبة،فأرسل السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠ حملة لفتح هذه البلاد، ونجح القائد العثمانى فى انزال الهزيمة ببنى كنز، وحاول الفونج حكام سنار أن يضموا هذه البلاد إلى حكمهم وأرسلوا جيشًا لتحقيق هذا الهدف ولكنهم هزموا وانسحب الفونج إلى بلادهم فى وسط السودان ولم يعد لبنى كنز دولة منذ ذلك التاريخ،وإن ظل وجودهم كقبائل ومشيخات مستمرًّا حتى تم فتح هذه البلاد على يد إسماعيل بن محمد على باشا عام ١٢٣٦هـ- ١٨٢٠م. ثم ظهر السودان بشكلة السياسى الذى نراه الآن(١)

٢ـ سلطنة الفونج الاسلامية فى سنار

٩١٠-١٢٣٦هـ/ ١٥٠٥-١٨٢٠م

ظهرت نواة إمارة الفونج بعد انتهاء القرن ١٣م عقب القضاء على مملكة «مقره»

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ص٢٢٦ـ٢٣٨.

المسيحية،وتسرب العرب على نطاق واسع إلى مملكة «علوة» المسيحية واتسع نطاق الإمارة غربًا ووصل إلى أطراف منطقة الجزيرة وأملاك «علوة» فى الشرق، واستطاعت هذه الإمارة القضاء على مملكة «علوة» المسيحية عام ١٥٠٥م، وأقامت مملكة العبدلاب التى سيطرت على القسم الشمالى من البلاد وامتد ملكها حتى بلاد دنقله،ولكنها كانت تدين بطاعة اسمية إلى سلطنة الفونج ثم استقلت عنها عام ١٧٧٠م ـ حينما ضعف الفونج ـ. قامت مملكة الفونج الإسلامية واتخذت مدينة سنار عاصمة لها، وامتد نفوذها من النيل الأزرق إلى النيل الأبيض بما يضمان أرض الجزيرة، وامتد نفوذها الاسمى على البلاد حتى دنقله. بلغت هذه السلطنة أوج مجدها طيلة القرن ١٨ إذ امتدت رقعتها من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق ومن البحر الأحمر إلى كردفان،غير أنه قبيل نهاية ذلك القرن ظهرت عوامل الضعف فى السلطنة عندما دب الخلاف بين الأسرة الحاكمة واستبداد الوزراء والقواد، وبدأت الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية تزيد فى انحلال الأسرة الحاكمة حتى ابتلعهم الفتح المصرى فى النصف الأول من القرن ١٩ فى عهد محمد على، وقد ظهرت هذه الدولة أول ماظهرت فى مظهر إسلامى واضح، واستهلت حياتها الاولى بالمساهمة فى حركة الجهاد الإسلامى بمشاركة العرب.المسلمين فى القضاء على مملكة «علوه» المسيحية، وبذلك تدفق الإسلام في وسط السودان ومنه إلى الجنوب والغرب، كما شارك الفونج فى حركة الجهاد فى شرق إفريقيا حينما شاركوا أحمد القرين فى حركة جهاده فى بلاد الحبشه، وأسهموا فى محاربة الوثنيين فى داخل السودان نفسه وحاربوا أهل جبال النوبا بسبب إغاراتهم على كردفان،واستمروا فى حربهم زمنًا طويلًا حتى انتشر الإسلام فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الأحباش فى القرن ١٨ لم يسهم الفونج فى نشر الاسلام عن طريق الجهاد فقط وإنما استعانوا بالوسائل السلمية،فقد كان لسلطنة الفونج اتصال بدارفور وبالباشا التركى فى موانى البحر الأحمر فى سواكن ومصوع،واتصلوا كذلك باليمن وغيره من الأقطار الإسلامية،وكانت العاصمة سنار المركز العلمى الذى تطلعت إليه جميع مناطق السودان النيلى شرقًا وغربًا، وكان العلماء من المناطق النائية يرحلون إلى ملوك الفونج وزعمائهم ويعيشون إلى جوارهم وينالون الإقطاعيات الواسعة مما دفع الحركة الإسلامية دفعة كبيرة فى عهد هذه السلطنة[1]

سلطنة دار فور الإسلامية

٨٤٩-١٢٩٢هـ/ ١٤٤٥-١٨٧٥م

بلاد دار فور عبارة عن هضبة تنتشر فيها المراعى تتخللها بعض المرتفعات ويتألف سكانها

(١) الموسوعة الإفريقية ـ المرجع السابق ـ ٢٣٩.

من العنصر الزنجى،وفى القرن ١٢م دخل هذه البلاد عنصر مغربى ربما كانوا من المغاربة الذين تركوا بلادهم هربًا من غارات بنى هلال فى شمال إفريقيا.وقد تزاوج هؤلاء مع أهالى البلاد وصاهروهم ونتج من هذا الاختلاط جنس مختلط يُسمى شعب (الفور) كان أول سلاطينها المولدين أحمد المعقور الذى تزوج من ابنة ملك دافور الوثنى الذى عينه خليفة له،وورثه المعقور وأسس أول سلطنة إسلامية فى دارفور.على أن دارفور لم تدخل الإسلام إلا فى عهد أحد ملوكها هو سليمان سولون الذى جاء من سلاسة أحد الهجرات العربية التى وفدت إلى دارفور منحدره من وادى النيل فى القرن ١٥م. اعتلى سليمان سولون عرش دار فور١٤٤٥-١٤٧٦،فتح البلاد للهجرات العربية فانتشر الإسلام فى ركاب هؤلاء العرب المهاجرين إلى دارفور واصطبغت السلطنة بالصبغة الإسلامية. أخذت السلطنة تتسع فامتد سلطانها على كردفان وبلغت اقصى اتساعها فى عهد سلطانها تيراب ١٧٧٨-١٧٩٩ الذى نقل العاصمة إلى الفاشر،واتصل بالسلطان العثمانى واعترف بسيادته فمنحه السلطان لقب الرشيد،وامتد نفوذ السلطنة إلى مملكة وادى،وكان من الممكن أن تتسع أكثر لولا التوسع المصرى الذى ضم دارفورإلى الممتلكات المصرية عام ١٨٧٤، ولكن هذا الإلحاق بالسودان، لم يدم طويلا لأنه بعد الثورة المهدية انفصلت دارفور عن السودان،ولم يستمر هذا الانفصال سوى ١٧ سنه اذا قرر الإنجليز إنهاء هذه السلطنة واستعانوا بالقبائل العربية هناك وسلحوهم واستخدم كذلك سلاح الجو البريطانى حتى تم الاستيلاء على سلطنة دارفور وأدمجت فى إطارالسودان مرة أخرى عام ١٩١٦م[١].

السودان فى القرن التاسع عشر

(١) فتح السودان

منذ القرن السادس عشر كان للدولة العثمانية حقوق فى السيادة على السودان وعلى الحبشة،واتسعت هذه السيادة وتدعمت عندما بدأ المصريون فتوحاتهم السودانيه باسم السلطان العثمانى فى مطلع القرن ١٩،وكان من عوامل إرسال الحملات المصرية هو رغبة أهل السودان أنفسهم إنشاء حكومة قوية على يد مصر تقضى على أسباب الفوضى المنتشرة فى بلادهم،فدخلت أقاليم النوبا وسنار وكردفان طوعًا فى حوزة مصر ١٨٢٠-١٨٢٣، ومن هذا التاريخ بدأ تأسيس وحده وادى النيل السياسية،كما بدأ بسط السيادة على الوادى بأسره وتقرير حقوق السيادة هذه لمصر[٢].

طلب محمد على باشا والى مصر من السلطان العثمانى إن يأذن له فى فتح السودان،ووافق

---

(١) الموسوعة الافريقية ـ المرجع السابق ـ ص٢٤٣.

(٢) مصر والسودان ـ تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر / د. محمد فؤاد شكرى/ مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ص٧ـ٨.

السلطان العثماني محمود الثاني أن يفتح محمد على مايشاء من اقاليم السودان شريطة أن يحدث هذا باسم السلطان العثماني.وعندما بدأت العلاقات بين محمد على ومحمود الثاني سلطان تركيا تسوء، وتدخلت الدول الأوروبية لإنهاء هذا النزاع المصرى العثماني كان البت في مصير السودان أهم الموضوعات التي شغلت محمد على وكان صوت وحدة وادى النيل السياسية كل ماعنى به الحاكم المصرى في هذه الأزمة.فقد كان محمد على يعتبر الأقطار السودانية جزءًا من الأقطار المصرية تسرى فيها جميعًا نظم واحدة ويجرى الإنفاق عليها من خزينة واحدة. ومن الثابت أن مصرعلى أيامه أنفقت بسخاء على السودان وإنعاش الحياة الاقتصادية به وتعليم وابنائه وتدريبهم على حكم انفسهم بانفسهم مما سماه المعاصرون الأجانب الذين زاروا السودان في ذلك الحين مبدأ إشراك العناصر الوطنية في شئون الحكم والإدارة أى أن السودان شهد العمل بما صار يعرف باسم (السودنة)في الاصطلاح الحديث

لذلك عندما شرعت الدول تعمل لوضع تسوية للمسألة المصرية ١٨٤٠-١٨٤١ كان من أركان التسوية الفرمان الصادر في ١٣ فبراير ١٨٤١ م الذى أعطى محمد على ـ مدى الحياة ـ حكومة النوبة وسنار وكردفان ودارفور وجميع ملحقاتها،فكان هذا الفرمان الوثيقة الأولى التي دعمت حقوق مصر في السيادة على شطر الوادى الجنوبي وبموافقة الدول.

كان محمد على مؤسس مصر الحديثة يطمع في توسيع رقعة مصر،وبما أن مصر تحدّها الصحراء من الشرق والغرب فكان جنوب البلاد هو الرقعة التي وقع عليها اختيار محمد على أن يتوسع فيها.وفي عام ١٨١٠ غادر جيشه بقيادة أحد أبنائه باتجاه السودان، ولم يستطع رؤساء الإمارت المحليون مواجهة فرق الوالي،وهكذا في غضون سنة واحدة تم الاستيلاء على كل المنطقةوالحقت بمصر التي كانت رسميًا ولاية من ولايات الدولة العثمانية،ولهذا السبب تُسمى هذه الفقرة من تاريخ السودان بالفترة التركية.

اتصف النظام الذى أسسه محمد على في السودان بجباية قاسية للضرائب الثقيلة مما عمق الكراهية في قلوب السودانيين ودفعهم فيما بعد إلى دعم الثورة المهدية.وتعزز هذا الشعور عندما عين موظفين أوروبيين ومسيحيين عاثوا فسادًا في الأقاليم بحجة محاربة تجارة الرقيق، وأصبحت السيطرة على السودان عبئًا مما جعل ابنه الخديوسعيد ١٨٥٤-١٨٦٣ يفكر في التخلص منه.

وازدهرت تجارة الرقيق في ظل حكم حفيد محمد على الخديو إسماعيل الذى غلبت

طموحاته فى السودان على طموحات جده فأرسل الحملات العسكرية إلى دارفور، وضم مقاطعتين فى جنوب السودان هما بحر الغزال والمقاطعة الاستوائية،ولكن هذه الحملات أخفقت وقام أحد تجارالعبيد «الزبير رحمة منصور» فى بحر الغزال بشق عصا الطاعة فاضطر الخديو إسماعيل للخضوع للأمر الواقع ووافق عام ١٨٧٣ على تعيين الزبير حاكماً لهذة المنطقة. أما المنطقة الاستوائية فقد عهد إسماعيل للسير صمويل بيكر الإنجليزى بالقيام بحملة للاستيلاء عليها وضمها لمصر.وتولى بعد صمويل بيكر جورج غوردون الذى أصبح حاكماً للمقاطعة الإستوائية عام ١٨٧٤ثم صار حاكماً عامًا على كل السودان ١٨٧٧ وكان الخديو إسماعيل فى هذا التوسع يعمل لحساب الإنجليز ويستعين بقيادات منهم تقود جيشه المصرى وسلم لهم إدارة السودان.وسع غوردون مساحة المنطقة الخاضعة للحكم المصرى حتى وصل إلى منطقة تبعد مسافة ١٠٠كيلومتر من بحيرة فكتوريا،وكان غوردون يعتقد أن جنوب السودان لايمكنه أن يتطور الا إذا ارتبط بالمحيط الهندى،ونزولاً على رغبته نظم الخديو حملة نحو ممباسا على الساحل الشرقى لإفريقيا، ولكنها منيت بالفشل لأن الحكومة دافعت عن السلطان زنجبار ضد طموحات خديو مصر[١].

عزل إسماعيل عام ١٨٧٩ ونُفى بعد إعساره المالى،وتفاقمت حركات التمرد فى كردفان ودارفوربسبب سوء الأوضاع الاقتصادية ونفور المواطنين من الحكام الأوربيين الذين ولاهم خديو مصر.وهكذا كان الوضع فى السودان عندما ظهر الزعيم الروحى محمد أحمد المهدى فى جزيرة أبا عام ١٨٨١.

(٢) المقاومة الوطنية (الثورة المهدية)

كانت حركة المهدى التى تعرف باسم الثورة المهدية معركة نضال ثورية أساسها جهاد وحرب مقدسة منذ الحكم التركى الذى ولى عليهم أجانب مسيحيين، ثم تطورت الحركة من حركة احتجاج دينى إلى دولة قوية مناضلة سيطرت على السودان مدة أربعة عشر عامًا. كما كان من أسباب الثورة المهدية أيضًا عوامل نجمت عن أخطاء الإدارة الخديوية التى ولدت شعورًا عامًا بالاستياء أدى إلى خلق رغبة الإنتقام،وأدت الضرائب الباهظة التى فرضها عمال الخديو وقاموا بجمعها بالقوة إلى خلق شعور عام بالسخط بالإضافة إلى محاولات الحكومة قمع تجارة الرقيق إلى إثارة عداءبعض السودانيين فى المنطقة الشمالية لأن هذا القمع كان يمثل ضربة إلى

(١) تقسيم إفريقيا ـ المرجع السابق ـ ص١٠١.

مصدر هام للثروة وأساس الاقتصاد المنزلى والزراعى فى البلاد بالإضافة إلى ضعف الحكومة المركزية فى مقر الخديوية ذاتها فى القاهرة.

عند مجىء الحكم الخديوى فى مصر إلى السودان كان المجتمع السودانى إقطاعًا تتوزع فيه الأرض والسلطة بين عدد من السلاطين والرؤساء والزعماء لايربط بينهم أى رابط ومع أن الملوك الفونج استطاعوا تأسيس مملكة سنار،وكذلك فعل سلاطين الفور فى دارفور من أواخر القرن ١٥ واوائل القرن ١٦ إلا أن سيطرة هؤلاء السلاطين على الرؤساء والزعماء المجاورين لهم كانت ضعيفة،وظل هذا تشكيل المجتمع السودانى حتى الفتح المصرى.

وعندما جاء المصريون إلى السودان أدخلوا تغييرات كبيرة على أنظمة الحكم،فأنشأوا جهازًا للحكم والإدارة يقوم على مركزية تجمع السلطنة فى يد حكومة الخرطوم ومعنى هذا إنهاء الزعامات المحلية،وأنشأوا نظامًا ضريبيًا تحددت بمقتضاه فئات الضرائب التى فرضت على الأرض وطرق جبايتها.

وبالنسبة لإلغاء الرق، فإن الخديوية تحت الضغط السياسى من الخارج خصوصًا بريطانيا، استبدلت بدلًا من الأسلوب البطىء فى معالجة مسألة الرق وتجارة الرقيق سياسة الإلغاء العنيفة للقضاء عليه بالحديد والنار مما أدى إلى انتشار التذمر والسخط بين تجار الرقيق وانضم هذا العامل إلى سخط سواد الشعب الذى أثقل كاهله عبء الضرائب الجائرة؛ الأمر الذى جعل هذا التذمر والسخط عظيم الخطر على النظام القائم،وصار لدى الأهالى وتجار الرقيق رغبة واحدة هى طرد الحكم الخديوى المصرى من السودان.

مهدت الثورة العرابية فى مصر (سبتمبر١٨٨١) لقيام الثورة المهدية فى السودان؛ وذلك أن الثورة العرابية جعلت من المتعذر على حكومة مصر توجيه عنايتها بشئون السودان أو إرسال نجدات عسكرية إلى قوات الحكومة السودانية لصد اتباع محمد أحمد المهدى فى جزيرة آبا،وكان لذلك أثر بالغ على انتشار ثورة المهدى فى السودان،وانتقلت من حركة تذمر إلى ثورة عارمة ومسألة خطيرة تتطلب التفرغ لعلاجها بسرعة وحزم وقوة للإبقاء على وحدة وادى النيل والمحافظة على السودان، وهذه المشكلة كانت أولى المشكلات التى واجهها الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٢.

السياسة البريطانية فى السودان

سلكت السياسة البريطانية فى السودان ثلاثة وجوه هى: أولًا عدم التدخل، ثم الضغط على مصر لإخلاء السودان، وثالثًا استرجاع السودان بالقوة واحتلاله.

...

الوجه الأول (سياسة عدم التدخل):

كان موقف الحكومة البريطانية فى البداية هو عدم التدخل فى السودان،وأن يُترك للحكومة المصرية «بقدر الإمكان» أن تتخذ وحدها الإجراءات التى تراها ضرورية لإخماد الثورة فى السودان بدون مساعدة أو مشاورة حكومة صاحبة الجلاله فلا يجب أن تتدخل الحكومة البريطانية فى هذه المسألة أو تتحمل بسببها أية مسئولية حتى إذا اتضح فى المستقبل أن الإجراءات التى اتخذت بناء على مشورتها لم تكن مجدية لاتجد إنجلترا نفسها مسوقه إلى القيام بعمليات عسكرية فى السودان، ومع ذلك لم يكن هناك مناص من أن يعترف الأحتلال البريطانى فى مصر بوجود مشكلة سودانية لابد من مواجهتها سريعًا، وأن علاج الموقف يقتضى الاحتفاظ بقسم من الأقاليم السودانية والتخلى عن قسم آخر، فقد كان واضحًا أن الاحتفاظ بكل ممتلكات مصر فى السودان يحتاج إلى تجهيز إمدادات عسكرية تُرسل إلى السودان للمعاونة على إخماد الثورة.كما كان واضحًا أيضًا أنه اذا تعثر وجود القوات العسكرية التى تكفى للمحافظة على كل أقاليم السودان فلا أقل من أن تتمسك حكومة الخديوية ببعض الأقاليم وتدافع عنها وهى أقاليم وسط السودان لإبعاد الخطر عن الحدود المصرية ذاتها.

كان رأى البريطانيين أن تتخلى الحكومة المصرية عن مديريات فاشوده وكردفان ودارفور، وفيما يتعلق بمديرية بحر الغزال وخط الاستواء أن يُكتفى بدلًا من الإدارات الحكومية بوكالة تجارية، وعدم إرسال أية حملات ضد المهدى فى كردفان ولكن لم يكن فى وسع الحكومة البريطانية إقناع المصريين بالتخلى عن اجزاء من السودان.وأرسلت مصر حملة بقيادة الكولونيل هيكس إلى الخرطوم للعمل على إخماد الثورة فى سنار وإقصاء الثوار فيها واتخاذ التدابير التى يمكن بها وقاية الخرطوم وتنظيم الدفاع عنها ضد المهديين،وأوقع هيكس بثوار سنار هزيمة بالغة، وشجع هذا الانتصار حكومة الخديوى فى القاهرة الدخول فى عمليات عسكرية على نطاق واسع ضد الثورة، وإرسال حملة كبيرة لمطاردة المهدى فى كروفان بالرغم من أن هذه الحملات كانت تتكلف نفقات طائلة ولا يوجد المال اللازم لها، كما كانت تحتاج إلى جيش مدرب ومزود بالمؤن والذخيرة والأسلحة ولا يوجد مثل هذا الجيش فى السودان.

لم تحاول الحكومة البريطانية بما لديها من سلطة الاحتلال أن تثنى المسئولين المصريين عن عزمهم مع إدركها أن إمكانيات أو عوامل النجاح غير متوفرة، أو تحول دون إرسال الحملة إلى كردفان تلك الحملة المشؤومة التى أبيدت عن آخرها وترتب على ابادتها انتشار الثورة فى

كل انحاء السودان[1]. خرجت حملة هيكس المكونة من ثمانية آلاف مقاتل من السودانيين والمصريين من الخرطوم وتعقبها جواسيس المهديين فى حين غادر المهدى الأبيض للقاء الحملة فى شيكان،كان التعب والجوع والخوف والعطش قد أنهك قوى جيش هيكس برمته، وفوجئ هيكس برمته، وفوجئ هيكس بأنصار المهدى يحيطون به من كل جانب فانهزم وأبيد جيشه ولقى هيكس حتفه ولم ينج إلا ملازمان ونحو ثلاثمائة جندى اختبأوا بين الأشجار وسجل انتصار شيكان كسبًا عظيمًا للمهدى وثورته. كان لهزيمة هيكس فى واقعة شيكان١٨٨٣ تأثير فاصل على الموقف فى السوادن فقد نتج عنها أن صار المهدى يتمتع بالسيطرة التامة جنوب الخرطوم وانضم إليه ألوف السودانيين الذين كانوا يترددون قبل هذا النصر فى قبول دعوته والإيمان به ثم وجه المهدى ضربته الثانية فى السودان الشرقى بقيادة عثمان دقنه الذى أحرز انتصارات عديدة ضد قوات الحكومة وأصبح يهدد موانى البحر الأحمر التى كان الإنجليز قد تعهدوا بالدفاع عنها، حاول البريطانيون ان يتدخلوا ولكنهم لم يحققوا نجاحًا يذكر، وأصبح الأنصار التابعون للمهدى يسيطرون على السودان الشرقى برمته باستثناء ميناء سواكن، ومنعوا مرور الإمدادات والتعزيزات المرسلة من مصر إلى الخرطوم عن طريق بربر ـ سواكن[2].

الوجة الثانى للسياسة الريطانية «إخلاء السودان»

كشفت هزيمة هيكس عن موضع الضعف فى سياسة الحكومة البريطانية نحو مسألة السودانية بالابتعاد عن التدخل فى شئون السودان والابتعاد عن تحمل أية مسئوليات تترتب على القرارات التى تتخذها الحكومة المصرية لاخماد الثورة المهدية واسترجاع نفوذها المفقود فى السودان،والامتناع عن إرسال جنود بريطانيين لنجدة القوات المصرية فى الحاميات المبعثرة وكيف أسفرت هذه السياسة عن هزيمة هيكس وإبادة جيشه فى غابة شيكان،وأدت هذه الحقيقة إلى تغير فى موقف الحكومة البريطانية ولم يعد فى وسعها أن تتخذ موقفًا سلبيًا ليس من السودان وحده بل ومن مصر أيضًا، فبعد ما كانت تدّعى الانسحاب من مصر لم تلبث أن أعلنت أنه توافرت عوامل عديدة لإطالة الاحتلال فى مصر إلى أجل غير مسمى، وكان استمرار ثورة المهدى وسيطرة الدراويش فى السودان وتهديدهم لحدود مصر الجنوبية من الاسباب التى تذرع بها الإنجليز لبقاء الاحتلال وأنه لامناص من التدخل فى شئون السودان[3].

---

(١) مصر والسودان ـ المرجع السابق ـ ص٢٩٠.
(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص٩٣.
(٣) مصر والسودان ـ المرجع السابق ـ ص٢٩٩.

اتخذ«التدخل» وهى المرحلة الثانية من مراحل السياسة البريطانية بأن أوصت الحكومة المصرية بالتخلى عن السودان فى حدود معينة، وكان المطلوب من مصر أن تتخلى عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من وادى حلفا، ولكن سياسة التخلى عن السودان كانت تتعارض تعارضًا تاماً مع سياسة الحكومة المصرية التى لم تكن تفكر بحال من الاحوال عن التخلى عن هذه الأقاليم أو إخلائها.

ولكن بهزيمة هيكس قررت الحكومة المصرية أن تجلى الحاميات من دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وتنسحب جميعًا إلى الخرطوم لتقوية حاميتها هناك، وأن تبقى فى سنار مؤقتًا الحامية الموجودة بها حتى يمكن امداد الخرطوم بالمؤن من سنار، وأن يعاد فتح الطريق بين بربروسواكن بالرغم من أن القوات المصرية نالت هزائم من أنصار المهدى فى السودان الشرقى حتى باتت سواكن نفسها مهدده بالسقوط فى أيدى دراويش المهدى.

ولكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك وأبرقت إلى الحكومة المصرية بضرورة التخلى عن البلاد الواقعة جنوب وادى حلفا، وأكدت البرقية رغبة بريطانيا أن يستتب الأمن والنظام فى مصر،والدفاع عن مصر ضد أى اعتداءات خارجية عليها،ثم حماية موانيها على البحر الأحمر.

اعترض رئيس وزراء مصر شريف باشا على ذلك وقرر الأحتفاظ بحوض النيل حتى الخرطوم، وقبل التخلى عن الموانى الواقعة على البحر الأحمر باعتبار أن هذه الموانى إنما يهم أمرها بريطانيا أكثر مما يهم المصريين، واعتبر شريف أن سياسة الإخلاء (أو التخلى عن السودان) يعرض الحدود المصرية لهجوم الدراويش، وسوف يتطلب الدفاع عن هذه الحدود أن يزيد البريطانيون عدد جنود الاحتلال فى مصر،وطالما بقيت حدود مصر معرضة لهذا الهجوم ولا أمل بعد التخلى عن السودان فى القضاء على قوة المهدية فإن الإحتلال البريطانى سوف يبقى.كان واضحاً أن شريف باشا وسواد المصريين يرون فى التخلى عن السودان فخًا ينصبه البريطانيون ليجعلوا احتلالهم لمصر ذاتها أبديًا.

أصر رئيس الوزراء المصرى على موقفه وقدم استقالته لخديو مصر الخديو توفيق فقبلها على الفور قائلًا «إنه يقبل بإخلاص سياسة التخلى عن السودان بأسره؛ الأمر الذى يعتقد بعد تفكير عميق أنه خير ما يكون لصالح البلاد، وأنه يثق تمامًا فى أن أى نصيحة تسديها جلالة ملكة إنجلترا إنما هى لصالح مصر الخالص» وكلف نوبار باشا بتأليف الوزارة الذى ارتضى بسياسة التخلى عن السودان واستبقاء سواكن.

وبتشكيل وزارة نوبار على أساس فكرة الجلاء عن السودان يكون قد انقضى فى يناير ١٨٨٤ دور السياسة السلبية التى اتبعتها بريطانيا فى مسألة السودان. فقد أرغمتها هزيمة هيكس فى شيكان أن تنبذ سياستها السلبية وأن تتدخل تدخلًا فعليًا ولما كانت الحكومة البريطانية ممتنعة عن استخدام جنود بريطانيين أو هنود لمعاونة المصريين على الاحتفاظ بالخرطوم والأقاليم التى لاتزال فى حوزتهم، فقد تمثل التدخل أو «الدور الإيجابى» الذى قررته الحكومة البريطانية فى إسداء النصيحة إلى الحكومة المصرية بإخلاء السودان. وكانت سياسة التخلى تقتضى إخلاء الخرطوم من الحامية التى فيها ثم سحب الحاميات المصرية المبعثرة فى السودان. وتلك كانت مهمة شاقة من حيث ترتيب عملية الإخلاء من اختيار الطريق المناسب للانسحاب، وتأمين المواصلات وتوفير المؤن وحراسة المنسحبين، وعهد بهذه العمليات للجنرال غوردون.

عندما علم المهدى بقرار الحكومة المصرية بإخلاء السودان وأن تصبح حدوده منكمشة فى الجنوب إلى وادى حلفا أخذ يدعو للانضمام اليه الذين لم يرغبوا أصلًا فى الإنضمام إلى الثورة، فقد جعلهم الخوف من التعرض لغضب المهديين بعد انسحاب مصر يبادرون إلى الانضواء تحت لوائه.

الخطأ فى تقدير حقيقة الثورة:

أخطأ غوردون فى فهم حقيقة الثورة فى السودان، كما أخطأ فى تقدير قوة الثورة والاستهانة بها؛ الأمر الذى جعله يفشل فى مهمته التى انتهت بقتله. حاصر الدراويش الخرطوم وقطعوا كل اتصال لها بالخارج حتى عجز غوردون عن توصيل اخباره إلى حكومته، واستمر هذا الحصار الشديد طيلة خمسة أشهر وفى ٢٥ يناير ١٨٨٥ هاجم الدراويش الخرطوم وسقطت العاصمة فى أيديهم، واستمر اقتتال راح ضحيته ٣٥ ألف من أهالى الخرطوم، وكان من بين القتلى الجنرال غوردون نفسه. بعد مقتل غوردون وسقوط الخرطوم قررت الحكومة البريطانية إبطال كل العمليات العسكرية فى السودان والانسحاب من هذه البلاد نهائيًا بعد أن تأكدت من أن استمرار العمليات العسكرية بعد سقوط الخرطوم - صارت منهارة ولكن سرعان ماتُوفى المهدى بصورة مفاجئة بعد أشهر قليلة من ٢٥ مايو ١٨٨٥، ويمكن القول إن فترة المهدى أو السنوات الأربعة الأولى للثورة من ١٨٨١ إلى ١٨٨٥ تطورت الحركة المهدية من حركة احتجاج دينى إلى دولة قوية مناضلة سيطرت على السودان لمدة ١٤ عامًا.

أدى سقوط الخرطوم إلى ضياع سائر ماكانت تسيطر عليه مصر فى السودان باخلائها

والجلاء عنها ووقعت فى يد المهديين والدول الأجنبية المتنافسة المتسابقة على امتلاك إفريقيا واقتسامها فيما بينها، ففقدت مصر سيطرتها فى بحر الغزال وسنار ودارفور وخط الاستواء،وفى شرق السودان وفى ساحل البحر الأحمر والصومال وهرر بينما احتل الأحباش مقاطعة باغوص وهرر واقتسم الإنجليز والفرنسيون والطليان الصومال فيما بينهم، وتوغل الإنجليز فى أوغندا والفرنسيون والبلجيك فى إقليم بحر الغزال حتى وصلوا إلى حوض النيل الأعلى فى السنوات التالية فكان عهد سيطرة المهدية عهد اقتسام ماتسيطر عليه مصر فى السودان، إذ لم يستطع الخليفة عبد الله التعايشى الذى خلف محمد أحمد المهدى الاحتفاظ بتلك الإمبراطورية التى أسسها المصريون في خلال ستين عامًا فى شرق ووسط إفريقيا

حكومة عبد الله التعايشى:

كانت حكومة عبد الله التعايشى أول وآخر حكومة أقامتها «المهدية» فى السودان واستمرت ثلاث عشرة سنة(١٨٨٥-١٨٩٨) نجح خلالها فى السيطرة على الحكم وإقامة جهاز حكومى أمكن أن يؤدى الخدمة المطلوبة منه طوال عهده،ولكن الأحداث التى وقعت فى إمارته الداخلية جعلته يعجز عن مواجهة الخطر الخارجى ، كما جعله انصرافه إلى القضاء على خصومه ومنافسيه فى الداخل لتأسيس سيطرته المطلقة جعله يضطر إلى إخلاء أقاليم بأكملها وهى الأملاك التى ورثها من العهد المصرى فى الجنوب بمدريرية خط الاستواء وبحر الغزال ودارفور وسواكن، واستطاعت الدول الأجنبية الطامعة فيما كانت تسيطر عليه مصر فى خط الاستواء وبحر الغزال وساحل البحر الأحمر وهرر والصومال استطاعت الاستيلاء عليها دون أن يحرك الخليفة ساكنًا للمحافظة عليها أو الدفاع عنها فشهد عهده اقتطاع أطراف الإمبراطورية المصرية فى السودان لحساب إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا، وتسابق الأستعمار الأوروبى للتوغل فى أطراف السودان المصرى للسيطرة على منابع النيل وروافد الأستوائية،وعجزت حكومة التعايشى عن إنشاء «دولة» تعترف الدول بكيا نها وتحترم حقوق السيادة التى ينبغى أن تكون لها داخل حدودها.

كان من أسباب فشل الخليفة التعايشى دخوله فى مغامرات الحروب على حدوده الشمالية مع مصر، وعلى حدوده الشرقية مع الحبشة دون أن يحسن تقدير القوة التى عليها خصومه أو يزن الآثار التى تترتب على هزيمته.

كان وادى حلفا آخر المراكز فى الحدود المصرية التى قررت سلطات الاحتلال فى مصر

الانسحاب منها،وعلى مسافة ثلاثين ميلا جنوب حلفا امتدت منطقة تفصل آخر مراكز الحدود المصرية التى هى أول مراكز المهديين فى الشمال،وهذه المنطقة استمرت مسرحًا لمناوشات حدودية متعددة وحاولت سلطات الاحتلال التفاوض مع المهدية،وكان فى وسع الخليفة التعايشى تأمين حدوده من ناحية مصر دون الدخول فى حرب معها لوقبل هذا التفاوض ولكن باءت المحاولة بالفشل وبقى الخليفة مصمماً على غزو مصر.

وفى أكتوبر ١٨٨٦ خرج جيش الدراويش بقيادة «عبد الرحمن النجومى» قاصدًا حدود مصر فوصل إلى دنقله ،وبدأوا يشنون الغارات على نقاط الاستحكامات المصرية حتى وصلوا إلى توشكى وهناك وقعت معركة توشكى الحاسمة التى انهزم فيها الدراويش وقتل فيها عبد الرحمن النجومى نفسه وبهذه المعركة تحطمت نهائيًا آمال الخليفة عبد الله التعايشى فى مصر.

كذلك لم يكن الخليفة أكثر توفيقًا فى شرق السودان. وكانت سواكن المركز الذى قررت سلطات الاحتلال البريطانى الاحتفاظ به فى شرق السودان، وقد حاولت بريطانيا أن تثنى الخليفة عن سواكن، ولكن الخليفة كان يطمع فى هذا الميناء لتنمية التجارة من ناحية،ولأن سواكن طالما بقيت فيها قوات انجليزية ـ مصرية سوف تبقى دائماً مركزًا للوثوب منه على حكومة الخليفة وتهديدها.حاول الدراويش محاصرة الطرق المؤدية إليها وتركزوا فى طوكر التى تقع فى جنوب سواكن فى الطريق بين الخرطوم والساحل وهى التى كان يعتمد المهديون عليها فى تموين جيوشهم فى السودان الشرقى وكانوا يدركون أنه إذا خرجت من أيديهم اضطروا إلى التخلى عن السودان الشرقى بأكمله.

ترتب على انتشار الدراويش حول سواكن ووجود طوكر فى أيديهم أنه صارت السلطات فى سواكن تواجه مشكلة خطيرة فبا الإضافة إلى عدم استمرار المعاملات التجارية بين سواكن والساحل فقد نال ذلك من سمعة إنجلترا ومصر اللتين بقيتا مكتوفتى الأيدى تعجزان عن الحركة وترضيان بقاء قواتها محصورة فى سواكن لذلك لم يكن هناك مفر من الهجوم على طوكر. وكانت معركة طوكر هى المعركة الفاصلة فى تاريخ شرق السودان فبعد سبع سنوات من سقوطها فى ايدى الدراويش نجحت السلطات الحكومية المصرية الإنجليزية فى سواكن من الاستيلاء عليها، وحققت للسودان الشرقى ما حققته واقعة توشكى لوادى النيل. هدأت بعد هذه الواقعة الأمور فى السودان الشرقى مدة ثلاث سنوات حتى ظهر عدو جديد فى المنطقة هم الطليان الذين كان نشاطهم هو الذى جعل الحكومة البريطانية تقرر استرجاع السودان ـ وقصة

الخطر الإيطالى.فى السودان الشرقى إنما هو جزء من قصة اقتسام أملاك مصر فى السودان على يد الدول الأجنبية والتى عجزت حكومة الخليفة عبد الله عن الدفاع عنها والاحتفاظ بها.

اقتسام ما كان مع مصر فى السودان :

كانت الدول التى اقتسمت السودان بعد خروج الجيش المصرى منه هى إنجلترا وفرنسا وايطاليا والحبشة بين أعوام ١٨٨٢-١٨٩٢،كما إستطاع ليوبولد ملك البلجيك أن يصل بحدود «ولاية الكونغو الحرة» التى أنشأها فى إفريقيا الوسطى الغربية إلى ما كان يتبع مصر فى مديرية خط الاستواء. أسس الطليان مستعمرة إريتريا على أنقاص ما كان يتبع مصر فى السودان الشرقى وساحل البحر الأحمر،واستولت الحبشة على هرر، وأنشأ الفرنسيون مستعمرة الصومال الفرنسى عند باب المندب، بينما أنشأ البريطانيون مستعمرة الصومال الإنجليزى التى تطل على ميناء عدن،وتمكن ليوبولد ملك البلجيك من استئجار «حاجز لادو» وتاريخ إنشاء كل هذه المستعمرات هو قصة ضياع هذه البلاد لامن مصر بل من أبنائها أيضًا وقد قسمت أراضى الساحل الصومالى على النحو التالى:

أ-ماكان يتبع مصر فى الساحل الصومالى

١-**الصومال الإنجليزى** : تألف من المنطقة التى تضم موانى زيلع وبلها روبربر على خليج عدن التى استولى عليها الإنجليز منذ أخلاها المصريون بين أعوام ١٨٨٥-١٨٩٨ وكانت بريطانيا أبلغت الدول الأخرى فى يوليو ١٨٨٧ أن الساحل الصومالى ابتداء من جيبوتى إلى بندر زيادة قد وضع تحت الحماية البريطانية،ولم تعترض أى من الدول على هذا التبليغ.

٢-**الصومال الفرنسى**:تأسست هذه المستعمرة من إمتلاك الفرنسين لميناء أوبوك والمنطقة المجاورة الواقعة على خليج عدن. تنازع الفرنسيون والإنجليز على الحدود بين الصومالين، وأسفر النزاع عن عقد اتفاق انجليزى فرنسى فى فبراير١٨٨٨اعترف فيه الفرنسيون بحماية الإنجليز على ساحل الصومال حتى بندر زيادة آخر حدود الصومال الإنجليزى نظير اعتراف الإنجليز للفرنسيين بنفوذهم حتى خليج تاجورا.

٣-**الصومال الإيطالى**:احتل الطليان بقية الساحل الجنوبى لخليج عدن عند آخر حدود الصومال الإنجليزى عند بندر زيادة.فى مارس ١٨٩١ابرم الإنجليز والطليان اتفاقًا لتحديد مناطق النفوذ بينهما.

ب-ما كان تحت الحكم المصرى فى بحر الغزال وخط الاستواء

طلت مديريتا بحر الغزال وخط الاستواء التابعتان للنفوذ المصرى مجهول ما يقع فيهما من أحداث حتى بدأت الشائعات تروج عن وجود أوروبيين لايعلم أحد عنهم شيئًا فى هذه المنطقة وهؤلاء الأوروبيون كانوا هم البلجيك والفرنسيين فى بحر الغزال،والإنجليز والذين أرادوا التوغل فى منطقة خط الاستواء،وترتب على نشاط هؤلاء وهؤلاء أن ما فقدته مصر فى هذه الجهات آل لحساب أنجلترا وفرنسا وبلجيكا ونجحت بريطانيا فى ديسمبر ١٨٩٠ أن تعقد مع ملك أوغندا(موانجا)معاهدة تضع أوغندا تحت حماية بريطانيا واستماتت بريطانيا فى انتزاع أوغندا من منافسيها الفرنسيين والبلجيك لأنها أدركت أن هذه البلاد هى المدخل الوحيد تقريبًا إلى بحيرتى البرت وألبرت إدوار،وتسيطر على مساقط مياه نهر النيل وتعتبر المفتاح الطبيعى لكل حوض النيل وأغنى بقاع إفريقيا الوسطى،فكان معنى السيطرة على أوغندا إستعلاء النفوذ والتفوق التجارى فى أغنى أجزاء إفريقيا وأكثرها سكانًا فى ذلك الحين وفى إبريل ١٨٩٤ أعلنت بريطانيا الحماية رسميًا على أوغندا.

حاجزلادو:

بعد ما أقام البلجيك دولة الكونغو الحرة توجهت أطماعهم إلى التوسع شمالًا وشرقًا إلى مديريتى خط الاستواء وبحر الغزال.وفى عام ١٨٩٨ احتل البلجيك منطقة حاجزلادو وهو منفذ على النيل الأعلى بموجب إيجار يستمر مدة حكم الملك ليوبولد،وعقدت بلجيكا مع بريطانيا اتفاقية أذنت لها باحتلال الحاجز شريطة ألا يعتدوا على بحر الغزال مع احتفاظ مصر بحقوقها فى حوض النيل الأعلى، وأدت هذه الاتفاقية إلى حدوث متاعب كثيرة بين البلجيك وحكومة السودان حتى أمكن تسويتها عام ١٩٠٦ باتفاق نص على إعادة حاجزلادو إلى حكومة السودان خلال ستة أشهر من وفاة الملك ليوبولد وفى يونيو ١٩١٠ اعيدت المنطقة إلى الحكومة السودانية (بعد وفاة ليويولد)

جـ- ما كانت تسيطر عليه مصر فى ساحل البحر الأحمر والسودان الشرقى:

إريتريا وكسلا: بدأ التغلغل الإيطالى فى ساحل البحر الأحمر والسودان الشرقى عندما ابتاعت شركة إيطالية من أحد الشيوخ المحليين منطقة صغيرة فى الأراضى الصحراوية بالقرب من ميناء عصب، واحتجت الحكومة المصرية على هذه الصفقة باعتبار أنها متعارضة مع ما لمصر حقوق فى السيادة على هذه الجهات.راقب الطليان استفحال الثورة المهدية فبادروا بإرسال قوات عسكرية لاحتلال عصب واحتلوه بالفعل عام ١٨٨٥ وغادرت بقايا الحامية المصرية مصوع عائدة إلى السويس ومالبث أن اشتبك الطليان مع الأحباش ولكن سرعان ما اتفقا على

التصالح لصد جيش الخليفة التعايشى ووقف هجوم الدراويش، وفى مايو ١٨٨٩ عقد ملك الحبشة مع الإيطاليين معاهدة رسمت حدود الأملاك الإيطالية اعترفت فيها الحكومة الإيطالية بسيادة «منليك» ملك الحبشة على الحبشة واعترف « منليك» نفسه بحقوق إيطاليا فى السيادة على الأملاك الإيطالية فى البحر الأحمر والتى تمتد إلى الداخل وفى يناير ١٨٩٠ صدر مرسوم من ملك إيطاليا بإنشاء مستعمرة إريتريا، وعمل الطليان على تثبيت أملاكهم فى إريتريا بعقد عدد من الاتفاقيات مع بريطانيا ومصر والحبشة لتخطيط حدود المستعمرة التى يتألف أكثر أراضيها من أرض كانت تابعة لمصر.

(٣) مقاومة السودانية

الوجه الثالث للسياسة البريطانية (احتلال السودان)

مرت السياسة البريطانية للسودان ـ كما سبق القول ـ بمرحلتين هما سياسة عدم التدخل ثم إخلاء السودان،وكانت المرحلة الثالثة ـ الوجه الثالث ـ هو قرار استرجاع السودان وإنهاء سيطرة المهدية. نجم عن قرار الإخلاء ضياع السودان واقتسام ما كان يتبع مصر من أراضيه وتعرض حدود مصر الجنوبية لتهديد الدراويش الذى لم يوقفه إلاهزيمة النجومى فى توشكى ١٨٨٩، ويمكن القول أن من تاريخ معركة توشكى تبدأ مرحلة تفكير بريطانيا فى استرجاع السودان بصورة جدية فقد خشى الإنجليز من فرنسا التى كانت تعارض الاحتلال البريطانى لمصر معارضة شرسة ورغبتها الملحة فى التوغل فى إفريقيا الوسطى والوصول إلى حوض النيل وضم إقليم بحر الغزال إلى أملاكها الإفريقية على أساس أنه حق مباح منذ أن أخلى المصريون السودان، فإذا استطاع الفرنسيون الوصول إلى حوض النيل من ممتلكاتهم فى إفريقيا الغربية فهذا معناه إزعاج الاحتلال البريطانى وتهديده بقطع المياه عن مصر، وكانت الفكرة الذائعة أن السيطرة على منابع النيل والتحكم فى توزيع مياه النهر يكفلان السيطرة على مصر ذاتها، وبالفعل قررت الحكومة الفرنسية إرسال حملة الغرض منها الوصول إلى فاشوده. بدأ الزحف الفرنسى من الكونغو الفرنسى (كونغو برازافيل) واتجه شرقًا حتى وصل إلى فاشوده التى تسيطر على مجرى النهر الأعلى عند ملتقى رافديه بحر الغزال وبحر السوباط،ولم يوقف هذه الحملة ـ مؤقتًا غير معارضة البلجيك الذين كانوا يعملون فى الوقت نفسه للتوغل فى هذه المنطقة. وهذا النشاط المتزايد من جانب الفرنسيين حرك ليوبولد ملك البلجيك لتوسيع أملاكه واحتلال حاجز لادو الذى استأجره من البريطانيين وطمع فى أن يؤجر له خديوى

مصر كل سودان وداى النيل ابتداء من الخرطوم جنوبًا إلى بحيرة ألبرت المكان الذى تبدأ منه منطقة النفود الإنجليزى[1].

وهكذا صار واضحًا للإنجليز أن مسألة حوض النيل أو السودان بأكمله يجب أن يثار عاجلًا وأن تكون القوة المسلحة القول الفصل فى حلها، وقررت بريطانيا استرجاع السودان وكان ذلك فى مارس ١٨٩٦ وبدأت باسترجاع دنقله، وقوبل الزحف على دنقله بعاصفة من الاحتجاج والاستنكار من فرنسا.

كان هذا الاجراء مفاجئًا حتى بالنسبة لمصر عندما أبلغ المندوب السامى البريطانى فى مصر اللورد «كرومر» خديوى مصر بأن الحكومة الإنجليزية قررت إرسال حملة للسودان وأن عليه تجهيز أورطتين من الجيش المصرى للسفر، وتولى قيادة الحملة السردار كتشنر تحت إشراف اللورد «كرومر» ووقع الاشتباك بين قوات الحملة والدراويش وانهزم الدراويش هزيمة كبيرة وأخلوا دنقله من غير قتال يذكر واحتلها الجيش الزاحف فى سبتمبر١٨٩٦ . وباسترجاع دنقله يكون كتشنر أنهى التعليمات التى لديه ولا يمكنه الزحف إلى أبعد من هذا المكان إلا إذا صدرت إليه تعليمات جديدة بذلك. وعاد كتشنر إلى القاهرة.

كان من الواضح أنه لامفر من استئناف العمليات العسكرية واستمرار الزحف للوصول إلى الخرطوم لعدة أسباب منها أن حملة دنقله أقامت الدليل بسبب النفقات القليلة التى تكلفتها والانتصارات الباهرة التى أحرزتها بسهولة على أن من الممكن تحطيم قوة الدراويش نهائيًا، وأن الخوف من أن يصل الفرنسيون إلى بحر الغزال وأقاليم النيل العليا قد بلغ مداه منذ أن وصل الفرنسيون برئاسة الكاتبن مارشان إلى النيل الأعلى ورفع العلم الفرنسى على فاشوده لذلك قررت الحكومة البريطانية الزحف إلى ما وراء دنقله.

حملة أم درمان: عقب انتهاء تجربة دنقله ذهب كتشنر إلى إنجلترا ١٨٩٧ لينال موافقة حكومتة على استمرار الزحف حتى يصل إلى فاشوده قبل وصول «مارشان» إليها وتوطيد أقدامه فيها فيتعذر إخراجه من حوض النيل الأعلى من غير قيام حرب بين إنجلترا وفرنسا. نال كتشينر الموافقة وعن طريق وادى حلفا بلغ «مروى» واتخذها مركزًا له ثم وقعت معركة «أبى حمد» التى انهزم فيها الدراويش وأخلوا بربر متقهقرين وتلاقى الجيشان فى واقعة العطبرة وانهزم الدراويش وقتل منهم حوالى ثلاثة آلاف وبلغ عدد أسراهم ألفين، وكان هذا الظفر

(١) مصر والسودان ـ المرجع السابق ـ ص٤٤٧.

أقوى تمهيد لفتح السودان. قرر كتشنر التقدم إلى ام درمان وكان معروفًا أن الخليفة التعايشى يحشد قواته هناك والتحم الجيشان فى معركة أم درمان الفاصلة وانهزم الدراويش وفر الخليفة ورجاله ودخل كتشنر أم درمان، وبذلك انتهت دولة الدراويش وظل الخليفة مطاردًا أكثر من سنة ثم قتل فى معركة أم دويكرات فى كردفان وكانت معركة نهائية عثر بعد انتهائها على الخليفة وقد فارق الحياة على سجادة صلاته المصنوعة من فرو الأغنام بينما قتل جميع قادة الحركة المهدية وزعمائها أو سُجنوا، كانت تلك الهزيمة هى الفاصلة فى انهيار الدولة المهدية[1].

بعد واقعة أم درمان بيومين رفع كتشنر فى سبتمبر ١٨٩٨ العلمين المصرى والإنجليزى على سراى الحكومة المخربة وأبلغت الحكومة البريطانية الحكومة المصرية أن «الإنجلترا حق الاشتراك فى السودان بما ضحت فيه من المال والرجال» وهو البلاغ الذى مهدت به الحكومة البريطانية لعقد الاتفاق الثنائى لإدارة السودان.

حادث فاشوده:

لم تنته مشاكل استرجاع السودان بهزيمة الخليفة عبد الله فى واقعة أم درمان وإنهاء دولته بل بقى على كتشنر واجب آخر هو الوصول بأقصى سرعة إلى فاشوده. غادر كتشنر الخرطوم بطريق النيل الأبيض، وعندما وصل فاشوده وجد «مارشان» قد سبقه فعلًا ورفع العلم الفرنسى عليها، وهناك على بعد مائتى ياردة رفع كتشنر العلم المصرى،وبدأت الأزمة بين إنجلترا وفرنسا.

وأهمية حادث فاشوده تنحصر فى أنه كان أحد مظاهر المنافسة الشديدةبين فرنسا وإنجلترا على الاستعمار فى إفريقيا عمومًا، وعلى تأسيس مناطق النفوذ فى حوض النيل الأعلى بالذات، خاصة وأن الفرنسيين شهدوا أن الإنجلتز يتوغلون فى أراضى أوغندا ويعقدون المعاهدات مع البلجيك بتأجير حاجز لادو للكونغو الحرة، ودل ذلك على أن الإنجليز كانوا يعتبرون السودان ملكًا مباحًا، ورأى الفرنسيون إن يكون لهم نصيب مماثل فى اقتسام هذه الأملاك التى أخلاها المصريون فى السودان.

استحكمت الأزمة حلقاتها بوصول «كتشنر» ومارشان إلى فاشوده، وكان أمام الطرفين إما التفاهم والمفاوضة السلمية أو المواجهة العسكرية ووقوع الحرب بين الدولتين، ولكن فرنسا لم تكن على استعداد للدخول فى قتال قد يعود عليها وعلى مستعمراتها.بأوخم العواقب؛

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص٩٥.

فأذعنت للأمر الواقع وأمرت «مارشان» بالانسحاب وإخلاء فاشوده وتسوية الخلاف سلميًا بالاتفاق على تحديد مناطق النفوذ بين أملاك ومستعمرات الإنجليز والفرنسيين فى نهر النيجر وبمقتضى الاتفاق خرج حوض بحر الغزال وبحر العرب بأجمعه وبما فى ذلك دارفور من دائرة النفوذ الفرنسى.

الحكم الثنائى١٨٩٩:

بعد ست عشرة سنة من واقعة أم درمان التى حسمت سيطرة المهدى على السودان أمكن مطاردة المهديين فى أنحاء السودان والسيطرة الكاملة على المواقع التى كانت لاتزال فى ايديهم .وكان رفع العلمين المصرى الإنجليزى جنبًا إلى جنب إشارة على التغيير الذى طرأ على الوضع فى السودان بعد زوال المهدية منه واسترجاعه. كانت مشكلة الوضع السياسى فى السودان من أعوص المشاكل فكيف يدار السودان فى المستقبل؟

طرحت ثلاثة حلول؛ إما أن تضم بريطانيا السودان إليها وإما أن تعتبر السودان جزءًا من الامبراطورية العثمانية أى تعود إلى أملاك هذه الإمبراطوية، وإما أن يكون هناك نوع من الحل الوسط تتحقق به الأغراض التى تريدها بريطانيا.وتناول اللورد «كرومر» بالبحث كل واحد من هذه الحلول الثلاثة فقال إن بريطانيا لأسباب سياسية ومالية لا تريد أن تضم السودان إليها، وأن الاعتراف بأن السودان جزء من الأملاك العثمانية من شأنه أن تستمر كل المصاعب الدولية والعقبات التى واجهتها الحكومة البريطانية خلال الخمس عشرة سنة الماضية عند تناول المسائل المتعلقة بالشئون المصرية؛ لذلك وجب التوصل إلى حل وسط بين هذين الإجراءين، ورأى «كرومر» أن الحل الوسط يتخذ شكل اتفاق أو وفاق وتفتق ذهنه إلى مشروع ثنائى للحكم فى السودان وهو ماعرف بالوفاق الثنائى بين الحكومتين المصرية والبريطانية، وكان يتألف من مقدمة واثنتى عشرة مادة وشفع كرومر مشروعه بمذكرة لتفسير الأغراض التى توخاها من هذا المشروع جملة ثم كل مادة من مواده تفصيلًا.

لم يبحث كرومر مع الحكومة المصرية النقط التفصيلية الواردة فى مشروع الاتفاق، ومن الثابت أن الخديوى ورجال بطانته ماكانوا يعرفون شيئًا على وجه الدقة عن الوضع السياسى الذى كان يراد تقريره للسودان أو عن تفاصيل نظام الحكم فيه حتى رفع العلمين، اتضح فيما بعد أن كان المقصود منه التدليل على مشاركة البريطانيين فى حكم السودان وتقرير سيطرتهم عليه عن طريق السردار الانجليزى الذى وصفه «كرومر» بأنه النائب الوحيد فى السودان-عن الحكومتين البريطانية والمصرية والذى لا يجب التعويل على أحد غيره-.

وهكذا خضع السودان للحكم الثنائى الذى فرض عليه، وفى ١٩ يناير ١٨٩٩ وقعت على الاتفاق كل من مصر وبريطانيا، ونصت مادته الأولى أن يسرى هذا الاتفاق على جميع الأراضى الكائنة جنوبى الدرجة الثانية والعشرين فى خطوط العرض وهى: أولًا الأراضى التى لم يخلها قط الجنود المصريون منذ ١٨٨٢، وثانيًا الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان وفقدت منها وقتيًا ثم تمّ استردادها؛ تلك كانت نهاية قصة سودان وادى النيل حتى استقل بنفسه وشعبه فى عام ١٩٥٦.

*****

الفصل الرابع

أولًا: دول الساحل والممالك الزنجية

١- مملكة اليوروبا

٢- مملكة بنين

٣- مملكة الأشانتى

٤- مملكة داهومى

ثانيًا: مقاومة الممالك الزنجية الساحلية فى القرن ١٩

١- المقاومة ضد الغزو الفرنسى

٢- المقاومة ضد الغزو البريطانى

أولًا: دول الساحل والممالك الزنجية

هذا ما كانت عليه مناطق السودان الكبير الممتد من الأطلسى الى البحر الأحمر، أما على الساحل الإفريقى فقد قامت ممالك زنجية اكتسبت شهرة تاريخية لما كانت عليه من قوة ونفوذ، قاومت الاستعمار مقاومة عنيفه مضنية شهد بها المستعمرون أنفسهم بما لا قوه من قسوة وقوة هذه المقاومة.

ودول الساحل هى مناطق المستنقعات والغابات الاستوائية الممطرة فى غرب إفريقيا وهى ما أطلق عليها المستعمرون وصف«مقبرة الرجل الأبيض» باعتبارها مناطق لا يمكن اختراقها، ولكن يوجد من الشواهد ما يدل على أن بعض الأوروبيين وكذلك تجار عرب تمكنوا باستمرار من الوصول إلى مناطق حزام الغابات الاستوائية فى سواحل غرب إفريقيا ووجدوا فيها ممالك قائمة، ولكن تاريخ تلك الممالك التى نشأت فى مناطق الغابات الاستوائية تختلف عن تاريخ الممالك والإمبراطوريات التى ظهرت فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى، وكذلك سكان تلك المناطق يختلفون جسميًا وثقافيًا عن الإفريقيين الذين يعيشون فى شمال مناطق الغابات.

ورغم أن كتابًا عربًا من مؤرخين وجغرافيين ذكروا الكثير عن الأراضى والشعوب والقبائل التى تعيش فى المناطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى إلا أنهم لم يذكروا شيئًا عن أراضى وقبائل منطقة الغابات الاستوائية، لذلك كان يعتقد إلى وقت قريب أن القبائل والشعوب التى تعيش على سواحل غينيا وفى داخل الغابات ليس لها تاريخ، ولكن تبين بعد اكتشاف الكثير من الشواهد التاريخية من تماثيل وأوانى وآثار أخرى مصنوعة من الصلصال الأحمر والبرونز دلت على أنها نتاج فن مميز وله طابع خاص يرجع إلى فترات زمنية بعيدة تبدأ من القرن التاسع قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعد الميلاد[1]. وأنه كانت هناك حضارة

(١) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، تاليف جوان جوزيف، ترجمة مختار السويفى/ دار الكتاب اللبنانى صفحة ١٠٠.

منتشرة ومنشرة بين قبائل النوك النى كانت تعيش فى مساحة على امتداد حوالى خمسمائة كيلو متر فى أراضى نيجيريا، وتقول بعض الاحتمالات التى لم يثبت تأكيدها أن هؤلاء هم أجداد قبائل اليوروبا التى تعيش الآن فى نيجيريا، وأيًا كان الأمر فإن اليوروبا الذين ورثوا هذه المنطقة كانوا مستقرين فى مناطق واسعة غرب نيجيريا وخلال القرن الثامن الميلادى أسسوا عاصمة لهم فى مدينة إيفى IFE التى كانت عاصمة دينية وثقافية لجميع قبائل اليوروبا.

ومن أشهر ممالك الساحل:

١- **مملكة اليوروبا:** كان انتشار اليوروبا فى بطاح شاسعة من أهم عوامل تفككهم إلى ممالك مستقلة، كانت أقواها ولاية أويو OYO التى اتخذت مدينة إيفى عاصمة لها فى القرن الحادى عشر الميلادى، وظلت عاصمة روحية لجميع قبائل اليوروبا لمدة طويلة حتى غزتها قبائل الإيدو Edo التى كانت تعيش فى بنين جنوب ولاية أويو وأسسوا مملكة بنين[١].

لم يعرف إلا النزر اليسير عن تاريخ اليوروبا بالرغم من أنها أكثر دول غرب إفريقيا شهرة لأن تاريخها لم يسجل. ويشتهر مجتمع اليوروبا بفنونه وأعمال الحفر على الخشب والاشغال البرونزيه التى تعد من أروع أعمال الإبداع الفنى فى غرب افريقيا. ولم يكن اليوروبا مجموعة عرقيه واحدة بل كانوا تنوعًا من قبائل توحد بينهم الأعراف، ويمكن القول أن اليوروبا كانوا على غرار الهوسا نظامًا للحكم أكثر منهم دولة واحدة[٢].

٢- **مملكة بنين:** تأسست مملكة بنين فى نفس الوقت الذى تأسست فيه دولة اليوربا فى القرن الحادى عشر، وتوسعت المملكة فى مناطق الغابات المحيطة بها وضمتها إلى سيطرتها، واتسم نظام حكمها باستقرار الأمن والسلام حتى عام ١١٠٤ حيث ثارت القبائل على ملكها وأبعدته منفيًا من البلاد وأكدوا حقهم فى اختيار الحكم، وهذه أول نزعة جمهورية معروفة فى تاريخ ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، فقد أعلن شعب بنين إنهاء الملكية وبداية الجمهورية حيث قام الشعب باختيار حاكمه[٣]، واختار الشعب شخصا ليس من الأسرة المالكة ليكون أول حاكم جمهورى لشعب بنين.

---

(١) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء- المرجع السابق صفحه ٩٩

(٢) الوثنية والإسلام - المرجع السابق - صفحه ٢٣٩

(٣) الإسلام فى ممالك وإمبراطويات إفريقيا السوداء- المرجع السابق صفحه ١٠٧

اتسعت رقعة مملكة بنين نتيجة لقيامها بغزو مناطق الغابات المحيطة وضمتها تحت لوائها. وفى خلال القرن ١٦ كانت بنين مملكة تسيطر على مناطق واسعة تمتد من دلتا نهر النيجر حتى مدينة لاجوس الحالية، ولسوء الحظ كانت هذه المنطقة إحدى المناطق الرئيسية التى هبط فيها المستعمرون لاقتناص العبيد، وقد زود الأوروبيون شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية لمحاصرة الأهالى واصطيادهم أحياء والدفع بهم إلى ساحل خليج غينيا ليصدروا ويباعوا، وانطلقت جيوش بنين المزودة بالأسلحة النارية إلى المناطق الداخلية وأسرت الآلاف واضطر الأهالى للهرب إلى مناطق أكثر تغلغلًا فى الغابات الداخلية والأحراش تكون أكثر أمنًا، حتى أنه فى بداية القرن ١٨ أصبحت مساحات واسعة من جنوب نيجيريا خالية تمامًا من الناس، ولذلك فقدت بنين قدرتها على الاستمرار فى تجارة العبيد واضمحلت بالتالى، ووصمت هذه المملكة فى التاريخ الإفريقى بعار الاشتراك مع الأوروبيين فى تجارة العبيد حتى أنه يشار إليها بأنها «مملكة الدماء»[١].

٣- مملكة الاشانتى: كانت الأشانتى وداهومى دولتين استبداديتين داخليتين شاغلهما الأساس هو الوصول إلى الساحل لإقامة علاقات مباشرة مع التجار الأوروبيين بحيث تستطيعان الحصول على البنادق والبارود بثمن رخيص وبيع الرقيق دون الوسطاء لأن الوسطاء يمتصون غالبية الأرباح التى تحققها التجارة. واتبعت دهومى والأشانتى هذه السياسة بإصرار شديد، واستطاعتا فى غضون القرن ١٨ بناء دولتين بمقدورهما الصمود فى وجه الغارات[٢].

كان ظهور الأشانتى فى بداية القرن ١٥ الميلادى حيث استقرت مجموعة من قبائل الآكان فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، واستقر مقامهم فى مناطق الغابات الواسعة فى شكل جماعات أو ولايات منفصلة لا يربطها أى رابط أو اتحاد عدا العلاقات الروحية التى توجد لدى القبائل المنتمية إلى أصل واحد، كان عدد هذه الولايات يربو على اثنتى عشرة ولاية، ولم تكن كلها على قدر متساو من القوة، بل ظهرت ولاية واحدة هى الأشانتى اعتبرت أقوى هذه الولايات وأصبحت كوماسى Kumasai.عاصمة الأشانتى عاصمة روحية لجميع قبائل الآكان.

وفى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعرضت ولايات قبائل الآكان

---

(١) الاسلام فى ممالك وامبراطوريات إفريقيا السوداء/ المرجع السابق ص١١٢.

(٢) الوثنية والاسلام/ المرجع السابق ص٢٥٠.

لغزوات مستمرة من القبائل الأخرى المعادية التى تعيش فى المناطق المجاورة، وكانت قبائل الآكان بطبيعتها مسالمة، ولكن هذه الغزوات دفعت الآكان إلى التطلع إلى الاتحاد لتتمكن من مواجهة الأعداء ومن هجماتهم.

وفى أواخر القرن ١٧ تحقق هذا الأمل على يد ملك كوماسى أوزى تو تو Osei tutu الذى نجح فى جمع قبائل الآكان فى مجلس واحد، ودعاهم إلى ضرورة الاتحاد فى أمة واحدة وتحت حكومة واحدة.

لم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت مملكة الأشانتى أقوى مملكة فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب إفريقيا، وتمثلت قوتها فى كميات الذهب التى تملكها والتى تخبئها وتخفيها داخل أماكن سرية مجهولة فى عمق الغابات. وكانت القوة العسكرية الكبيرة لدولة الأشانتى ذات تمويل ذاتى يأتى أساسًا من عمليات تبادل منتظمة لتراب الذهب مقابل أسلحة نارية مع الهولنديين، وأدى ذلك الأمر الى استنفار البريطانيين وحلفائهم الإفريقيين من الفانتى وبقائهم فى حالة تأهب دائم من الأشانتى حتى أن الفانتى تخلوا عن الإنتاج الزراعى نظرًا لتهديد غزو الأشانتى الدائم لهم[١].

بدأت مملكة الأشانتى فى غزو الأراضى المجاورة، وأقامت علاقات مع القبائل التى تعيش على سواحل خليج غينيا، وكانت هذه القبائل تتولى أعمال الوساطة بين مملكة الأشانتى وتجار الرقيق الأوروبيين الذين ينزلون السواحل المطلة على خليج غينيا، وعندما ازدادت قوة الأشانتى قررت استبعاد القبائل الوسطاء والتعامل مباشرة مع التجار الأوروبيين، ولكى يتحقق هذا الغرض كان لابد من الاستيلاء على أراضيهم المطلة على المحيط. وقام جيش الأشانتى بغزو القبائل التى تعيش فى الأراضى الساحلية وارتكب ضدهم مذابح جماعية وحشية، واستحق بذلك الوصف الذى تطلقه عليه عمليه الحكايات المتوارثة باعتباره أكبر جيوش غرب إفريقيا شجاعة وتوحشًا. وأصبحت مملكة الأشانتى أقوى ممالك غرب إفريقيا الساحلية. وفى خلال القرن ١٩ ناضلت الأشانتى بقوة وببسالة ضد المستعمرين الإنجليز حتى خضعت فى النهاية وأصبحت مملكتهم محمية تدخل ضمن مستعمرة ساحل الذهب (غانا حاليًا)[٢].

(١) إفريقيا منذ عام ١٨٠٠ - رونالد أوليفر وانتونى اتمور - ترجمة فريد جورج بورى/ مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة صفحه ٩٤

(٢) العبودية فى إفريقيا - المرجع السابق - صفحة ١١٢-١١٨

٤- **مملكة داهومى:** جذبت مملكة داهومى أعظم قدر من الاهتمام فى القرن ١٩ ببسالة شعبها الفانتى المحارب رجالًا ونساء. وتعد داهومى دولة حربية من الطراز الفريد ظلت طيلة ثلاثة قرون تنتهج سياسة قوامها التوسع، ويندر أن يوجد فى أى مكان فى العالم شعب أخضع كل شىء فيه للحرب ولصناعة الحرب مثله وكان عواقب هذه السياسة هو الإهمال التام للزراعة وتناقص سكانها بسبب غزواتها والغارات من أجل الرقيق، وبسبب استدعاء النساء للخدمة فى الجيش فى أكثر سنوات عمرهن خصوبة. وكان جيش داهومى قوة حسنة الانضباط والتنظيم والأكثر تسلحًا والأفضل تدريبًا فى غرب إفريقيا، ومع ذلك لم يكن النجاح حليف داهومى وأخفقت فى خلق الإمبراطورية التى تؤهلها لهم بسالتهم الحربية لأن سياستها الحربية لم تكن مرتبطة بأى مقصد سياسى[١].

ثانيا: مقاومة الممالك الزنجية الساحلية فى القرن ١٩

كانت نهايات القرن ١٩ بالتحديد ما بين سنوات ١٨٠٠-١٩٠٠ الفترة التى بلغ فيها الغزو الأوروبى لغرب إفريقيا ذروته، فلم يحدث من قبل على مر التاريخ المعروف للقارة أن شهدت مثل هذا النشاط العسكرى أو مثل هذا العدد من الغزوات والحملات من الدول والمجتمعات الإفريقية، ومن أبرز ما شهدته الحملات الفرنسية فى غرب السودان وساحل العاج وداهومى (بنين)، والحملات البريطانية فى بلاد الأشانتى (غانا) ومنطقة دلتا النيجر (نيجيريا). وفى هذه الفترة كان الإفريقيون جميعًا دون استثناء يتوخون الدفاع عن سيادتهم وأسلوبهم التقليدى فى الحياة، وإن اختلفت الاستراتيجيات والطرائق التى اتبعوها لتحقيق هذا الهدف. وكان أمام الإفريقيين ثلاث خيارات منذ الغزو الأجنبى: إما المواجهة وإما التحالف وإما الإذعان والخضوع، وكانت استراتيجية المواجهة تعنى الحرب السافرة والحصار وتكتيكات حرب العصابات وسياسات حرق المزارع لحرمان العدو من استخدامها، وقد لجأ الإفريقيون إلى الخيارات الثلاثة جميعها، وإن كان الحكام الذين اختاروا استراتيجية المجابهة القتالية أكبر من عدد الذين اختاروا الخضوع والخنوع[٢].

١- المقاومة الإفريقية ضد الغزو الفرنسى

انتهج الفرنسيون ابتداء من عام ١٨٠٠ وما بعده سياسة بسط سيطرتهم على منطقة غرب

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق صفحة ٢٥٨
(٢) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق صفحة ١٢٨

إفريقيا بأسرها من السنغال إلى النيجر أولًا ثم تشاد مع ربط تلك المناطق بمراكزهم على الساحل الغينى فى ساحل العاج وداهومى. ولجأوا فى احتلالهم لغرب إفريقيا إلى أسلوب الغزو العسكرى أكثر من لجوئهم الى عقد معاهدات الحماية كما فعل البريطانيون.

أما عن ردود فعل الإفريقيين فقد التجأوا إلى كل الخيارات المتاحة أمامهم: المجابهة والتحالف والخضوع. كانت المقاومة الإفريقية فى تلك الحالات أطول أمدًا من مثيلاتها فى أى بقعة أخرى لسببين أولهما أن اعتماد الفرنسيين على الغزو العسكرى أثار ردود فعل نضالية، وثانيهما أن الاسلام كان منتشرًا بين شعوب تلك المناطق، وكان يعنى حكم البيض بالنسبة للمجتمعات الإسلامية فى غرب إفريقيا خضوعًا للكفار وهو مالا يقبله أى مسلم؛ لذلك فإن تلك الشعوب عمدت إلى مقاومة الأوروبيين بحماس وإصرار زائدين كان يفتقد إليهما معظم من لايدينون بالإسلام. وقد سبقت الكتابة عن المقاومة الإسلامية والإفريقية للغزو الفرنسى فى السنغال وبلاد التكرور وإمبراطورية ساموري تورى، والآن أختص بالحديث عن المقاومة الزنجية الوطنية فى دول الساحل.

مقاومة داهومى: منذ منتصف القرن ١٩ أخذت الدول الأوروبية وبخاصة بريطانيا وفرنسا تبدى اهتمامها بتدعيم نفوذها على الساحل الغربى الإفريقى، ونجحت فرنسا فى عام ١٨٥١ فى توقيع معاهدة تجارية مع داهومى، وتعهد بمقتضاها ملكها« غيزو» بالمحافظة على سلامة الحصن الفرنسى فى «وايداح» أهم مدنها. حاولت بريطانيا التوغل فى داهومى بحجه وقف تجارة الرقيق، ولكن ملك داهومى لم يكن مستعدًّا للتخلى عن هذه التجارة وأعلن أن الداهوميين ليسوا فلاحين وإنما هم محاربون وأن رخاء البلاد يتوقف على التجارة وأنهم لا يسمحون للبريطانيين أو غيرهم بالتدخل فى شئونهم.

ظل التنافس البريطانى الفرنسى على أشده وكلما يتزايد نفوذ بريطانيا فى لاجوس (نيجيريا) كان يرد عليها بخطوة فرنسية فى داهومى، وعندما فشل البريطانيون فى إقناع داهومى بقبول الحماية البريطانية قذفوا مدينة (وايداح) بالقنابل ولم يكن أمام داهومى سوى قبول الحماية الفرنسية. وفى عام ١٨٥٨ أعطى ملك داهومى للفرنسيين المدينة وستة كيلومترات من الأراضى إلي الداخل.

فى هذه الأثناء كان البريطانيون يدعمون نفوذهم وممتلكاتهم على طول الساحل النيجيرى، وكانت ألمانيا بدورها منهمكة فى التدخل فى توجو فأخذت فرنسا تتوغل أكثر

فأكثر داخل داهومى مما دعا ملك داهومى أن يطلب فسخ المعاهدات الفرنسية وسحب قواتها العسكرية وبالطبع رفضت فرنسا الانسحاب وعززت قواتها العسكرية فى داهومى بل أكثر من ذلك بدأت تفرض رسومًا على التجارة، وأدى هذا إلى نقص كبير فى إيرادات ملكها فما كان منه إلا أن قام بهجوم مفاجئ على القوات الفرنسية التى لم تكن كافية لتستطيع اتخاذ إجراءات فعالة ضد الداهوميين، ورأت فرنسا أنه من الأفضل تسوية الأمور بالوسائل الدبلوماسية، فقام الحاكم الفرنسى بزيارة ملك داهومى الذى استقبله بكياسة ولكنه رفض أن يبحث معه أية أمور، ولم يسمح له بمغادرة البلاد، ولكن حدث أن مات الملك فاستطاع الحاكم الفرنسى أن يفر من داهومى وكان ذلك عام ١٨٨٩.

أخذ ملك داهومى الجديد(بيجا نزين) يستعد لمهاجمة المواقع الفرنسية على طول الساحل، وقبل أن يشرع فى الهجوم قبض على المبشرين والتجار الأوروبيين كرهائن، ولكن لم يفلح الداهوميين فى هجومهم وخضعوا للمباحثات مع الفرنسيين، ولكى يدللوا على حسن نواياهم أفرجوا عن المبشرين ووافقوا على قبول الحماية الفرنسية مقابل أن تدفع فرنسا لهم عشرين ألف فرنك سنويًا.

وبالرغم من هذا الاتفاق لم يكن الداهوميون يقبلون الهزيمة، وكانوا يريدون فترة يلتقطون فيها الأنفاس ويعيدون تنظيم جيوشهم، وبالنقود التى قدمها الفرنسيون اشترى الملك(بيجا نزين) مدافع من الألمان ودعا جنود جارته«توجو» الذين دربهم الألمان لإعادة تنظيم الجيش الداهومى. وفى عام ١٨٩١ قام الملك بمحاولة ثانية لطرد الفرنسيين وعاد بألفين من الأسرى وهاجم سفينة فرنسية.

وهنا أدرك الفرنسيون ـ وقد رأوا الغزو الألمانى لتوجو ـ ضرورة العمل بسرعة حتى يمكن إبقاء الألمان بعيدين عن داهومى، فقاموا بغزو مكثف على داهومى، وفى غضون عام واحد كانت المملكة قد تم غزوها بأسرها(١).

مقاومة شعب البولى فى ساحل العاج:

كان من المعتقد أن المقاومة ضد الفرنسيين فى مناطق الغابات فى غينيا وساحل العاج لم تبدأ إلا بعد عام ١٩٠٠، غير أن شعب البولى المقيم فى ساحل العاج أثبت خطأ هذا

(١) الوثنية والإسلام ـ المرجع السابق صفحة ٣٤٨ ـ ٣٥٦.

الاعتقاد، فقد بدأ نضاله ضد الفرنسيين عام ١٨٩١ حينما واجه حملتين عسكريتين فرنسيتين فشلتا أمام المقاومة العنيدة من جانب البولى. وكانت الفترة الممتدة من ١٨٩٥-١٨٩٨ فترة سلام فى بلاد البولى، غير أن الفرنسيين بعد أن هزموا سامورى تورى عام ١٨٩٨ قرروا البدء باحتلال البولى احتلالاً فعليًا وأعلنوا أن منطقة البولى إقليم عسكرى وشنوا سلسلة من الحملات العسكرية أسفرت عن الاستيلاء على كوكومبو أكبر مراكز استخراج الذهب فى بلاد البولى، كما قتلت زعيم البولى وأعدمت قائده الذى ضرب فى زنزانة حتى الموت ولكن ثورة البولى لم تخمد ولجأوا إلى تكتيكات حرب العصابات واستمروا فى مناوشات ضد القوات الفرنسية، ولم يستتب السلم إلا عندما أدرك القائم بأعمال حاكم المستعمرة أنه لا فائدة من استخدام القوة فأمر بوقف العمليات العسكرية فى عام١٩٠٢ (١)

٢- المقاومة الافريقية ضد الغزو البريطانى

بينما لجأ الفرنسيون إلى الحرب كوسيلة لاحتلال إفريقيا الغربية فى الفترة ما بين ١٨٨٠-١٩٠٠ استعان البريطانيون بالدبلوماسية السلميةوالحرب فى آن معًا، فقد استخدموا الدبلوماسية السلمية عندما أبرموا عدة معاهدات للحماية مع الدول الإفريقية كما هو الحال بالنسبة للبقاع الشمالية من سيراليون وفى بقاع من بلاد اليوروبا واستخدموا القوة فى بقاع أخرى مثل بلاد الأشانتى والإيجيبو فى بلاد اليوروبا وفى مناطق دلتا النيجر وخاصة فى نيجيريا الشمالية. وكانت ردود فعل شعوب المنطقة مثلما حدث فى إفريقيا الفرنسية تتمثل فى الالتجاء إلى جميع الخيارات المتاحة أمامها وهى المواجهة والتحالف والخضوع أو الجمع بينها.

مقاومة الأشانتى:

لم تشهد منطقة غرب إفريقيا فى تاريخها مواجهة بين الإفريقيين والأوروبيين أطول أمدًا من المواجهة بين الأشانتى والبريطانيين فى ساحل الذهب (غانا)، فقد بدأت هذه المواجهة فى الستينيات من القرن الثامن عشر وانتهت بنهاية القرن ١٩. فى بداية القرن ١٩ بالتحديد عام ١٨٠٥ دخل الأشانتى فى حرب مع جيرانهم الفانتى والأوروبيين فى حرب استمرت مائة عام مع فترات توقف لم تنته إلا مع توطيد السيادة البريطانية.

---

(١) تاريخ إفريقيا العام- المرجع السابق صفحة ١٤١-١٤٢.

كان الفانتى فى ذلك الوقت أقوى شعوب الساحل، ولهم اتصال دائم مع الأوروبيين مما حفزهم على توسيع حدودهم بمحاربة جيرانهم الأشانتى لانتزاع أراضيهم، ولم يكن الأشانتى حتى ذلك الوقت قد دخلوا فى نزاع مع أية قوة كبيرة فيما عدا داهومى، كما لم يكن الأشانتى تواقين إلى محاربة الفانتى إلا ان أستفزاز الفانتى لهم معتمدين على أصدقائهم البريطانيين جعل الأشانتى يدقون طبول الحرب بحملات ثلاث بدأت عام ١٨٠٥ وانتهت عام ١٨١٦ كان النصر حليف الأشانتى وأصبحوا أصحاب السلطة العليا على ما يُسمى بغانا الآن، وتحطمت أطماع الفانتى فى إقامة دولة ساحلية لهم وتحولوا إلى ولاية تابعة للأشانتى، واضطر الأوروبيون إلى الاعتراف بسيادة الأشانتى

لكن بريطانيا كانت قد عزمت الأمر على إخضاع الأشانتى واحتلال ساحل الذهب وكانت دائمة الاستثارة للأشانتى، إلا أن الأشانتى كانوا يتحلون بقدر ملحوظ من الصبر والحلم، حتى وقع حادث صغير عام ١٨٢٤ أدى إلى استثارة الاشانتى إذ طلب الحاكم البريطانى (سير تشارلز مكارثى) من رؤساء الأشانتى عزف النشيد القومى البريطانى فى اراضيهم، ولما رفضوا اتخذ مكارثى ذلك ذريعة لمحاربة الأشانتى ولكن الأشانتى هزموا البريطانيين وحلفائهم وقتلوا قائدها الحاكم مكارثى نفسه.

لم يكن انتصار الأشانتى نهاية معركتهم ضد مستعمريهم بل بداية حرب طويلة امتدت إلى عام ١٨٣١ أنهكوا فيها تمامًا وتداعت قوتهم مما اضطرهم إلى توقيع معاهدة مع البريطانيين وافقوا فيها أولًا على إيداع ستمائة أوقية من الذهب وعضوين من الأسرة الحاكمة كضمان، وثانيًا أن يمنح الاستقلال للخارجين عن الأشانتى والفانتى وغيرهم ممن طلبوا الحماية البريطانية، وثالثًا يمتلك البريطانيون بمقتضى حق الفتح الأرض المقامة عليها حصونهم، وبهذا البند أصحبت الأجزاء الجنوبية من ساحل الذهب محمية بريطانية وعزل الأشانتى عن البحر وأصبحت الذخيرة التي يشترونها تمر بمناطق تخضع للحماية البريطانية، كما أدت هذه المعاهدة إلى وقوع حرب أهلية بين زعماء الأشانتى الذين رفضوا المعاهدة.

فى عام ١٨٦٣ وقعت الحرب الثانية بين الأشانتى والبريطانيين، كان النصر حليف الأشانتى وأرغم البريطانيون على الانسحاب، وبرغم هذا الانتصار فإن الحكومة البريطانية شعرت بأنه لا مناص من غزو الأشانتى وإظهار قوة بريطانيا، وأرسلت إمدادات عسكرية من بريطانيا وسيراليون والتحموا مع جيش الأشانتى الذى تمرس على حرب الغابات مما أعاق التقدم البريطانى، وقد شهد الرحالة الاستعمارى «ستانلى» الذى كان يرافق الجيش كمراسل

حربى شهادة حق أن الأشانتيين كانوا ذوى تجهيز طيب وأنهم كانوا أكثر من ند للبريطانيين فى مناطق الغابات. ولكن لم يستطع الأشانتى بأسلحتهم الهزيلة ان يصمدوا أمام السلاح البريطانى الجبار فوقعوا معاهدة«فومينا».

دمرت معاهده السلم هذه نسيج النظام الملكى للأشانتى، فقد ثارت المقاطعات وفاض الكيل بالزعماء وقامت حروب أهلية بينهم وكان البريطانيون يمنحون الحماية لكل زعيم يتمرد على الأشانتيين، وأحدث ذلك ردود فعل كبيرة على الأشانتى أدت إلى تفكك مملكة الأشانتى. وقد حرص البريطانيون ألا تقوم قائمة لمملكة الأشانتى فحرضوا الدول الأعضاء فى اتحاد الأشانتى على أن تؤكد استقلالها وعزلت ملك الأشانتى، ونشبت حرب أهلية بشأن من يخلفه لم تنته إلا حينما أصبح«برمبه» الأول ملكًا جديدًا للأشانتى.

أثبت«برمبه» قدرته على التصدى للأزمات التى واجهها، ففى خلال ثلاث سنوات من بدء حكمه استطاع أن يوحد من جديد الدول الأعضاء فى اتحاد الأشانتى، وأقنع المهاجرين من شعب الأشانتى الذين هربوا من الحروب الأهلية إلى الدول المجاورة أقنعهم بالعودة إلى الوطن، فانزعج البريطانيون من يقظة مملكة الأشانتى ومن احتمال طمع الفرنسيين أو الألمان فيها فعرضوا وضعها تحت حمايتهم، ورفض الملك«برمبه» العرض فاقترحت بريطانيا إيفاد بريطانى مقيم دائمًا فى كوماسى مقابل دفع مكافأة سنوية للملك وسائر كبار الملوك التابعين له، ولكنه رفض ذلك أيضًا وأرسل بعثة إلى ملكة بريطانيا ليبلغها تمسكه بادارة مملكته، فما كان من إنجلترا أثناء وجود البعثة فيها إلا أن أرسلت إلى«برمبه» إنذارًا نهائيًا بأن يستقبل المقيم البريطانى ويدفع غرامة الحرب التى كانت فرضت على الأشانتى عام ١٨٧٤، ورفض ملك الأشانتى الاستجابة لهذه المطالب فاتخذت بريطانيا من رفضه ذريعة لشن حملة عسكرية واسعة النطاق ودخلت الحملة العاصمة كوماسى فى يناير ١٨٩٦ دون أن تطلق رصاصة واحدة لأن«برمبه» ومستشاريه كانوا قد قرروا عدم الدخول فى حرب مع بريطانيا وقبول الحماية البريطانية، وقد برر «برمبه» عدم دخول الحرب عندما طلب زعماء القبائل محاربة البريطانيين بقوله «لقد آثرت التسليم حفظًا لأرواح وأمن شعبى وأبناء وطنى». وعلى الرغم من ذلك اعتقل البريطانيون«برمبه» وأمه التى كانت ملكة على البلاد وأعمامه وقادته ونفوهم إلى سيراليون أولًا ثم جزر سيسل(١).

(١) تاريخ إفريقيا العام- المرجع السابق صفحة١٤٣

وشهدت السنوات الأربع ما بين ١٨٩٦ الى ١٩٠٠ محاولات الأشانتي اليائسة لتغيير السياسة البريطانية نحوهم، وفشلت محاولاتهم لإعادة ملكهم «برمبه» وأعضاء الأسرة المالكة الآخرين وإمعانًا في إذلال الأشانتي فقد أعلن الحاكم العام البريطاني أن ملكة بريطانيا هي سيدة الأشانتي وإن من حقه كممثل للملكة أن يجلس على كرسي العرش الذهبي وهو كرسي مقدس لدى الأشانتي، واصاب هذا الطلب الأشانتي بالذهول، فالكرسي هو رمز قوميتهم. وعند هذا الحد من الاستفزاز البريطاني لم تجد ملكة الأشانتي «ياه اشنتيوا» بُدًّا من إعلان الحرب ضد البريطانيين بدأت في مارس ١٩٠٠ وانتهت الحرب في مايو ١٩٠١ وعرفت باسم حرب ياه اشنتيوا. وكانت هذه الحرب الأخيرة بين الأشانتي والبريطانيين، ورغم عدم معرفة الملكة الإفريقية بفنون الحرب والتدريب العسكري فإن جيشها استطاع أن يحقق في البداية عددًا من الانتصارات عندما حاصرت قلعة كوماسي التي كانت القوات البريطانية قد سيطرت عليها مما تسبب في المجاعة والأمراض، وأثبت هذا التكتيك فاعليته بحيث إن البريطانيين تركوا الحامية بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة، وأبدى الأشانتيون مقاومة عنيفة كما لجأوا إلى حرب العصابات حتى نفدت دخيرتهم، وحسمت الإمدادات العسكرية البريطانية الحرب التي انتهت بهزيمة الأشانتي عام ١٩٠١ وأصبحت ساحل الذهب جزءًا من الإمبراطورية البريطانية في غرب إفريقيا. وكعقاب للملكة «ياه اشنتيوا» فقد نفاها البريطانيون مع عدد من زعماء الأشانتي إلى جزر سيشل لتلقى هناك الملك «برمبه» الاول وسائر رؤساء الأشانتي[١].

في ٢٦ يونيو ٢٠٠٠ نقل رفاة «ياه اشنتيوا» إلى بلدها غانا وأعيد دفنها في موكب جليل. جرى الاحتفال في اليوم الذي وافق مرور ١٠٠ عام على انتفاض «ياه اشنتيوا» ضد البريطانيين، واصدرت غانا عملة وطنية تحمل صورتها.

*****

(١) العبودية في إفريقيا- المرجع السابق صفحة ١٥٣

الجزء الثالث

حصاد المقاومة فى عموم إفريقيا

- المقاومة الإفريقية فى شرق إفريقيا.
- المقاومة الإفريقية فى وسط القارة وجنوبها.
- ردود الفعل الإفريقى للغزو وأسباب فشلها.
- كلمة أخيرة.

المقاومة الإفريقية فى شرق القارة:

نجح الاستعمار فى تمزيق إفريقيا واحتلالها، كما نجح فى إخفاء وطمس المقاومة الإفريقية المتواصلة والغليان والتوتر داخل هذه المجتمعات ضده، وإن كنا نجد لدى المؤرخين المنصفين فى الغرب وصفًا صادقًا لهذه المقاومة لكنها فى الغالب ما تصدر على أنها تمردات وانتفاضات لتجمعات وقبائل متصارعة متناحرة فيما بينها ثم وجهت سهامها إليه، فالمقاومة فى المفهوم الغالب لدى الغربيين إنما يقوم بها شعوب تنتظم فى دول ونظم مركزية أو فى وحدات سياسية صغيرة، وهو يستكثر أن تكون الشعوب الإفريقية على هذا القدر من الفهم والوعى والتماسك والتنظيم.

حقيقة أن الإفريقيين كانوا غير مدركين فى البداية ولا واعين لحقيقة مقاصد الأجانب الذين جاءوا من مغارب الأرض رحالة ومستكشفين ومرتزقة وشركات تجارية وأساطيل بحرية ودول شرهة طامعة أحكموا عليهم الطوق حتى استسلموا، وحقيقة أن التفتت السياسى والذاتية العرقية والإقليمية والمنازعات الداخلية بين الفئات الاجتماعية المتنافسة قد أضعفت قدره الشعوب الإفريقية على مقاومة الأوربيين، إلا أنه بالرغم من هذه النزعات المثيرة للفرقة كانت المواجهة والمقاومة هما الموقف الغالب إزاء الغزو والاحتلال الأوروبى الإمبريالى، وهذا ماركزت عليه فى الجزء الثانى من الكتاب من أنماط المقاومة الإفريقية والنشاط المناهض للاستعمار فى منطقة الحزام السودانى الممتد من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر. وقد خصصت منطقة الحزام الإفريقى بدراسة تفصيلية لأنها أقرب فى الصلة بنا وباهتماماتنا، ولما كان من الصعب حصر المقاومة فى كل أجزاء إفريقيا كل على حدة فى عمل واحد وحتى لا أخل بالهدف الأساسى من الكتاب وهو إبراز المقاومة فى كل عموم إفريقيا، فقد وجدت أن أجمل فى هذا الفصل الأخير النضال الإفريقى فى عمومه مع الإشارة السريعة المختصرة لشرق إفريقيا وجنوب القارة بشكل عام.

تركزت أنماط المقاومة المناهضة للاستعمار وردود الفعل الإفريقية فى ثلاثة أشكال:

١- المعارضة أو المواجهة التى حاولت الحفاظ على سيادة المجتمعات الأصلية.

٢- المقاومة المحلية التى كانت تسعى إلى معالجة مبادىء فرضها نظام الحكم الاستعمارى.

٣- التمردات التى كانت تستهدف تدمير النظام الأجنبى الذى تولدت عنه هذه المساوئ.

كانت استراتيجية المجابهة هى طرد الأوروبيين وحماية الأوطان والحفاظ على نمط حياتها. كان هدف الاستقلال هو الهدف الأسمى، وكانت دول إفريقية كثيرة على استعداد لتعبئة قواها لمنع أى اعتداء على استقلالها.

وقد اقتنع القادة الإفريقيون بضرورة التغلب على التفوق الأوروبى فى السلاح إذا كان لهم أن يضمنوا لأنفسهم البقاء. وكان كثير من المجتمعات التى اشتركت من قبل فى التجارة الدولية قد استفادت من دخول سوق الأسلحة وحصلت على مقادير من الأسلحة مقابل العبيد، وقامت شعوب أخرى لم تشارك من قبل فى معاملات تجارية بزيادة صادراتها للحصول على بنادق حديثة وذخيرة تحسبًا للصدام مع الأوروبيين، كما دعم عدد من المجتمعات الإفريقية قدراته الدفاعية من خلال ابتكارات عسكرية ذاتية، ففى الجنوب الإفريقي مثلا أنشأ الموزمبيقيون مصانع للعتاد الحربى كانت تنتج البنادق والبارود وشيدوا إنشاءات دفاعية.

كما كان هناك تباين جوهرى فيما استخدموه من تكتيكات، فقد واجهت دول إفريقية التعديات الأوربية الأولى بالمقاومة العنيفة على الرغم مما كان يتمتع به العدو من تفوق عسكرى ساحق، وحاول قادة إفريقيون آخرون تجنب المجابهة الأولى على أمل أن يتمكنوا إما من تعزيز قدراتها العسكرية وإما من التوصل إلى معاهدة عادلة تعترف بسيادة دولهم، وفى حالات قليلة اعترفت نظم إفريقية بالسلطة الاسمية للأوربيين طالما لم تبذل جهود جادة لفرض السيطرة الاستعمارية عليها، إلا أن هذه الاستراتيجية انتهت فى كل الأحوال إلى المجابهة بعد أن جعل مؤتمر برلين من السيطرة الفعلية شرطا مسبقا للاعتراف الدولى بدعاوى الملكية الاستعمارية[١].

---

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق ـ ص١٧٩ـ ١٨٤.

المقاومة الإفريقية فى شرق إفريقيا

فى نهايات القرن ١٩ كانت مجتمعات شرق إفريقيا قد حققت مراحل متفاوتة من التنظيم الاجتماعى، وكان بعضها كما فى ممالك بوغندا وتنجانيقا قد بلغ درجة عالية من الحكم المركزى، وفى مثل هذه المجتمعات كان رد الفعل تجاه الغزو الأجنبى مرهونًا بما يفرضه الملك أو الزعامة.

وانقسمت ردود الفعل تجاه التغلغل الأجنبى إلى فريقين: فريق قاوم الاحتلال وفريق تعاون مع الاحتلال. من بينهم من قاوم الاستعمار ووصل إلى حد المواجهة المسلحة مع الغاصبين وانتهج المقاومة الإيجابية، ومنهم من لم يحمل السلاح ولكنهم رفضوا التعاون مع الغاصبين وسلكوا سبيل المقاومة السلبية. أما الذين تحالفوا مع المستعمرين فكانوا يكافأون بتعيينهم فى مناصب فى النظام الاستعمارى. كانت ردود الأفعال تجاه الغزو متباينة، فعلى الرغم من أن كل المجتمعات كانت حريصة على المحافظة على سيادتها فقد كانت الاختلافات تظهر بحسب التماسك الاجتماعى أو عدمه.

التسابق الأوروبى وأنماط المقاومة الإفريقية:

كان التسابق الاستعمارى على شرق إفريقيا يتمثل فى ثلاث قوى متنافسة هى سلطنة زنجبار وألمانيا وبريطانيا، وكان أول من ظهر على الساحة هم العرب الذين اتخذوا من زنجبار قاعدة لعملياتهم، وكانت مصالحهم سواء فى المنطقة الساحلية أو فى الداخل مصالح تجارية، ولكن خلال العقدين الأخيرين من القرن ١٩ أخذت المصالح الألمانية والبريطانية التى كانت تتغلغل بثبات تهدد المصالح العربية.

وكانت المجتمعات الإفريقية المختلفه تتفاوت فى مدى اتصالها بالأوروبين أو العرب، وكان اتصال المناطق الساحلية بالأوروبيين والعرب أقدم عهدًا من اتصال المناطق الداخلية بهم، أما شعوب الداخل فقد كان اتصالهم بالعرب أطول أمدًا، وصلات العرب الذين يتجرون فى العاج والرقيق ترجع إلى ما قبل تسعينيات القرن ١٩.

وقد اختلفت أساليب التغلغل الأوروبى من مكان لآخر، إلا أنها تميزت بوجه عام باستخدام القوة مقترنة بتحالفات دبلوماسية، واتخذت صورة الغزوات التى كانت فى كثير من الأحيان أعمالًا للسلب والنهب، للمفوض البريطانى لمحمية شرق إفريقيا تعبير شهير يقول «لدينا فى شرق إفريقيا تجربة نادرة هى التعامل مع صفحة ملساء مع بلد يكاد يكون

بكرًا ولا يعيش فيه سوى عدد ضئيل من السكان، بلد نستطيع أن نتصرف فيه كما يحلو لنا، وأن ننظم الهجرة إليه فنفتح الباب أو نغلقه حسبما يبدو لنا أنه الأفضل».

هذا المنطق المتعالى الجاهل بأمور إفريقيا هوما استثار المقاومة وجعلها أكثر عنفا فى الشرق الإفريقي، ففى تنجانيقا (تانزانيا) قام سكان الساحل بإطلاق النار على سفينة حربية ألمانية سنة ١٨٨٨ وأعطوا الألمان مهلة يومين للجلاء عن الساحل وبعد ذلك هاجموا «كلوة» وقتلوا الألمان بها، وفى كينيا كانت المقاومة أعنف واستمرت سبع سنوات ضد الاستعمار البريطانى احتجاجًا على مد الخط الحديدى عبر أراضيهم ولم تنته إلا باغتيال زعيمهم وهو فى طريقة إلى المفاوضات التى دبرت بغية الغدر به. كما قاوم الصوماليون فى الأوجادين التدخل البريطانى واستلزم الأمر جلب تعزيزات هندية لهزيمتهم عام ١٨٩٩.

ووقع أخطر تحد للحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا بانتقاضة. الماجى ماجى فى تنجانيقا استخدم فيها الدين والسحر على السواء، ولجأ قائد الحركة إلى استخدام معتقداتهم الدينية ليعمل على وحدة الإفريقيين، وناشدهم أن يتحدوا وأن يقاتلوا الألمان فى سبيل حريتهم فى حرب شرعها الله، وأن أسلافهم سيبعثون إلى الحياة وسيحاربون إلى جانبهم، وأعد ماء طبيًا (ماجى) زعم أن من يشربه من أنصاره يصبح محصنًا ضد رصاص الأوروبيين.

كانت انتقاضة ماجى ماجى أول حركة واسعة النطاق لمقاومة الحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا، كانت حركة جماهيرية فلاحية موجهة ضد الاستغلال الاستعمارى هزت النظام الألمانى فى تنجانيقا فهو إن كان قضى على الحركة إلا أنه أجبر على التخلى عن المزارع العامة لزراعة القطن الذى كان فرضها الاستعمار الالمانى على الفلاحين للعمل دون مقابل أو بمبالغ ضئيلة إلى حد أن البعض كان يرفض أخذها، كما أدخلت بعض الإصلاحات على بنية النظام الاستعمارى وبخاصة فيما يتعلق بتجنيد العمال واستخدامهم، وكان الغرض من هذه التدابير جعل الاستعمار مستساغًا للإفريقيين. ولكن التمرد فشل وكان فشله يعنى حتمية انهيار المجتمعات القديمة.

كانت ردود الأفعال الأولى المناهضة للاستعمار تستهدف حماية استقلالها من التهديدات الأجنبية، أما ردود الفعل التالية داخل البلاد فكانت تخليص الناس من القهر والسيطرة الاستعمارية؛ لذلك اختلفت ردود الفعل وأنماط المقاومة من بلد لآخر بل بين شعوب البلد الواحد.

المقاومة فى كينيا:

ففى كينيا كانت مقاومة قبيلة الناندى الصغيرة أعنف وأطول مقاومة خاضها شعب من شعوب كينيا ضد المستعمرين البريطانيين. ترجع صلابة مقاومة الناندى للبريطانيين إلى طبيعة مجتمعهم، فقد كان الناندى مقسمين إلى وحدات إقليمية، وكان المحاربون من كل وحدة يضطلعون بمسئولية الدفاع عن إقليمهم ولهذا كانوا ينامون فى كوخ واحد وهذا أقرب ما يكون إلى الجيش النظامى. وقد جمعت الجيوش الإقليمية تحت إمرة زعيم تقليدى واحد كان هو الذى يقرر موعد قيام الجيش بشن غاراته.

وكانت الجيوش تترابط من خلال شخص يحضر اجتماعات المجلس الإقليمى حيث كان الإقليم لا العشيرة هو مركز الحياة الاجتماعية للناندى مما يعنى إخفاء التنافس العشائرى، وأفضى إلى مجتمع متماسك، وهذا التماسك هو الذى أتاح للمجتمع التفوق العسكرى على جيرانه، وهو ما جعل أن تتمكن قبيلة بالغة الصغر من إرهاب شعوب أكبر منها وأن تستمر فى ذلك بمنأى عن العقاب لعدة عقود.

إن هذا التلاحم الاجتماعى للمجتمع ومع ثقة المحاربين فى أنفسهم وفى زعيمهم جعل الناندى قوة عسكرية مرهوبة الجانب، وقد دفعهم ما حققوه من انتصارات عسكرية إلى الإيمان بتفوقهم على الشعوب الأخرى بمن فيهم البيض، فالناندى يعتقد أنه مساو للرجل الأبيض وإن لم يكن متفوقًا عليه.

وهذا التلاحم بين شعوب الناندى فى كينيا يختلف تمامًا مع شعب آخر فى كينيا ذاتها، ففى وسط كينيا كان لكل زعيم أو مجموعة أو عشيرة موقف مستقل إزاء التدخل الأجنبى، فزعيم قبائل الكيكويو «واياكى» كان مسلكه مغايرًا انحاز لمصادقة الرجل الأبيض وقام بتأمين مرور الحملة البريطانية عبر أراضى الكيكويو وعقد معاهدة تآخى دم مع المندوب البريطانى (فردريك لوجارد) وسمح له ببناء حصن على أرضه، ومع ذلك نفاه البريطانيون عندما طلب منهم أسلحه نارية.

وعلى النحو نفسه تحالف زعيم قبائل الماساى مع البريطانيين، وكان الذين يتحالفون مع البريطانيين يكافأون بتعيينهم فى مناصب فى النظام الاستعمارى.

وعلى الساحل الكينى قاومت عائلة مزروعى التى استوطنت الساحل، وقد لجأت عائلة المزروعى إلى المقاومة نتيجة محاولات البريطانيين التدخل فى الشئون الداخلية

للمجتمعات الساحلية وفرض الحكم البريطانى. قاد المقاومة الزعيم مبروك بن رشيد الذى نظم حرب كروفر ضد الأسلحة المتفوقة البريطانية، ولم يتمكن البريطانيون من هزيمته إلا بعد أن جلبوا تعزيزات من القوات الهندية.

وفى شمال كينيا وراء منطقة كيسمايو قاوم صوماليو أوجادين مع عائلة المزروعى التدخل البريطانى، واستلزم الأمر من القوات البريطانية جلب تعزيزات هندية لهزيمتهم عام ١٨٩٩.

المقاومة فى تنجانيقا (تانزانيا):

كان رد الفعل فى تنجانيقا (تانزانيا حاليًا) مماثلًا لما حدث فى كينيا، يجمع بين استخدام القوة والتحالفات الدبلوماسية، فقد تحدت شعوب المنطقة الخلفية الواقعة وراء «كلوه» القوات الألمانية واشتبكوا معهم فى أعوام ١٨٩١-١٨٩٣. وقتلوا من الألمان ٢٩٠ ألمانيًا بين قائد وجنود مما جعل الألمان يعملون للانتقام لما لحق بهم فاجتاحوا عام ١٨٩٤ منطقة الهيهى واستولوا على عاصمتها، وبعد مطاردة استمرت أربع سنوات انتحر زعيم المقاومة (مكواوا) حتى لا يقع فى الأسر.

أما سكان ساحل تنجانيقا، فقد نظموا مقاومتهم حول شخصية وزعامة أبو شيرى، وكان ساحل تنجانيقا شأنه شأن ساحل كينيا تغلب عليه الثقافة الإسلامية، فهناك كان يعيش خليط من العرب والأفارقة يتزاوجون ويتولون أمور تجارتهم المحليه، وأدت هذه التجارة المزدهرة فى ذلك الحين إلى إنشاء العديد من المدن على امتداد الساحل، وهدد مجىء الألمان هذه التجارة التى كانوا يريدون أن يحلوا مكانها تجارتهم، وأثار ذلك حنق السكان المحليين وبخاصة العرب فشرعوا فى المقاومة.

ولد الزعيم بوشيرى قائد حركة المقاومة عام ١٨٤٥ لأب عربى وأم من الأورومو (الغالا) وكان حفيدًا لأحد المستوطنين العرب الذين أقاموا على الساحل كأحد افراد جماعة اعتبرت نفسها من السكان المحليين. قاوم بوشيرى نفوذ سلطنة زنجبار على الساحل بل دعا إلى الاستقلال، وقام سكان الساحل تحت قيادته بإطلاق النار على سفينة حربية ألمانية فى سبتمبر ١٨٨٨ وأعطوا الألمان مهلة يومين للجلاء عن الساحل، وبعد ذلك هاجموا «كلوه» وقتلوا الألمان الذين كانوا بها. ولكن الألمان الذين أطلقوا على هذه المقاومة لفظ التمرد العربى أرسلوا كتيبة هاجمت حصن بوشيرى وأجبروه على الانسحاب. فرّ بوشيرى متجهًا

إلى الشمال حيث وُشي به وسُلم إلى الألمان الذين شنقوه فى ديسمبر ١٨٨٩، فانهارت المقاومة الساحلية وقام الألمان بقصف «كلوة» والاستيلاء عليها فى مايو ١٨٩٠.

المقاومة فى أوغندا:

جرى فى أوغندا نمط مماثل من ردود الفعل تجاه الاستعمار البريطانى، فشهدت الفترة ما بين عامى ١٨٩١- ١٨٩٩ صدامًا بين قوات ملك البونيورو (كاماريفا) وقوات القائد البريطانى (لوجارد) والوكلاء البريطانيين الآخرين، لجأ ملك البونيورو أولًا إلى الدبلوماسية وحاول الاتفاق مع (لوجارد) ولكن دون جدوى، وفى النهاية شن الملك حرب عصابات ربما كانت الأولى من نوعها فى شرق إفريقيا، فانسحب من بونيورو إلى الشمال ومن هناك أخذ يغير على القوات البريطانية واستعمل تكتيكات حرب العصابات المتمثلة فى الانسحاب من بلد مجاور ثم الإغارة على القوات المحتلة. ويعتبر « موانجا» ملك كاباكا بوغندا (الباجندا) التى أعلنت محمية ١٨٩٤ أعظم دبلوماسى بين كل أولئك الذين كان عليهم أن يواجهوا الاندفاعة الإمبريالية فى شرق إفريقيا فى العقد الأخير من القرن ١٩ فحين ارتقى العرش عام ١٨٩٤ أظهر ريبة فى الأوربيين فى بلاده الذين تنكروا فى ثياب المبشرين للسيطرة على بلاده، وتجلت براعته الدبلوماسية أيضًا فى الطريقة التى عامل بها الطوائف الدينية المختلفة المتصارعة ويؤلبها على بعضها البعض، الكاثوليك ضد البروتستانت والمسلمين ضد الكاثوليك أو البروتستانت أو كليهما حسب تقديره للخطر الذى يشكله كل منهم مع حكمه، وهكذا استخدام موانجا دبلوماسية «فرق تسد»، ذلك التكتيك الذى استطاعت الدول الاستعمارية أن تستخدمه بفعالية فى السيطرة على إفريقيا.

كان موانجا يلجأ إذا اقتضى الأمر إلى إحياء بعض التقاليد القديمة ساعيًا إلى طرد الأجانب جميعا كما حدث عام ١٨٨٨. فقد حاول أن يستدرج كل الأجانب وأتباعهم لحضور استعراض بحرى يجرى فى جزيرة داخل بحيرة فكتوريا على أن يتركهم هناك حتى يموتوا جوعًا؛ إذ كان القيام بتدريبات بحرية فى البحيرة تقليدًا من تقاليد ملوك البوغندا، ولكن الخطة تسربت إلى الأجانب فقاموا بتدبير انقلاب فخلعوا «موانجا» عن العرش ونصبوا أخاه ليكون حاكمًا خاضعًا لسيطرتهم. وقد نجح «موانجا» بعد ذلك فى استرداد عرشه ولكن لم يلبث أن اطيح به ونُفى.

على أن هناك من بين الباجنديين من تحالفوا تحالفًا وثيقًا مع المستعمرين البريطانيين

وأصبحوا يعرفون باسم «إمبريالية الباجند» وهؤلاء من اضطلعوا بعد اتفاقية ١٩٠٠ بمسئولية مد نفوذ الاستعمار البريطانى إلى بقية أوغندا. وقد جعلت اتفاقية ١٩٠٠ من البوجنديين شركاء للبريطانيين فى مد النفوذ الاستعمارى فى المنطقة، وأصبحت بوجندا مركزًا للعمليات البريطانية، وترتب على ذلك أن أصبحت الكراهية للاستعمار تتجه للبوجندا أكثر من أن تتجه للاستعماريين أنفسهم، وأن كثيرًا من المشاكل السياسية التى عانتها أوغندا بعد ذلك كانت نابعة من هذه المشاكل المبكرة بين البريطانيين والباجندا.

خلاصة القول أن المقاومة الإفريقية كانت تختلف باختلاف طبيعة المجتمع ووفق إدراك كل مجتمع محلى للتهديد الخارجى لسيادته، كان الاختلاف ينحصر فى اتساع المقاومة أو ضيقها، ولكن فى المجمل كانت المقاومة فى كل مكان ولم يفرض الاستعماريون سلطتهم إلا بالعنف. وقد أدت مطالب الاستعماريين البيض إلى حمل الإفريقيين على العنف بسبب المعاناة التى واجهوها من فرض الضرائب وإلزامهم وتسخيرهم فى العمل بأداء أعمال معينة وفقدان المزيد من الأرض والحرمان من الحرية السياسية وتآكل ثقافاتهم. ولم يكن فرض الضرائب وسيلة لزيادة الإيرادات فحسب بل سبيلا لإجبار الإفريقيين على الخروج من ديارهم إلى سوق العمل والاقتصاد النقدى، فقد كان ثمة احتياج لأيدٍ عاملة فى مزارع المستوطنين الغربيين والأشغال العامة مثل شق الطرق.

إن الحقيقة المؤكدة أنه منذ الأيام الأولى للاستعمار قامت الحركات المناهضة له فى كل شرق إفريقيا، وكانت تستهدف حماية استقلالها من التهديدات الأجنبية وتخليص الناس من القهر والسيطرة الاستعمارية، وظهرت حركات وتمردات سكان الساحل مبكرة ورفضوا ترحيلهم من أراضيهم لإفساح المجال للمستوطنين البيض، ولجأوا إلى حرب العصابات حينما طلب منهم جمع أسلحتم وتسليمها واشتبكوا فى صراع مع البريطانيين وكان رد الفعل البريطانى على ذلك إحراق البيوت ومصادرة الممتلكات.

على أن أخطر تحدٍّ للحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا كان انتفاضة ماجى ماجى كما سبق الإشارة إليها ـ وقد اجتمعت السخرة وفرض الضرائب والمضايقات المستمرة وظروف العمل القاسية كأسباب لنشوب الانتفاضه، ولكن السبب المباشر كان تطبيق مشروع المزارع العامة لزراعة القطن، وقد طولب الناس بالعمل فى هذا المشروع ثمانية وعشرين يوما فى العام دون أجر، وكان هذا يضطر الناس لترك مزارعهم للعمل فى هذه المزارع العامة. وقد شملت الانتفاضة أكثر من عشرين مجموعة عرقية مختلفة، كانت حركة ثورية أحدثت

تغييرات أساسية فى النطاق التنظيمى والتقليدى واستمرت من يوليو ١٩٠٥ إلى أغسطس ١٩٠٧ وانتشرت فى مساحة تبلغ ستة وعشرين ألف كيلو متر مربع فى الثلث الجنوبى من تنجانيقا. كانت انتفاضة الماجى ماجى أول حركة واسعة النطاق لمقاومة الحكم الاستعمارى فى شرق إفريقيا، كانت حركة جماهيرية فلاحية موجهة ضد الاستغلال الاستعمارى هزت النظام الألمانى فى تنجانيقا.

وبوجه عام أحدثت فى شرق إفريقيا تغييرات بعيدة الأثر، فقد فرض الاستعمار على السكان العنف، وكان موقف الإفريقيين يجمع بين المواجهة العسكرية والعمل السياسى، أو يذعنون ويتخذون موقف اللامبالاة مالم يُطلب منهم مطالب مباشرة، وكانت إقامة النظام الاستعمارى تعنى تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية، فقد فرضت الضرائب والسخرة والحرمان العام من الحقوق الإنسانية، ورد بعض الإفريقيين على هذه التغييرات ردًّا عنيفا وأذعن آخرون.

المقاومة الإفريقية فى وسط القارة وجنوبها

خضعت مجتمعات كثيرة فى وسط القارة وجنوبها خضوعًا سلميًا للاستعمار أول الأمر لعجزها عن المقاومة أو عن ادراك الآثار المترتبة على الحكم إلا أنها ما لبثت أن هبت بعد ذلك محاولة استرداد استقلالها، وقد حدث هذا النوع من المجابهة المتأخرة فى الكونغو حيث كان السكان الأصليون ينظرون الى وكلاء دولة الكونغو الحرة أول الأمر كشركاء تجاريين وحلفاء ضد تجار الرقيق الأجانب، ولم تدرك المجتمعات المحلية أنها فرطت فى استقلالها دون أن تدرى إلا حين حاولت دولة الكونغو الحرة أن تفرض الضرائب وتجند العمال للسخرة.

وفى خلال الفترة ما بين أعوام ١٨٨٥-١٩٠٥ تمردت أكثر من اثنتى عشرة مجموعة من المجموعات التى تم إخضاعها اسميًا فى الكونغو. وظلت هذه المجموعات تقاوم الأوروبيين مقاومة فعالة مدة تزيد عن عشر سنوات قبل أن تحلق بهم الهزيمة ١٩٠٥. كما تمرد الأهالى فى نهاية القرن ضد السخرة فى مزارع المطاط واستطاعوا فى ذروة نشاطهم أن يعبئوا أكثر من خمسة آلاف عامل خاضوا حرب عصابات طويلة الأمد انطلاقًا من قواعدهم فى أعماق منطقة الغابات.

وفضلًا عن التباين فى ردود الأفعال الأولى كان المقاومون يختلفون فى تمسكهم

بذاتيتهم الاثنية، فمن جهة كان هناك عدد من المجتمعات الكبيرة والصغيرة التى واجهت الغزاة دون أن تحاول أى منها إقامة تحالفات أكثر اتساعا، وكان عجز التكتلات المتنافسة فى دولة عن الاتحاد فى مواجهة التغلغل الأوروبى هو الامتداد المنطقى لرؤيتها الذاتية، وثمة أمثلة لحالات ساعد فيها المتنافسون الدول الإمبريالية على أمل تعزيز مركزهم الداخلى أو فى مقابل الحصول على مساعدة ضد خصمه الداخلى، فى حين حاولت أنظمة إفريقية أخرى التغلب على النقص فى قدراتها العسكرية بتنظيم تحالفات عريضة القاعدة ومتعودة الاثنية فى مواجهة الاستعمار. كان ثمة ارتباط بين درجة التمييز الاثنى ونطاق حركات المقاومة، فحينما كانت المجتمعات الإفريقية تحارب بمفردها كان حجم جيشها وقدرتها على المقاومة محددة، إما التحالفات الواسعة فقد استطاعت فى أغلب الاحيان أن تعبئ جيوشًا كبيرة قوية وأن تقاوم مقاومة طويلة. وكانت مثل هذه الاتحادات المؤقتة تقوم حينما كانت توجد تحالفات اقتصادية أو دينية أو صلات قرابة. وفى بعض الأحيان كان الخصوم التاريخيون يطرحون عداءهم جانبًا سعيًا لضمان البناء.

ولما كانت حركات المقاومة لم تبلغ أهدافها السياسية النهائية، فقد كان هناك اتجاه إلى التهوين من إنجازاتها العسكرية المباشرة أو تجاهلها ووصم هذه الحركات جميعها بالفشل، والحقيقة أن الاختلاف فى نطاق هذه الحركات وفى مقدرتها على الحصول على أسلحة وفى حجم القوات الإمبريالية خلق أوضاعًا بالغة التنوع، ففى الوقت الذى منيت فيه أنظمة إفريقية بهزيمة تمكنت أنظمة لا تزيد عددًا عنها من احتواء الهجمات الأوروبية الأولى وكبدت العدو خسائر جسيمة، ففى نياسالاند مثلًا أوقفت المقاومة الأهلية تقدم الجيش الاستعمارى البريطانى لمدة تقرب من خمس سنوات، وحدث موقف مماثل فى الكونغو حيث تكبدت القوة العامة الحكومية خسائر على مدى عشرين سنة قبل ان تخضع المقاومة فى نهاية المطاف.

وعلى الرغم من هذه الانتصارات التى تحققت بشق الأنفس انتهت كل حروب الاستقلال فى الوسط والجنوب الإفريقي بالفشل، ويرجع تفسير عجز الإفريقيين عن وقف الزحف الأوروبى إلى العوامل الذاتية والاثنية والانقسامات الداخلية بين الفئات الحاكمة أو فى الطبقة الحاكمة أو بين هذه الطبقة وبين المحكومين، كما أدت الخصومات الإفريقية إلى تسهيل استراتيجية «فرق تسد» التى انتهجها المستعمرون. فتاريخ النضال من أجل المحافظة على استقلال الإفريقيين وسيادتهم يزخر بأمثلة الإفريقيين لم يقفوا عند حد الخضوع للقوى

الاستعمارية بل ساعدوها أيضًا سعيًا للانتقام من إساءات كان جيرانهم من الإفريقيين قد ارتكبوها فى حقهم. كما كان عدد من القادة الإفريقيين يرون أن عقد التحالفات مع الاوروبيين يمكن أن يحقق تطلعاتهم التوسعية وأن يعزز فى الوقت نفسه مركزهم الداخلى، وهناك مجتمعات تصدت للغزاة فى بادئ الأمر ثم انقلبت إلى تحالفات معهم مقابل مكاسب مادية ووعود بمراكز أفضل فى ظل النظام الاستعمارى الجديد، ولولا الحلفاء والمرتزقة الإفريقيون لما تمكن الأوروبيون من فرض حكمهم بمثل هذه التكلفة الزهيدة من القوة البشرية لهم، كان المجندون الإفريقيون يمثلون أكثر من ٩٠٪ من الجيوش البرتغالية التى تمكنت فى النهاية من فتح وادى الزمبيزى سنة ١٩٠٢، وشهدت أنجولا نمطًا مماثلًا، كما كان جيش الكونغو الحرة يتكون من مجندين إفريقيين مع المرتزقة الزنجباريين من زنجبار والهوسا من نيجيريا وكان الضباط فقط أوروبيون. كانت النتيجة النهائية لهذه العوامل هى الحد من إمكانيات بذل جهود مناهضة للاستعمار واسعة النطاق وعريضة القاعدة ومنسقة على النحو الذى يستلزمه التصدى للتفوق الواضح فى القوة العسكرية التى كانت تتمتع بها القوات الاستعمارية.

المقاومة المحلية المحدودة:

على خلاف المقاومة التى كان هدفها الرئيسى هو المحافظة على الاستقلال؛ كان هناك دافع مباشر من الأهالى للمقاومة، ذلك أن لسعى القوى الاستعمارية إلى حشد أيد عاملة رخيصه لمشروعات الحكومة والمصالح الرأسمالية الأوروبية لجأت إلى السخرة إلى جانب ما فرضته من ضرائب باهظة، ففى الكونغو كان الإفريقيون يرغمون على جمع المطاط والعمل فى خطوط السكك الحديدية وفى المناجم، وكان المستفيد الأول من أعمال السخرة فى موزمبيق شركات متعددة الجنسيات، كما جرى تصدير موزمبيقيين آخرين إلى روديسيا الجنوبية(زيمبابوى) وجنوب إفريقيا، وتكررت هذه الصورة من القهر والإرهاب لتجنيد الإفريقيين للعمل فى مزارع الأوروبيين فى نياسالاند وفى مناجم روديسيا الشمالية(زامبيا). ولم يُعف من التجنيد لأعمال السخرة الفلاحون الذين بقوا فى ديارهم، فقد كان القانون يفرض على سكان الريف العمل عددًا معينًا من الأسابيع بلا مقابل فى مشروعات الأشغال العامة وإلا تعرضوا للسجن.

باختصار كابد الإفريقيون أعباء اجتماعية واقتصادية باهظة من الاستعماريين شمل الأسر إما بصورة مؤقتة أو دائمة، وعاش الفلاحون فى خوف دائم مما يرتكبه الأوروبيون

والمرتزقة الإفريقيون من عسف، وفى المجال الاقتصادى ترتب على تصدير القوى العاملة زيادة حدة النقص فى الأيدى العاملة مما أسفر عن ركود النشاط الريفى وتخلفه.

وقد أثارت ألوان العسف هذه احتجاجات ومقاومة من جانب الفلاحين والعمال. كانت هذه المقاومة المحلية تمارس يوميًا وبدون منظور مستقبلى، وقد تجاهلها المؤرخون على الرغم من أن المقاومة اليومية والعصيان والتمردات تمثل فصلًا هامًّا من تراث الكفاح ضد الاستعمار فى وسط القارة. وقد شاع التهرب من دفع الضرائب فى كل مكان فكانت القرية تلجأ قبل وصول جباة الضرائب إلى الفرار إلى منطقة لا يسهل الوصول إليها وتظل فيها إلى أن يرحل موظفو الحكومة.

كما توصل الفلاحون إلى عدد من الأساليب لتجنب مشاق السخرة أو التقليل منها، وبلغ بهم الأمر إلى حد حمل السلاح وطرد الذين يجندون العمال من أراضيهم، ولجأوا إلى تكتيكات أخرى منها التمارض والتباطؤ فى العمل والإضراب والهروب. ولجأ البعض ممن استبد بهم السخط إلى تدمير المعدات الزراعية وإشعال النار فى المستودعات وسرقة مخازن شركات الامتياز وتخريب خطوط النقل والمواصلات، وكان الفرار عبر الحدود تعبيرًا شائعًا آخر من السخط، وتشير السجلات البريطانية الرسمية إلى أن أكثر من خمسين ألف إفريقى ممن كانوا يعيشون فى وادى الزمبيزى هربوا إلى روديسيا الجنوبية فى خلال الفترة ما بين ١٨٩٥-١٩٠٧، وقد وقع فى وادى الزمبيزى فيما بين أعوام ١٨٩٠-١٩٠٥ ست عشر تمردًا.

وكانت إقامة مجتمعات اللاجئين فى المناطق المقفرة صورة من الصور التى اتخذتها استراتيجية الانسحاب فبدلًا من عبور الحدود الدولية كان الفلاحون الذين أحجموا عن الوفاء بالتزاماتهم القانونية يقيمون لأنفسهم مجتمعات منعزله تتمتع بالاستقلال الذاتى.

وثمة مجتمعات أخرى لم تقنع بمجرد البقاء خارج نطاق السيطرة الأوروبية بل اتخذت موقفًا عدائيًا تجاه أنظمة الحكم الاستعمارية، وأخذت تهاجم رموز القمع الريفى من مجندى عمال وجباة ضرائب ورجال شرطة أفارقة ساعية بذلك إلى حماية قراهم الأصلية وحماية للفلاحين المحليين من جباة الضرائب ومجندى العمال وموظفى الشركات المستغلين ورجال الإدارة الجائرين، ولم يكن مجتمعهم يعتبرهم مجرمين على الرغم من انتهاكهم نظام الحكم الاستعمارى وكانوا يسمونهم «قطاع الطرق الاجتماعيين». وكان هؤلاء ينالون دعمًا مستمرًا

من السكان الريفيين الذين كانوا يمدونهم بانتظام بالطعام والذخيرة، وفى بعض الأحيان كان المجندون الإفريقيون الذين عبئوا أصلًا لقمع المنشقين المحليين يتمردون هم أنفسهم احتجاجًا على المظالم الاستعمارية التى لم يكونوا بمنجى عنها، وكانت تمرداتهم بوجه عام نتيجة لإنخفاض الأجور والعقاب الصارم والتصرفات النزقة من الضباط الأوروبيين.

وابتداء من عام ١٨٨٥ أى منذ احتلال الأجزاء الأولى من وسط إفريقيا حتى عام ١٩١٨ وقع أكثر من عشرين تمردًا فى المستعمرات الخمس أنجولا وموزمبيق ونياسالاند وروديسيا الشمالية والكونغو. كما شارك الكهنة والوسطاء الروحانيون بتنظيم التمردات وأضفوا عليها طابعًا مقدسًا، وكان انغماسهم فى هذا الشأن امتدادًا منطقيًا لدورهم التاريخى كحراس روحانيين للوطن، كانوا يدعون إلى الإطاحة الفورية بالسادة الاستعماريين، كما جاء فى موعظة كاهن نياسالاند عام ١٩٠٩ «لقد آن لنا أن نقاتل البيض، وسنبدأ من الآن نخوض القتال ولسوف يهب السود ويطردوا البيض جميعًا من البلاد[١]».

أليس من التجنى إنكار المقاومة الإفريقية وجهود الإفريقيين المضنية فى الحفاظ على سيادتهم؟.. لقد تحققت نبوءة الكاهن النياسا لندى بعد نصف قرن حين حصلت أغلب الدول الإفريقية على استقلالها فى الستينيات من القرن العشرين، وتحررت إفريقيا سياسيًا من الاستعمار السياسى ولكن وقعت فى شرنقة الاستعمار الاقتصادى.

ردود الفعل الإفريقي للغزو وأسباب فشلها:

ما إن حل عام ١٩٠٠ حتى كانت جهود الإفريقيين للحفاظ على سيادتهم واستقلالهم قد أحبطت. وعمدت السلطات الاستعمارية إلى تطبيق مبدأ السلطة التى لا تنازع فعينت مفوضين للأقاليم ومفوضين جوالين وأنشأت محاكم وسنت قوانين وتشريعات جديدة، وثبتت بعض الحكام وعزلت آخرين وعينت حكامًا جددًا، وأدخلت الضرائب المباشرة وغير المباشرة واستعانت بالسخرة فى إنشاء الطرق والسكك الحديدية.

وجاء رد الفعل الإفريقي تجاه النظام الاستعمارى عكس ما كان يتوقع المستعمرون من الخضوع أو التحالف، بل ظهرت المقاومة بشتى الطرق: الثورات وحركات التمرد والهجرات والاضطرابات والمقاطعة. وكان أشهر سلاح استخدمه شعوب غرب إفريقيا هو سلاح التمرد والثورة. من أبرز الأمثلة على ذلك الثورة التى قادها فودة سيلا ملك كومبو

(١) تاريخ إفريقيا العام ـ المرجع السابق صفحه ١٨٩ ـ ١٩٧.

الذى كان شيخ طريقة مسلمًا، وفودة كابا الحاكم المسلم فى جامبيا، وثورة ضريبة الأكواخ فى سيراليون[1] عام ١٨٩٨، وثورة اللوبى والجولا والديولا فى السودان الغربى.

الهجرات الجماعية:

لم تكن الثورات وحركات التمرد هى استراتيجية المقاومة الوحيدة التى اتبعتها شعوب إفريقيا، فقد كان من أساليب المقاومة الشائعة الهجرات الجماعية احتجاجًا على قسوة الحكم الاستعمارى، وكان هذا الأسلوب شائعًا بوجه خاص فى المستعمرات الفرنسية، ففى تلك المستعمرات لم يكن فى استطاعة الإفريقيين أن يلجأوا إلى الثورة المسلحة نظرًا لمرابطة وحدات المراقبة العسكرية، فلجأوا إلى الفرار هربًا من التدابير الاستعمارية التى كانوا يرون فيها قهرًا وإذلالًا لهم. ففى الفترة من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٩ هاجرت أعداد كبيرة من الشعب الفولانى من ساحل العاج إلى ساحل الذهب ومن السنغال إلى جامبيا ومن فولتا العليا إلى ساحل الذهب ومن داهومى الى نيجيريا.

وكان يلجأ إلى تلك الثورات والهجرات الاحتجاجية سكان الريف وسكان المناطق الداخلية فى تلك المستعمرات ممن كان لهم اتصال مباشر بالأوروبيين، أما فى المناطق

---

(١) كانت ثورة ضريبة الأكواخ فى سنة ١٨٩٨ تعبيرًا عن استياء شعب سيراليون من تشديد قبضة الحكم البريطانى عليهم بتعيين مفوضين للأقاليم وتعزيز شرطة الحدود وإلغاء تجارة الرق وتنفيذ مرسوم الحماية الصادر فى سنة ١٨٩٦ الذى رخص للحكومة الاستيلاء على الأراضى البور وفرض ضريبة مقدارها خمس شلنات سنويًا على كل منزل من غرفتين وعشرة شلنات على المنازل الأكبر فى المحمية، فقرر زعماء الشعب بالإجماع الامتناع عن سداد الضريبة وثاروا على الحكم البريطانى بزعامة أحدهم هو باى بوريه، واشترك فى الثورة ثلاثة أرباع أهالى المحمية وكانت قوات الثوار تغير على المحطات التجارية وتنهب محتوياتها وتقتل الموظفين والجنود البريطانيين وكل من يشتبه فى مساعدتهم للحكومة الاستعمارية. وقد خربت البلاد من الناحية التجارية وأحرقت كثير من المحال فاضطر البريطانيون إلى استدعاء سريتين من لاجوس لقمع الثورة التى أرجعها حاكم سيراليون البريطانى إلى بروز الوعى السياسى عند الإفريقيين قائلًا «بدأ ابن البلد يشعر بقوته من واقع الأهمية التى يضيفها الرجل الأبيض على قيمة منتجات بلاده ونتاج عمله، ولن يكون بوسع الرجل الأبيض مستقبلًا أن يتاجر بسذاجة الإفريقي وجهله كما كان يفعل فى الماضى».

الواقع أن تحيل حاكم سيراليون البريطاني يصدق علىٰ معظم الثورات وحروب العصابات التىٰ نشبت في غرب إفريقيا فيما بين الفرنسي ١٨٩٠ – ١٩٠٠ وانتفاضة الأهالي وثوراتهم في داهومي وفي ساحل العاج وغينيا. (والجدير بالذكر ان تلك الثورات ازدادت حدة إبان الحرب العالمية الأولىٰ).

الساحلية والمراكز الحضارية فكان السكان يلجأون إلى خيارات أقل عنفًا منها الإضرابات[1] وحركات المقاطعة وإرسال العرائض والوفود من جمعيات وحركات شتى إلى الحكومات الاستعمارية المحلية والمركزية.

الاحتجاج الديني:

ظهر الاحتجاج في المجال الديني بين المسلمين والمسيحيين وأتباع الديانات التقليدية فقد تحالف أتباع الديانات التقليدية في السودان الفرنسي ضد انتشار الثقافة الفرنسية والدين المسيحي والإسلام، وأحيا أتباع الدين الإسلامي المهدية وأسسوا الحركات الصوفية التي قاومت الوجود الفرنسي، كذلك ثار المسيحيون الإفريقيون ـ خاصة في المستعمرات البريطانية ـ ضد السيطرة الأوروبية على الكنائس وفرض الثقافة والطقوس الأوروبية وأدى ذلك إلى انفصالهم عنها وتكوينهم لكنائس خاصة بهم كالكنائس المسيحية والإثيوبية التي تتبع طقوسًا ومذاهب إفريقية متميزة، ومن هذه الكنائس كنيسة المعمدانية الوطنية وهي أول كنيسة إفريقية أنشئت في نيجيريا سنة ١٨٨٨ .

أسباب الفشل:

كانت الهزيمة مآل كل حركة من حركات المقاومة والعصيان المسلح على الرغم من أن شعوب إفريقيا لم تكن تنقصها الشجاعة ولا الدراية بأساليب الحرب ولكنها كانت في مركز ضعيف للغاية بالمقارنة مع الغزاة، فإن التفوق التقني لأسلحة العدو لم يكن يقابله ميزة تعوض المقاومة عن ذلك التفوق، صحيح أنها كانت أكثر دراية ببلادها، كما أن قسوة الظروف المناخية كانت تضطر الأوروبيين إلى وقف حملاتهم في خلال فترات كانت تتيح لأهالي المنطقة فترة لالتقاط الأنفاس، ولكن قوات العدو كانت تعوض ذلك أحيانًا من جنود إفريقيين يقودهم ضباط أوروبيون، وكثيرا ما كان يزحف وراء القوات النظامية الأوروبية آلاف من جنود الاحتياط الإفريقيين القادمين من المناطق المضمونة أو الخاضعة للحماية، وكانت مهمتهم الأساسية تتمثل في النهب المنظم للبلاد المتصارعة مع الدول الاستعمارية كي يختل نظام تلك البلاد.

وفضلًا عن ذلك فإن دول إفريقيا لم توفق ملطقًا إلى اقامة تحالف عضوي يضطر

---

(١) شاع استخدام الإضراب كسلاح احتجاج لدى الإفريقيين مثلما حدث مع عمال السكك الحديدية على خط داكار ـ سان لوي عام ١٨٩٠، وفي عام ١٨٩١ أضربت النساء في داهومي اللاتي كن يعملن في الكاميرون، كما أضرب عمال لاجوس مطالبين بالأجور سنه ١٨٩٧ وقد وصف هذا الإضراب بأنه أول إضراب كبير في المستعمرات.

أعداءها إلى خوض معارك على عدة جبهات فى آن واحد.. وقد لجأت معظم حركات المقاومة إلى حرب العصابات بعد فوات الأوان. بالإضافة إلى كل ذلك كانت الدول الاستعمارية قد توصلت عام ١٨٩٠ بمقتضى اتفاقية بروكسل إلى الاتفاق على عدم بيع الأسلحة للإفريقيين، وبعد هذا الاتفاق صار الإفريقيون يواجهون مشكلات إدارية بالغة الصعوبة واضطرت شعوب إفريقيا الى استخدام أسلحة عفا عليها الزمن كالبنادق القديمة والأقواس والسهام فى مواجهة المدافع ورشاشات مكسيم، وكان محصلة هذه العوامل هى هزيمة الإفريقيين.

لابد أن نسجل بإعجاب هذه الفترة البطولية من تاريخ إفريقيا، لا يشينها أنها منيت بالهزيمة على يد أعداء أقوى عدة وعتادًا طالما أن القضية التى ضحى جنود المقاومة الإفريقيون بأرواحهم فى سبيلها لا تزال حية فى أذهان أبنائهم وأحفادهم.

كلمة أخيرة:

أدى تبلور النظم السياسية القائمة على أساس الدول القومية فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبخاصة بعد اكتمال الوحدة الألمانية سنة ١٨٧٠ أدى إلى منافسة حادة بين هذه القوى الكبرى وإلى مناورات دبلوماسية بينها لا تتوقف، وفى ذلك الوقت حدثت تطورات داخلية على مستوى القارة الإفريقية إذ كانت هى الأخرى تجتاز مرحلة من التحولات الجذرية، فمثلا أدت الأزمات المالية لمصر إلى تدخل أجنبى متزايد تبعه ردة فعل ومقاومة وطنية وضعت البلاد فى أزمة سياسية داخلية. كما تسببت الاكتشافات المنجمية فى الجنوب الإفريقي بتعديل كامل لعلاقات القوة فى هذا الجزء من القارة الإفريقية، وقل الطلب على المنتجات القديمة كالذهب والعاج والعبيد على حساب المنتجات الحديثة كزيت النخيل والكاوتشوك، وأضعف هذا وضع الزعماء الأفارقة التقليديين فى أماكن واسعة فى إفريقيا.

وبطبيعة الحال لم يكن المستعمرون على معرفة بتفاصيل الأوضاع فى إفريقيا فى مستوى معرفة الحكام الإفريقيين بها، فكانوا ينفذون استراتيجية الزحف والتقدم بشكل عشوائى وغير منسق فاصطدموا بالعديد من حركات المقاومة الإفريقية، بل استثاروها من جراء جهلهم حتى أن بعض الأحداث التى اعتبرها المستعمرون تمردات اتضح أنها فرضت على الأهالى بسبب جهل البيض بأوضاع الإفريقيين.

كان محتمًا أن ينتصر الأوروبيون فى النهاية لتفوقهم العسكرى، وما إن انتصروا حتى

حاولوا أن يدعوا أن معظم الأفارقة تقبلوا «السلام الاستعمارى» شاكرين، وتم تجاهل وقائع المقاومة الإفريقية، وما يضحد هذا القول طلب زعيم ثورة الهيريرو من عدوه السابق الزعيم الإفريقى «ويت بوى» فقد كتب إليه يناشده القيام بعمل مشترك «إن رغبتى هى أن نهب نحن الأمم الضعيفة ضد الألمان فلتقاتل إفريقيا كلها ضد البيض ولنمت معًا فى المعركة أفضل من أن تموت بفعل سوء المعاملة فى السجن أو غيرها من الأسباب».

إن المقاومة الإفريقية أثبتت أن الإفريقيين لم يتقبلوا عملية إحلال السلم الأوروبية فى هدوء ودعة. إن المقاومة لم تكن يائسة ولا رعناء، وان حركات المقاومة هذه لم تذهب هباء، وأنها أتت بنتائج هامة وقتها ولم تزل لها اصداء هامة حتى اليوم، وأن هذه الثورات والانتفاضات أسهمت فى تحسين أوضاع الشعوب التى تمردت، وأن المجتمعات الإفريقية بكل اشكالها تقريبًا قاومت فى كل مناطقها الزحف الأوروبى، وأن الحكم الاستعمارى لم يفرض إلا بحد السيف واستمر قائمًا بفضله.

* * *

فى خلال القرنين ١٨و١٩ درج الأوروبيون على وصف الأفارقة بأنهم أشبه بالأطفال أو بغير البالغين، وأن على الدول الاستعمارية أن تمارس الوصاية على السكان الإفريقيين نيابة عنهم حماية لهم ولتحقيق تقدمهم، وهذا هو حق القوى فى حماية الضعيف! واعتبرت إفريقيا بمثابة تجمع من المقاطعات يتعين على الأوروبيين تجنيد سكانها وأدائهم لخدمة أهداف تحدد من الخارج.

كانت أهداف الاستعمار فى المستعمرات ترمى إلى الحفاظ على النظام وتفادى المصروفات المالية الباهظة وتشكيل قوة من الأيدى العاملة تستخدم فى أشغال نقل الأحمال، ثم فى مرحلة لاحقة شق الطرق وإقامة السكك الحديدية، وكان يستحيل أن يتم تحقيق هذه الأهداف إلا باستخدام العمل الإجبارى وفرض الضرائب (كانت الضرائب الشخصية المفروضة على جميع الإفريقيين من الذكور وسيلة لتمكين العملية الاستعمارية من الاعتماد ماليا على نفسها).

لذلك لجأ المستعمرون بعد أن أخضعوا القارة للسيطرة الاستعمارية، واحتلت غالبية الدول الإفريقية عن طريق الغزو إلى تنحية الرؤساء الإفريقيين الحاكمين ونفيهم، ولكن هذا الإجراء كان فاشلًا ومثيرًا للسخط وأدى إلى تفكك المجتمعات، واكتشف الاستعماريون

أنه يستحيل قيادة الأهالى بدون قيادة إقليمية، ولا توجد قيادة إقليمية بدون رؤساء محليين يكونون بمثابة الرابطة بين السلطة الاستعمارية والسكان، وأن استخدام المؤسسات القائمة يعد أفضل طريقة للإدارة الاستعمارية وهى التى تساعد المقيم الاستعمارى على مباشرة عمله، ورأت ان الإدارة غير المباشرة هى الأفضل وهى التى تتمثل فى عدم التدخلات فى النزاعات التى تنجم بين الأفارقة والإبقاء على مجال ملائم يستطيعون معه أن يقيموا توازنًا بين ما يبغون تطبيقه وبين الواقع المحلى القائم فا بتدعوا نظرية الإدارة غير المباشرة وهى ان يترك للرؤساء الأفارقة مسئولياتهم السابقة وكذلك وظائفهم وامتيازاتهم بحيث يتسنى لهم أن يظلوا فى أعين السكان المحليين الحكام الشرعيين.

ولكن الممارسة العملية كانت تختلف تمامًا عن المبدأ، والواقع أن الرئيس الأهلى المحلى لم يكن أكثر من مجرد أداة، كان عنصرًا مساعدًا فقط وبالتالى ضعفت وتقلصت مهامه وسلطاته التقليدية، وفشل فى إجراء التكيف المطلوب بين الأهالى والمستعمرين.

ملحوظة ختامية: إننا عندما نتحدث عن التكالب على إفريقيا نقصد به الاقتسام للأراضى الإفريقية وللسيادة الإفريقية، وننسى أن هناك جانبًا آخر لهذا التكالب على الموارد الإفريقية، فقد كان الماس والذهب من بين هذه الموارد ولكن أكثرها قيمة كانت القوة العاملة الإفريقية التى تكالبت السلطات الاستعمارية بحماس للحصول عليها، وكان استعمار إفريقيا يطرح على الغرب بديلًا أكثر ربحية له وأقل تكلفة وهو أنه بدلًا من استرقاق الافارقة ونقلهم عبر الأطلنطى فليسترقوا فى أرضهم ويُسخروا للعمل فى إنتاج ثروات إفريقيا لصالح الغرب.

وكما هبت المقاومة لمواجهة التكالب على الأرض والسيادة؛ هبت كذلك لمواجهة التكالب على الأيدى العاملة، وكانت أشكال الفرار من مناطق العمل والإضرابات ورفض العمل فى باطن الأرض (فى المناجم) والشغب فى معسكرات العمل والإقامة هو ما اتخذته لدرء بطش الاستعمار. وقد اكتسبت المقاومة عمقًا جديدًا من خلال المقاومة الاقتصادية ومواجهة العدوان الاقتصادى الأوروبى.

على أن الأثر الذى لا يُمحى من نفوس الإفريقيين والمترتب على الصدمة الأوروبية هو فقدان السيادة، وما إن يفقد شعب سيادته ويخضع لثقافة أخرى حتى يفقد اعترافه لنفسه

والقدرة على التصرف المستقل وهى الضامن الوحيد للإسهام فى صنع التاريخ إسهامًا فعّالًا وواعيًا. وهذا ما حدث بالفعل فقد فقدت الدول الإفريقية سلطتها واستقلالها ومعناها بين عشية وضحاها.

إن الدارس لتاريخ إفريقيا ليتعجب كيف استطاع أهل إفريقيا أن يحملوا هذا العبء الاستعمارى كله وأن يظلوا على قيد الحياة يكافحون.. لذلك ليس من العجيب فى إفريقيا أن شعبها قد استعمر ولكن العجيب أنه موجود وأنه باق على اصراره أن ينتصر على مستعمريه.

*****